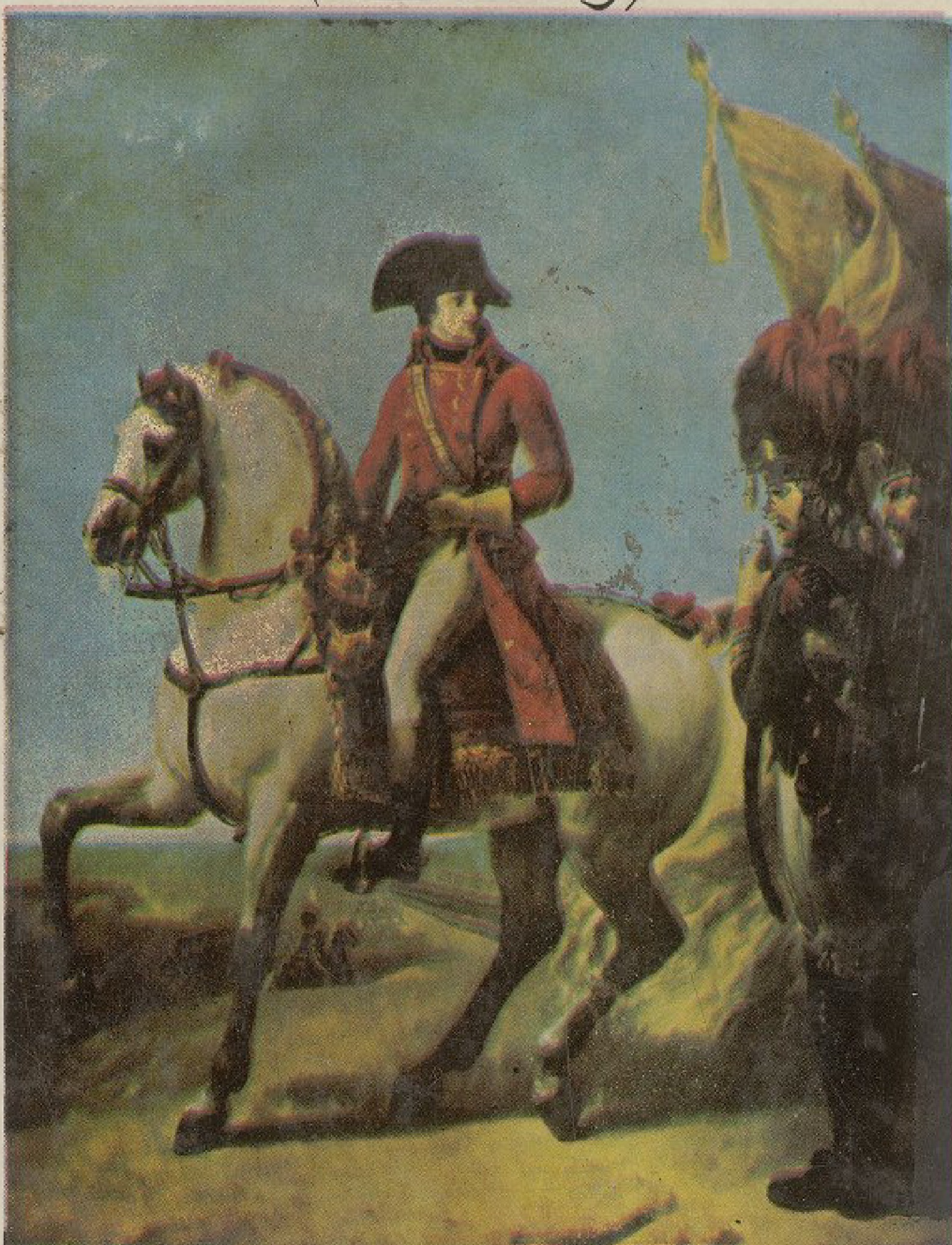
العقيد القيّم الدكتور طلال المهتار

آثار حملة بونابرت على مصر

(رسالة)



الجامعة اللبنانية

كلية الحقوق

آثار حملة بونابرت على مصر

العقيد القيّم الدكتور طلال المهتار

آثار حملة بونابرت على مصر

(رسالة)

الاهـــــداء

الى اولادي

الى كل مـــن يهوى الحيــاة عزيـــزة
وصارمـــه البتـــار لا يعـــرف الغمدا

ولا يختشي في الحـق لومـــة لائـــم
ولا يرتجـــي اجـرا عليـــه ولا حمـدا

ويدرك ان العيشـــ نــــاب ومخلـــب
ولا يحرز المجـــد الرفيـــع ســـوى كدا

وان طموح المرء ، في الكـــون ، شعلـة
لها كبـة لا تعرف النقصـ والحـــدا

ويعلم أن الحــــق بالسيـــف صونـــه
وبالعلـم يبنـي فـوق امجـــاده مجـدا

ولا يشـــوه وجـــه العـــدل منجرفـــا
في حـــب بهكنـــة يمســـي لها عبدا

ولا تنـــال الليالـــي مـــن عزيمتـــه
ولا نوائبـــها تثنـــي لـــه زنـــدا

المؤلـــف

مقدمـــة

فكرة غزو فرنسا لمصر عبارة ترددت على أكثر من شفة ولسان فأصبحت نوعا من التقاليد ورثهـــا الخلف عن السلف •

وادي النيل أشبه بوتر قيثارة كلما لامسته ريشة الاحداث تجاوب صداه في مسامع حكومات فرنســـنا المتعاقبة •

فكرة غزو فرنسا لمصر أهزوجة قديمـــة لحنهـــا بونابرت بمساعدة جوقة حكومة المديرين فقطع اوتار قيثارته مقرض الاحداث •

ان فكرة الاستيلاء على مصر كانت تجيشـــس في صدور ذوي الشأن في فرنسا وتطرق ناصيتهم منذ أن بدأت فكرة الاستعمار تغزو نفوسهم وتستحوذ عـــلى عقولهم •

سنستنطق فيما يلي الاحداث بتقليب صفحـات التاريخ علنا نعثر على بذور هذه الفكرة بين طيـــات السنين •

ولئن ظهر لاول وهلة ، ان حملة مصر عمل فرضته

الظروف وأملته الأحداث ، ووجه ضد اذكلترا لارغامها على طلب الصلح ، فقد كان في الحقيقـــة مشروعـــا استدعى درسه طويل وقت ٠

ولكم عرض ونوقش ورفض قبل ان يظهر الى حيز الوجود عام ١٧٩٨ ٠

ولا بد لنا قبل الخوض في الموضوع من القاء نظــرة على أسباب الحملة والتوقف قليلا للاطلاع على طريقــة تنفيذها لما لهذين من أثر على نتيجة الحملة فندرس تباعا آثارها في الشرق من كافة النواحي ثم آثارهـــا في الغرب ٠ ثم نختم البحث بخلاصة شاملة جامعة ٠

الفصل الاول

١ ـ اسباب توجه انظار فرنسا الى مصر ـ

هناك أسباب بعيدة وأسباب مباشرة

القسم الاول

الاسباب البعيدة :

توجهت انظار الفرنسيين الى مصر منذ زمن بعيد وقد تعاقبت أحداث عديدة من شأنها غرس فكرة الاستيلاء على هذه البلاد في النفوس نذكر منها الامور التالية :

- اقامة العلاقات التجارية بين فرنسا والشرق ·
- تطور القضية الشرقية ·
- التنافس الاستعماري بين فرنسا وانكلترا ·
- مركز مصر الجغرافي بين أوروبا وآسيا وافريقيا ·
- كل هذه العوامل جعلت أنظار الدول تتوجه نحو

مصر ، ومصالح المستعمرين تستفيق على صدى الاحداث الجارية فيها وحتى ما كان منها أحيانا بعيدا عنها ٠

ـ فانكسار الاتراك على الدانوب (DANUBE) أو على شواطىء البحر الاسود ٠

ـ وزحف ظافر يشنه الروس أو النمساويون على القسطنطينية ،

ـ أو معركة بحرية في المحيط الهندي أو في بحر الانتيل ،

ـ أو ثورة في وادي النيل أو اهانة يتعرض لها تجار فرنسيون في القاهرة أو الاسكندرية تعيد الى الاذهان المسألة التي طالما دعيت (القضية المصرية)٠

ـ ان سبر اغوار فكرة هذه القضية وتطورها يستدعيان العودة الى منبت المصالح التي سببت بذرها ونضجها واستنطاق تاريخ العلاقات التجارية بين « مرسيليا » والاسكندرية واظهار انحطاط وتقهقر الدولة العثمانية والتعديات والتحديات المتتابعة من قبل جيرانها ٠

ـ والانعتاق المتمادي لمصر ، والفوضى المتزايدة في ادارتها وعواقب الفساد الداخلي على تجارة ووضع الفرنسيين المقيمين على أراضيها ، وعودة الشعوب الحديثة الى الطرق التجارية التي كان يسلكها الاقدمون وتأثير الاكتشافات الكبرى على تطور الدول البحرية ودرس المعارك التي ساهمت بها « هولندا » و « فرنسا » و « انكلترا » للسيطرة على بلاد الهند وسلطان البحر ٠

ـ ان التوغل في درس هذه الامور يجعل من الرسالة موسوعة ويحدو بنا الى التجاوز عن الموضوع المطلوب وتعقيده ، ولهذا فان دراسة دور مصر في الثلاثين سنة السابقة لتاريخ الحملة المصرية تكفي لايفاء الموضوع حقه من التوسع والدرس ٠

ـ لم تنفك اهمية دراسة حملة مصر تتزايد منذ عام ١٧٦٨ حتى تاريخ تنفيذها عام ١٧٩٨ ٠

ـ ان تلك الاهمية المتزايدة التي أثارتها قضية مصر في أواسط الفرنسيين كانت ترتدي طوابع شتى ٠

ـ فكانت تارة تحرك على الصعيد الحكومي ، الميول ، لاحتلال هذه البلاد والقيام بتحقيقات سرية عن كيفية الاستيلاء عليها ، وطورا باجراء مفاوضات بغية جعل البحر الاحمر ميدانا للتجارة الفرنسية ٠
ـ كما تغلغلت هذه الفكرة في الرأي العام الذي باشر بوضع المشاريع لغزو مصر واحتلالها واستعمارها ووصل البحر المتوسط بالبحر الاحمر بواسطة قنال٠ ولا ريب فقد كان لهذه النشاطات والمشاريع أثر فعال ومباشر على عقول تلك الحفنة من الرجال الذين قرروا القيام بالحملة على مصر (١) لا يقل عن أثر نتائج المعارك التي خاضتها فرنسا ضد دول أوروبا ولا سيما بريطانيا ٠

ـ ولهذا فسنستعرض هذه الاسباب على صعيدين :

....

(١) حملة مصر لشارل رو الفصل الاول ٠

١ ـ الصعيد الفكري وما يتضمن من نشاطات عقلية وتجارية ودينية ودبلوماسية ٠

٢ ـ الصعيد العسكري وما أدت اليه نتائج المعارك ٠

ـ وبتعبير آخر : فلئن تكن أسباب الحملة على مصر يرتقي تاريخها الى عهد العلاقات التجارية وبعثات التبشير الدينية بين فرنسا ومصر منذ القديم فهي ترتد في أصولها الى مسألتين أساسيتين :

١ ـ المسألة الاستعمارية التي كانت نواتها العلاقات التجارية وبعثات التبشير والمشاريع المقترحة والمفاوضات المجراة بصدد مصر ٠

٢ ـ الموقف السياسي في أوروبا ابان المفاوضات الجارية لعقد صلح « كومبوفورميو » مع « النمسا » ٠ ولا بد من الاشارة بأن الموقف السياسي هذا كان يخفي بين طياته عاملا فعالا كان له بعيد الاثر على ارسال الحملة الى مصر الا وهو الخصام المزمن والضغينة القديمة والتنافس القتال بين فرنسا وبريطانيا ٠

وسنستعرض كلا من هذه الاسباب بقليل من الاسهاب ٠

١ ـ العلاقات التجارية بين فرنسا ومصر

ـ يعود نشوء العلاقات التجارية بين مرسيليا ومصر الى اوائل القرن الثامن عشر ٠

ـ وبالرغم من قلة عدد التجار الفرنسيين آنذاك فقد كانت التجارة بين البلدين على بعض الازدهار ولم يكن عدد هؤلاء التجار ليتجاوز الثلاثين كما ان عدد العاملين في القنصلية الفرنسية في مصر لم يكن يزيد على العشرين ناهيك عن الصعوبات التي كان يلاقيها التجار الفرنسيون في سبيل الترخيص لهم بالانتقال الى مصر ما لم يكونوا مزودين بترخيص من غرفة التجارة في مرسيليا (١) ٠

ـ لقد كان مرجع هؤلاء التجار في القاهرة حيث يقيم القنصل العام الفرنسي ٠

ب ـ أثر بعثات التبشير في نشوء العلاقات بين مصر وفرنسا

ـ ولئن احتلت التجارة مركز الصدارة في ارساء العلاقات بين مصر وفرنسا ٠

ـ فقد ساهمت البعثات الدينية مساهمة فعالة في خلق مكانة لمصر في السياسة الفرنسية ٠

ـ ذلك ان الرغبة قد حالفت ملوك فرنسا منذ القديم في أن يجعلوا من أنفسهم درع الكثلكة على الارض ٠وكان ملك فرنسا يضطلع بمقتضى الامتيازات بحماية الكاثوليك من مختلف الجنسيات ٠

ـ وقد بلغ من شأن النفوذ الفرنسي آنذاك أن أصبح المسيحيون على اختلاف معتقداتهم من «يونان»

....

(١) حملة مصر لشارل رو الفصل الاول ٠

« وأرمن » و « أقباط » ، يعتبرون قنصل فرنسا حاميهم الطبيعي ، وهكذا فقد توغل النفوذ الفرنسي، على أثر الدين ، الى كل مكان كانت تقطنه مجموعة مسيحية • يؤيد ذلك وجود رسم للملك لويس الرابع عشر لتزيين دير في مرتفع سيناء •

ج ـ المشاريع المقترحة والمفاوضات المجراة بصدد مصر •

ـ وقد عثر في ربائد الشؤون الخارجية الفرنسية، على مشروع قدم لريشا لية (RICHELIEU) ودون الاتيان على ذكر مقدمه يتضمن تصميما لاستعمار الهند واستراليا وشق قنال لوصل البحر الاحمر بالبحر المتوسط •

وأخيرا كان للملك لويس الرابع عشر ثلاث محاولات بهذا الصدد ، بدخوله بمفاوضات مع الباب العالي بغية تسهيل عبور البحرية الفرنسية بين مرفا السويس والبحر الاحمر •

ـ كما عثر عام ١٨٠٣ (MORTIER) قائد الجيش الذي احتل (HANOVRE) على نسخة من اقتراح (LEIBNITZ) رفعه الى الملك لويس الرابع عشر بغية احتلال مصر •

اقتراح ليبنتز (LEIBNITZ) على الملك

لويس الرابع عشر

ـ عندما كان الملك لويس الرابع عشر يتحضر لاجتياح هولندا عام ١٦٧٢ اقترح (LEIBNITZ) على الملك الاستيلاء على النيل قائلا (ان مصر هي هولندا الشرق ، وفي الوقت الذي تصبح فيه فرنسا سيدة لمصر ، فانها تسيطر حينذاك على البحر المتوسط وتستأثر بطريق الهند ، أي بتجارة العالم) ٠

ـ الا ان الملك لويس الرابع عشر فضل الاستيلاء على هولندا وتثبيت علاقاته الودية مع تركيا ، وقد بذل المركيز (DE NOINTEL) قصارى جهده للحفاظ على نفوذ فرنسا في الشرق وحصل على منافع جمة لمواطنيه حيث كان قنصلا لفرنسا في الاستانة ٠

ـ فكرة تقسيم تراث تركيا ـ

ـ وفي عام ١٧٤٠ وضع المركيز (D'ARGENSON) مشروعا يقضي بتجزئة تركيا بواسطة اوروبا المتحالفة ولصالحها وكان يرنو صوب مصر وكان مقتنعا بأنه بغية احياء التجارة مع الهند ينبغي حفر قنال لوصل البحر الاحمر بالبحر الابيض المتوسط وبحيث تعود ملكية هذا القنال الى العالم المسيحي ٠

ـ لقد كانت فكرة احتلال مصر تعود الى الاذهان تحت تأثير عوامل ثلاثة :

١ ـ آخر ذماء لفكرة الحملات الصليبية ٠

٢ ـ لدى كل محاولة لتقسيم تركيا ٠

٣ ـ لدى التفتيش عن طريق أقصر الى الهند ·

ـ هذا ولم تتفرد فرنسا وحدها بفكرة احتلال مصر بل كان هنالك غيرها من الدول من راودته تلك الفكرة· فقد تجلت هذه الظاهرة في مؤلف نشره Le Chevalier (DOMINIQUE JAUNIA) عام ١٧٤٧ واهداه الى الامبراطورة ماري تاراز (MARIE - THERESE)· لقد كان هذا المؤلف يقوم بوظيفة مستخدم في قصر فينا (في الشؤون الداخلية في نطاق التجارة) فقد سافر هذا المؤلف وأقام في مصر ضيفا على قنصل فرنسا··· BENOIT DE MOILLET وقد أكسبته هذه الاقامة من المعلومات ضمنها كتابا تحت عنوان (آراء عن الوسائل لاحتلال مصر وقبرص) أهداه الى الامبراطورة ماري تاراز غير ان الاقتراح الذي يعرضه في هذا الكتاب يهدف الى احتلال مصر وقبرص ليس من قبل النمسا فحسب بل من قبل كافة الامراء المسيحيين متكتلين بحيث تتخذ هذه الحملة صفة الحروب المقدسة ·

ـ لقد كان لفضل المفاوضات التي أجراها الملك لويس الرابع عشر مع الباب العالي وللخيبة التي مني بها أثر محاولاته الثلاث في فتح قنال للعلم الفرنسي بين مرفأ السويس والبحر الاحمر تأثير في ايصاد باب متابعة البحث في التفتيش عن طريق للاتصال بالهند عن طريق مصر ولهذا يلاحظ فتور في نشاط السياسة الفرنسية في مصر طيلة عهد الملك لويس الخامس عشر · هذا ولم تتناقص جذوة تعطش الفرنسيين لزيارة مصر منذ العهد الوسيط فآثارها التاريخية تثير التشوق الذي يمازجه الاحترام والاعجاب ·

وقد عثر على اقتراح قدم الـــى الملــك لويس الخامس عشر باستقـــدام عمـــود بمبيوس مـــن الاسكندرية الى باريس وتركيـــزه في مكان مـــن العاصمة بحيث يوضع عليه تمثال هذا الملك ٠

د ـ المسألة الاستعمارية

ـ ان فكرة الاستعمار لم تفارق اذهان المسؤولين عن ادارة دفة الحكم في فرنسا ويرجع مشروع الحملة الفرنسية على مصر ، في أصوله الى رغبة الفرنسيين الملحة في انشاء مستعمرة في الشرق للتعويض عـــن المستعمرات العديدة التي فقدت فرنسا الشطر الاكبر منها في عهد ملوكها العظام لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر في صلحي (اوترخـــت) عـــام ١٧١٣ و (باريس) عام ١٧٦٣ ٠ حيث فقدت فرنسا فـــي أميركا ٠ أكاديا ، وحوض الهدسن الغربي وجزيـــرة نيوفوند لند وكندا ولويزيانا ٠

ـ غير أن فكرة الاستعمار هذه ، اعتراها الفتور ، في الفترة التي سبقت انفجار بركان الثورة ، بتأثير الفلاسفة أمثال « روسو » ومـــا بلـــي ومونتسكيـــو و « فولتير » ٠

فقد نقد روسو الرق نقدا عنيفا وحذا حذوه فولتير فانتقد وجود الرق من الوجهة الانسانية والواقع انـــه اراد بأن يعنى الفرنسيون باستثمار موارد بلادهـــم الداخلية كذلك فعل مونتسكيو حيال الرق واستخـــدام الرقيق الاسود في المستعمرات ٠

- ولكن على الرغم من كافة الانتقادات ، فان الاستعمار عموما لم يفقد أنصارا في فرنسا ولم يكن من شأن تلك الانتقادات أن تنزل فرنسا عن المركز الذي احتلته في التاريخ الاستعماري ، وانا لنلمس التناقض في آراء فلاسفة الثورة الذين كانوا تارة ينتقدون نظام الرق وطورا يوافقون على الاستيلاء على المستعمرات فنرى مونتسكيو يوافق على امتلاك الجزر في البحر الكاريبي واحتكار تجارتها ونرى فولتير يوافق على استعمار لويزيانا ويمتدح امتلاك كورسكا .

ويعود الفضل في اعادة صرح الامبراطورية الاستعمارية الى (شوازيل CHOISEUL) وزير خارجية فرنسا منذ ١٧٥٧ الذي عقد صلح باريس عام ١٧٦٣ فقد بذل مجهودا في احياء البحرية الفرنسية وتقويتها وعمل على ازالة الآثار المترتبة على صلح باريس حيث كانت في غير مصلحة بلاده كما سعى لتأييد مركز الفرنسيين في مصر وقد حاول في عام ١٧٦٩ الحصول لفرنسا على مصر بطريق المفاوضة وذلك كي يجد الفرنسيون في محصولات هذه البلاد ما يعوض عن الخسارة التي لحقت بهم بضياعهم المستعمرات الاميركية الا أن جهود شوازيل ذهبت أدراج الرياح ولم تحصل فرنسا سوى على جزيرة كورسيكا التي باعتها اياها جنوه عام ١٧٦٨ وذلك بغية اعادة التوازن في البحر المتوسط بعد أن استولت انكلترا آنذاك على جزيرة مينورك وهي احدى جزر البليار الـ BALEARES) .

هـ موقف الفرنسيين من مصر أبان الحرب الروسية التركية (١٧٦٨ - ١٧٧٤)

- ابدت فرنسا اهتماما كبيرا لهذه الحرب وخشي ساستها قرب انهيار الدولة العثمانيـــة وتوزيـــع ممتلكاتها بين روسيا والنمسا اللتين كانتا تطمعان في امتلاك مصر على اعتبارها الطريق الموصل الى الهند. وكان يتنازع ساسة فرنسا عاملان . عامل الرغبة فـــي المحافظة على السياسة التقليديـــة حيـــال تركيـــا والصداقة للسلطان العثماني والتوسط بين المتحاربين بغية التوصل الى صلح يمنع السلطنة من الانهيـــار ، اما العامل الثاني فكان اغتنام الفرصة ، في حال انهيار تركيا للحصول على نصيب لفرنسا من املاك الرجـــل المريض .

ومن بين الذين ترقبوا موعد انحلال تركيا وخشوا أن تؤول ممتلكاتها الى ايدي الروس والنمساويين ، سفير فرنسا في القسطنطينية منذ ١٧٦٨ الكونت دي سانت بريست SAINT - PRIEST ثم قنصل فرنسا في مصر جان باتيست مير JEAN BAPTISTE MURE

أما سان بريست فكان يعتقد ان حالـة الرجـــل المريض اصبحت في طور النزاع واشار على حكومـــة فرنسا المفاضلة بين امرين :

أما تقديم المعونات الحاسمـــة للامبراطوريـــة العثمانية التي لا تستطيع الدفاع عن نفسها وامـــا

تركها تنهار وتظفر فرنسا بالنصيب الذي يلائمها • غير أن سان بريست كان يفضل الحل الاول وينصح حكومته باتباعه كما باشر العمل لاقناع النمسا وجوب الاشتراك مع فرنسا للمحافظة على كيان تركيا وفي حال رفض النمسا لاقتراحه هذا واجماع الرأي على اقتسام تركة الرجل المريض ، فيتوجب على فرنسا حينذاك أن تستحصل على نصيبها من هذه التركة وهو مصر (أخصب بقاع الارض قاطبة) • كما أوضح سان بريست أن أهمية مصر التجارية بالنسبة لموقعها الجغرافي لا تقل عن أهمية خصوبة أراضيها • ويمكن لفرنسا في حال الاستيلاء على هذه البلاد أن تضعف سيطرة انكلترا في الهند كما كان يرى أن عملية احتلال مصر ليست بالامر الشاق بالنسبة للظروف التي كان يعتبرها سان بريست مؤاتية لتنفيذ مثل هذا العمل فالاسكندرية بلد مفتوح ، والحكومة المصرية عاجزة عن الدفاع عن نفسها بسبب انتشار الفوضى كما أن المماليك الذين يؤلفون هذه الحكومة وهم ارقاء اجانب موضع كراهية أهل البلاد ، فلا شيء في رأي سان بريست يتفق ومصلحة فرنسا كاحتلال مصر ، في حال اقتسام ممتلكات الامبراطورية العثمانية •

و ـ تقرير (MURE) مير

ـ كان (MURE) سكرتيرا للكونت دي سانت بريست في القسطنطينية عام ١٧٦٨ ثم عين قنصلا في سالونيك ثم قنصلا عاما في القاهرة والاسكندرية عام ١٧٧٤ • وكان (MURE) يشاطر سان بريست الاعتقاد بقرب انهيار الدولة العثمانية واقتسام ممتلكاتها بين

روسيا والنمسا ، كما كان يرى ان الواجب يقضي على فرنسا بأن تكون على أهبة الاستعداد لاقتطاع حصتها من ممتلكات الدولة العثمانية في حال زوالها •

وقد بعث هذا القنصل بتقرير ـ الى الكونت دي سانت بريست في القسطنطينية عام ١٧٨٣ ضمنه آراءه السياسية حول مصير الدولة العثمانية •

فكان يرى أن تركيا لا بد وان تخوض غمار حروب جديدة قريبا وانه لا يمكنها الصمود طويلا امام روسيا والنمسا اللتين بوسعهما الاستيلاء على كافة تركيا الاوربية •

ـ وفي حال تحقيق ذلك ، كان (MURE) يفترض احتمالين :

ـ الاول امتلاك النمسا لليونان وجزر الارخبيل ، والثاني الاستيلاء على مصر وعندها يصعب جدا اخراج النمسا من مصر • فخير وسيلة لصيانة المصالح الفرنسية هي عدم وقوف فرنسا مكتوفة الايدي حيال هذه الاحتمالات التي كان يظنها وشيكة الوقوع والبقاء على اهبة الاستعداد للحصول على حصتها منممتلكات تركيا •

ـ وانبرى (MURE) يفصل الفوائد التي تعود على فرنسا من امتلاكها لمصر ويعدد الوسائل التي تمكن فرنسا من اتمام هذا الفتح والاحتفاظ بالبلاد ولم تقف أطماع (MURE) عند حد اذ بلغت به نزوات الطمع ان رغب في ان تستولي فرنسا على بلاد الكنانة

باجمعها ولم يغفل عن ذكر الوسائل التي تكفل المحافظة عليها وهي تتلخص في انشاء مراكز استراتيجية لتأمين الدفاع ٠

ـ وقد كان محور الجهد في هذا التقرير يهدف تعداد الوسائل التي ينبغي اتخاذها عقب الفتح لتعود موارد البلاد لفائدة الدولة الفاتحة ٠ ولهذا فقد كان يرى ضرورة استيلاء الحكومة الفرنسية على القسم الاكبر من الاراضي وجعلها برسم البيع أو التوزيع لسد نفقات الفتح ٠ فضلا عن تنويهه بوجوب اعادة فتح القنوات المهملة وفرض الضرائب التي قسمها الى نوعين :

ضريبة عينية ـ وضريبة على الكماليات كما تناول مسألة الرسوم الجمركية وقد ختم (MURE)

تقريره بقوله (انه في الحالة التي لا يمكن فيها منع الغزو عن تركيا بطريق المفاوضات السياسية فانه من الأجدى أن تستولي فرنسا على مصر وبذلك تبقى محتفظة بمركزها بين الدول التجارية والبحرية (١) ٠

ز ـ سياسة فرجن (VERGENNES)

الا أن آراء السفير الفرنسي سانت بريست وآراء القنصل الفرنسي في مصر لم تكن لتلاقي استحسانا أواذنا صاغية لدى وزير الخارجية الفرنسية (VERGENNES ٠ ذلك ان آراء هذا الاخير كانت على نقيض آراء سانت بريست ومير فقد كان فيرجن

....

(١) الحملة الفرنسية وظهور محمد علي صفحة ٧٠ ـ ٧٤ ٠

يسترشد في المسألة الشرقية بمبدأ ثابت هو الابتعاد كل البعد عن سياسة تقسيم ممتلكات تركيا كما كان لا يرى أن الدولة العثمانية على وشك الانهيار • وكان يعلن بكل ثقة انه يكفي للمحافظة على كيان تركيا أن تعلن فرنسا جهارا عدم الاشتراك في أية مشروعات ترمي الى تقسيمها •

ح - تأثير آراء الرحالة الفرنسين على ابقاء فكرة احتلال مصر راسخة في الاذهان

- يعود الفضل في عدم ادخال فكرة احتلال مصر في عهدة النسيان الى جماعة الرحالين الذين زاروا الشرق وزاروا مصر ودونوا انطباعاتهم وآراءهم وكذلك الى الكتاب الذين تناولوا المسألة الاستعمارية بالتوضيح في الفترة التي سبقت اندلاع الثورة • وكان من بين هؤلاء الاخيرين كاتب مجهول نشر بعض الاراء السياسية في عامي ١٧٨٣ و ١٧٨٥ ضمنها أهمية الاستيلاء على مصر حتى تحل محل المستعمرات الفرنسية في الهند الغربية كما ان احتلال مصر من شأنه تسهيل تجارة فرنسا مع الهند وبلاد العرب وفارس وافريقية أما الرحالون الذين كان لهم بعيد الاثر في توجيه معاصريهم نحو الاستعمار في الشرق وفي مصر خصوصا بفضل اسفارهم وكتاباتهم فهم : البارون دي توت ، وسافاري وفولني صاحب الرحلة المشهورة •

ط - رحلة البارون دي توت

- لم يمنعه اصله الهنغاري من أن تختاره

الحكومة الفرنسية لاصطحاب السفيرالىالقسطنطينية وقد صادف وجوده فيها في وقت كانت ازمة الحرب الروسية التركية على اشدها فنذر دي توت نفسه لمساعدة السلطات العثمانيةفيأعمال تحصين البوسفور واصلاح المدفعية والبحرية كما قام بتدريب جند الاتراك وتلقينهم الفن العسكري الحديث فنال ثقة السلطان مصطفى الثالث فشجعته هذه الثقة الى مفاتحة السلطان بمشروع حفر قناة تصل بين البحرين الابيض والاحمر في برزخ السويس فوعده السلطان بمتابعة البحث في المشروع لتنفيذه بعد انتهاء الحرب٠ ولكن الموت عاجل السلطان بعد نهاية الحرب كما انتهت مهمة البارون دي توت كمدرب ومنظم لجند العثمانيين ٠ ولدى عودته الى باريس قدم الى حكومته تقريرا عن حالة تركيا السياسية ضمنه آراءه التي تتلخص في أن الدولة العثمانية آيلة الى الانهيار القريب ، وان تدخل فرنسا الدبلوماسي لنجاتها لا يجدي فتيلا ، وان الاستيلاء على مصر يخدم المصالح الفرنسية ويجعل من الميسور على فرنسا ايجاد الصلات الوثيقة مع الهند ويسهل انشاء قناة تصل بين البحر الاحمر والنيل عند فرع دمياط ٠

ي ـ رحلة فولني

ـ احب فولني أن يقف بنفسه على أحوال البلاد السياسية والاجتماعية في الشرق فقرر الرحلة الى مصر وسوريا عام ١٧٨٢ ودون آراءه في كتاب لم يلبث أن نال شهرة واسعة وقد أهدى المؤلف نسخة عن الكتاب (رحلة) الى قيصرة الروسيا كاترين الثانية

التي أهدته وساما ذهبيا مكافأة له • وفي عـــام ١٧٩٢ رحل فولني الى كورسكا حيث قابل نابليون بونابــرت وقد عين فولني بعد انقضاء عهد الارهاب في فرنســا مدرسا للتاريخ وعندما قرر بونابرت الحملة على مصر أراد اصطحابه معه فاعتذر فولني لكبر سنه فاكتفـى بونابرت بأخذ كتاب فولني معه •

ـ وقد شرح فولني حالة المصريين وتعاسة الفلاح المصري كما وصف الاسكندرية ميناء البلاد الهـــام وخلوها من التحصينات وقلة عدد حاميتها التي كانت تتألف من الانكشارية وجهلهم لفنون الحرب مما اقنـع بونابرت بسهولة غزو مصر •

وكان فولني يرى أن خير علاج للحالة التي كانــت مصر تتخبط فيها هو خروجها من السيادة العثمانيـة ودخولها تحت حكم دولة ذات حضارة تكون صديقـــة للمصريين ولها نهضة ادبية وعلمية وفنية وقد كـان يقصد دون شك فرنسا •

ك ـ الثورة الفرنسية تقلب الاوضاع القائمة راسا على عقب

ـ سبق اعلان الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ عصر نظام الملكية المطلقة اذ كان الملك يعتبر نفسه ممثـل العناية الالهية ، ويتمتع بالسلطان الكامل لا حصــر لصلاحياته ولا تقييد • ولم تكن لتحاسبه على أعماله هيئة دستورية بل لم يكن مسؤولا تجاه احد وليس له من زاجر غير ضميره •

لقد كان كل شيء ينذر بسوء المصير :
فالفساد يبسط جناحيه على كافة مرافق الدولة والفوضى تسير الخيلاء .

فالبلاط كان مأوى للحاشية والاتباع وطريقة الحكم كانت موغلة في المركزية وفي المقاطعات حكام لا يأتون الى مقرهم الا لماما .

وكان القضاة لا يرعون حرمة عدالة لانهم يرثون مراكزهم أو يبتاعونها بالمال كما تشترى السلع . وكانت الضرائب الباهظة ترهق كاهل المكلفين . وكان الشعب يقدم ثلاثة ارباع انتاجه ومدخوله لفئات ثلاث: البلاط - والنبلاء - ورجال الكنيسة ، وهؤلاء كانوا يتمتعون بحصانة ضرائبية .

لم يستفق الشعب من سباته العميق الا بتأثير صدى التيارات الفكرية حيث شرع دويها يتجاوب في الافاق . فقد كانت كتابات « روسو » عن سلطة الشعب وسيادته والمساواة في الحقوق معولا في الكيان القائم . وقد ازداد باضطراد عدد المبشرين بالافكار التجددية والداعيين الى مناهضة الاوضاع « كديدرو » « ومابلي » ومنتسكيو وفولتير وكوندروسيه الذين بذروا بما خطه يراعهم بذور الثورة .

فكوندروسيه دعا الى التمثل بالاميركيين في اعلان حقوق الانسان ومابلي نادى بملكية جمهورية تكون قيادة السلطة وزمامها بين ايدي مجلس الامة . وقد تكبدت فرنسا مصاريف باهظة في حروب

اميركا بارسالها جيش المارشال « روشمبو » لمساعدة الاميركيين على ازاحة نير « بريطانيا » فزادت الحالة الاقتصادية فيها سوءا واخيرا انفجر بركان الثورة عام ١٧٨٩ وانبجست حممه في فرنسا وجوارها وتوالت الأحداث فكان المجلس التأسيسي والمجلس التشريعي واخيرا « مجلس الكونفنسيون » المشهور بالعداء السافر للملك لويس السادس عشر الذي حوكم من قبل المجلس المذكور بتهمة الخيانة واعدم في ٢١ كانون الثاني سنة ١٧٩٣ .

ن – مناهضة ملوك اوروبا لرجال الثورة الفرنسية وتكتلهم ضد فرنسا

كان المبدأ الذي اعتنقه المجلس التأسيسي هو العزوف عن كل حرب تهدف الى التوسع ولكن على اثر التهديد الذي وجهته النمسا الى حكومة الثورة في شباط من عام ١٧٩٢ واعتبرته فرنسا تدخلا صريحا ومباشرا في أمورها الداخلية وجدت حكومة الثورة نفسها مضطرة لاعلان الحرب على النمسا في ٢٠ نيسان من ذات العام غير أن المجلس التشريعي لم يكن ليقبل بمبدأ المسالمة فبادر الى طرح مبدأ الانكفاء وقام يبشر بحرب طاحنة ضد الملوك كما سبق لهذا المجلس أن أعلن تعليق صلاحيات الملك واناطتها بمجلس تنفيذي خاص انتخب المجلس التأسيسي وضم « دانتون » الذي أعلن على الملأ قبل مضي عشرة أيام على اعدام الملك « لويس السادس عشر » ـ عبارته المأثورة « من الخطل أن نخشى غضبة الملوك

لقد تحديناهم لا بالقفاز بل برأس الملك ـ وهذا التحدي أن هو الا ايذان بموتهم القريب » ٠

عندها تنادى ملوك اوروبا للتكتل ضد فرنسا معتبرين أن « دانتون » انما عناهم شخصيا بتهديده وبغية خنق الثورة في المهد حيث كانت تعد في رأيهم شذوذا على القاعدة وقد كان التكتل الاول صدى لهذا النداء ٠ كما كان لاعدام الملك وقع عميق في نفوس ملوك اوروبا ٠

فكاترين الثانية امبراطورة روسيا لبست الحداد وبت (PITT) وصف اعدام الملك بانه ابشع جريمة عرفها التاريخ ٠

وقد كانت تحرك بعض الدول الاخرى نوازع متعددة فتحملها على مجابهة الثورة فالبرتغال مثلا كانت حركة تجارية تدفع حكومة ليشبونة للاتفاق مع انكلترا

وشارل الرابع ملك اسبانيا كان يراقب منذ تسلمه العرش عام ١٧٨٨ قريبه الملك لويس السادس عشر ويدرس امكانية خلف « البوربون » في اسبانيا لابناء عمهم « بوربونيي » فرساي سيما بعد أن سرت في بلاط مدريد شائعة عقم الملك لويس السادس عشر ٠

وعقد ملك سردينيا اتفاقا مع انكلترا تعهد بموجبه تقديم ٥٠ الف مقاتل لقاء مئتي الف ليرة استرلينية تؤديها انكلترا ٠

لقد نظم التكتل الاول عام ١٧٩١ في بيلنيتز (PILLNITZ) بين بروسيا والنمسا حيث انضمت

اليه بعد اعدام الملك لويس السادس عشر كلٌ من انكلترا ـ اسبانيا سردينيا ـ والصقليتان وقد تصدع هذا التكتل بمعاهدة صلح بال (PÂLE) مع بروسيا ٠

م ـ مجلس المديرين وسياسته

اعطي لقب مجلس المديرين للحكومة التي تسلمت زمام الحكم في فرنسا في الفترة الممتدة من ٢٧ تشرين أول عام ١٧٩٥ الى ٩ تشرين الثاني عام ١٧٩٩ ٠

وكان هذا المجلس يحكم بمساعدة مجلسين آخرين :

مجلس القدماء و مجلس الخمسمئة

وقد التحف مجلس المديرين هذا عاطفة الشعب وسعى الى تثبيت اقدامه بايقاظ روح الوطنية فيه واعلانه انه لن يهادن الملكية وسعى لتأمين تعبئة صناديق الدولة الفارغة لمتابعة الحرب كما اذكى في النفوس لهبة التوسع وجعل نصب عينيه بأن المولين الذين يتميزون باقتنائهم مداخيل لا تنضب هم القادة المحاربون فانطلق القادة في جبهات متعددة تدفع كلا منهم الى مواصلة الجهود فكرة التفوق على الاقران من بين القادة وفكرة الاستفادة من ذلك في خدمة مصلحته المقبلة وكان من شأن هذا التسابق أن مهد الطريق للدكتاتورية العسكرية التي حلت محل مجلس المديرين وقد تحقق ذلك على يد نابليون بونابرت في ٩ تشرين الثاني ١٧٩٩ ٠

لقد كان نابليون يتوق للقيادة والسيادة ويأبى

أن يكون تحت امرة رئيس ولما كان من مواليد كورسيكا فكان يحفزه منبته للتطلع جهة ايطاليا وقد كان يتحرق لاستعادة حقوق عائلته في توسكانيا ويستعد مع شقيقه جوزيف لاعادة اعتبار قضية قضائية قديمة شغلت بالهما وكانت هذه القضية من جملة الحوافز التي دفعت نابليون ليصبح الامر المطلق في تلك المنطقة • لقد تسلم نابليون قيادة جيش ايطاليا عام ١٧٩٦ وأحرز انتصارات باهرة كان من شأنها أن تثبتت ثقة رجال مجلس المديرين بأنفسهم وجعلتهم يؤمنون بقدرتهم على متابعة الحرب وتوسيع جبهتها •

بدأت طلائع الخوف تغزو نفرا من رجال مجلس المديرين من بونابرت الذي لم يعد يكترث بتنفيذ ما يسند اليه من مهام وهذا ما حدا بمجلس المديرين أن يلحق كرمان ببونابرت ليكون قائد جيش الالب على ان يبقى نابوليون قائد جيش ايطاليا عندها هدد نابوليون بالاستقالة وانصاع مجلس المديرين لمشيئته وغدا صاحب السيادة المطلقة •

وكانت خطة بونابرت تهدف الى قلب نظام ايطاليا بواسطة الشعب اذ تعمد اثارته وحمله على الانتفاض ضد النمسويين • كما حاز ثقة الجيش بعد أن اسبغ عليه الخيرات مخاطبا اياه بالعبارة التالية : (لن تستطيع حكومة الكونفانسيون اطعامكم) •

فسأقودكم اذن نحو اخصب اراضي لومبارديا

فتجدون الزاد والثراء والنعمة الا أن تنظيم بونابرت الداخلي لايطاليا لم تكن حكومة باريس لترضى عنه سيما وانه أقام حكومة جمهورية فيها تتعارض مع سلطة البابا وقد ألفت حكومة باريس نفسها أمام أمر واقع فلم تقو على تعديله • وقد كان « كارنو » اشد اعضاء مجلس المديرين معارضة لبونابرت فقام واترابه بمساع ازاء النمسا لحملها على طلب الصلح بعد اقناعها باعادة ايطاليا وسلسبورغ اليها •

ولما لم ترق لبونابرت خطة « كارنو » وصحبه قرر السير بحملاته الى قلب النمسا والتوجه بجيشه الى قلب فينا ليجبرها على الخضوع وقد أرغم النمسا بعد معركة (ليوبن LEOBEN) الطاحنة على طلب الهدنة وذلك على أثر انكسار جيش الارشدوق شارل في هذه المعركة وقد ظهر بجلاء أن بونابرت عني بهذه المعاهدة بخدمة اطماعه أكثر من عنايته بجعلها حلقة من حلقات السياسة العامة الخارجية لفرنسا كما أنه لم يقم اي وزن أو اعتبار لانتقادات مجلس المديرين وبدأت سياسة بونابرت الشخصية تفعل فعلها في أوروبا وفي فرنسا ذاتها منذ ذلك الحين • ان أطماع بونابرت ورغبته في تحقيق سياسته دفعته الى تعديل معاهدة ليوبن ونقضها ، وقد أعلن عن تلك الرغبة للنمساويين الذين اعتبروا على الاثر أنهم في حل من جميع تعهداتهم السابقة التي فرضتها عليهم المعاهدة المذكورة •

وقد حاولت النمسا بغية كسب الوقت ، أن تدعو لمؤتمر في برن يضم دول أوروبا ذات الشأن لبحث القضية بدلا من أن يقتصر أمر المفاوضة على

الدولتين المعنيتين لكن بونابــرت أدرك أن نيـــة النمسا هي في كسب الوقت لاعادة تجهيز جيشها فلم يعطها المهلة الكافية وهددها باعلان الحرب ولكـــن أعوزه في حينها تأييد حكومة باريس حيـث كـــان التصدع بين المديرين متفشيا وقد كان بعضهـــم يخشى تمادي بونابرت وديكتاتوريته الا ان مناصرة باراس ورابوال (REBWELL) والجنــرال اوجيـــرو (AUGEREAU) الذي عين آنذاك وزيرا للحربيـــة حققت لبونابرت النجاح على كارنو وحزبه الذيـــن كانوا ينعتون نابليون بالثائر والخارج على القانون ·

في حين ان باراس ورابوال جعلا من بونابرت في ردهما على كارنو درع الدستور واتفقا معه على القيـــام بانقلاب للتخلص من بعض اعضاء الحكومة القائمة وقد حصل ذلك الانقلاب في ٤ ايلول سنة ١٧٩٧ وقـد كان لتدخل نابوليون الاثر الحاسم في نجـــاح هـــذا الانقلاب اذ ارسل أحد قواده اوجيرو (AUGEREAU) لتولي القيادة في باريس فاحتل المراكز الهامـــة فـي المدينة وضمن نجاح الانقلاب بزعامة اعضاء الادارة الاخيرين « باراس » « وربوال » ورفليير ليبو وقـــد عزز هذا الانقلاب موقف نابوليون كمفاوضــــ مـــع النمسا واستطاع أن يسيطر على سير المفاوضـــات ويسرع في انجازها وفق رغباته كما اتسع له المجـــال للتشدد في مطالبه بوجه النمسويين ووقعت اخيـــرا معاهدة صلح كامبوفورميو التي ثبتت أقدام بونابرت في ايطاليا حيث جعل منها دولة ترضخ لسيطرتـــه كما منعت على النمسا التعرض للجزر الايونيـــة ·

وما كاد بونابرت يوطد أقدامه في تلك المنطقة حتـــى راودته فكرة توسيع الجمهورية الأيطالية على حساب

بعض المناطق السويسرية فاستولى على « انكون » (ANCÔNE) ليجعلها نقطة انطلاق له نحو الشرق وقد أعلن بونابرت في آب عام ١٧٩٧ لو خيرنا بين جزر كورفو وزانت وسيفالوني وبين ايطاليا لرددنا ايطاليا الى النمسا ولاحتفظنا بتلك الجزر لانها كانت في نظره مفتاح غزواته المقبلة ٠

ن ـ بقاء الصراع الانكليزي الفرنسي على أشده

آثرت غالبية الدول الاوروبية المقاتلة لفرنسا أن تعقل نزاعها ولو الى حين ما عدا انجلترا التي أبقت على موقفها العدائي من فرنسا ٠ فقد كان اسطول انكلترا الحربي قويا منيعا وكان ازدهار التجارة فيها محققا بفضل الاسطول ٠ وعلى الرغم من اغلاق منافذ التجارة بوجه السلع الانكليزية في القارة الاوروبية بسبب الحصار القاري عام ١٧٩٧ فلم يعتر كميات السلع التي بارحت المرافىء الانكليزية سوى انخفاض ضئيل ٠ وقد تمكنت انكلترا بفضل قواها البحرية من دعم مركزها الحربي والحيلولة دون تموين فرنسا بقافلات القمح والمواد الغذائية كما حرمتها من قسم كبير من المواد الاولية الاخرى ٠ وقد كانت انكلترا تعزز اسطولها بقطعات حربية تقتنصها اثناء معاركها فقد غنمت من اسبانيا وفرنسا العديد من القطعات الحربية اضافته الى اسطولها ٠ وقد بلغ من دهائها أن كانت تعتمد في حربها ضد فرنسا على جيوش الدول الاخرى « كبروسيا والنمسا وهولندا واسبانيا » ٠ فضلا (عن أن

الخسائر التي كانت تمنى بها القوى البحرية تعد ضئيلة بالنسبة لخسائر القوى البرية ذلك أن انكلترا حشدت في سنة ١٧٩٤ ـ ١٧٩٥ خمسة وثلاثون الف مقاتل في هولندا فخسرت منهم زهاء ستة الاف بسرعة ٠

وهناك مخاوف عديدة كانت تقلق راحة انكلترا وتقض مضجعها منها :

١ = انشغالها باخماد ثورة الانتيل ٠

٢ = تذمر أفراد بحارتها لضآلة مرتباتهم وعدم الثقة في البحارة الاجانب ونسبتهم العشر وكذلك عدم الاطمئنان من البحارة الأيرلنديين ونسبتهم العشر ايضا ٠

٣ = قيام حركة عصيان في صفوف البحارة في ربيع ١٧٩٧ ٠

٤ = كان نشاط القراصنة المتزايد في البحار مضافا الى المناوأة الفرنسية يشلان نشاط البحرية الانكليزية التي كانت تضطر لاستخدام قطعها الحربية لمواكبة قافلاتها التجارية ٠

٥ = كان نجاح الحصار الذي فرضته انكلترا على فرنسا يقضي بالتصدي لسفن الدول المحايدة بغية تفتيشها فكانت تلقى معارضة شديدة من هذه الدول لا سيما روسيا التي كانت تجعل من نفسها درعا لحماية الزامات القانون الدولي لجهة حرية الملاحة في البحار كما كانت دول اخرى تؤيد روسيا في هذا المضمار

٦ = متابعة انكلترا على دفع تكاليف الحرب والمساعدات التي كانت قد تعهدت بادائها للدول المتحالفة حيث ناهزت الاحد عشر مليون ليرة استرلينية عام ١٧٩٥ مما اضطرها لانتهاج سياسة القروض واللجوء الى زيادة الضرائب ٠

٧ = تزايد مخاوف انكلترا من عداء الايرلنديين لها وقد كان يتجسد ذلك العداء في ثورات داخلية ٠

٨ = استغلال حكومة باريس بغض الايرلنديين لانكلترا وارسالها حملة بقيادة « هوش » قوامها خمسة واربعون قطعة حربية عام ١٧٩٦ نحو ايرلندا وانكلترا ولكن هبوب العواصف بعثر قطع الاسطول وحال دون نجاح الخطة ٠

٩ = سوء الانتاج الزراعي والمحل الذي حل بالمحاصيل الانكليزية في سنتي ١٧٩٥ - ١٧٩٦ ونتج عنه غلاء المعيشة وسوء تغذية الفلاحين مما حمل هؤلاء على المناداة بوجوب عقد الصلح كما كانت هناك فئة لا يستهان بها في انكلترا تنادي بأفضلية الصلح ابقاء على ازدهار التجارة الانكليزية وصناعاتها ٠

أما بشأن فرنسا فقد الحقت المعاهدة التجارية الافرنسية ـ الانكليزية المعقودة عام ١٧٨٦ عجزا بتجارتها كما اعاقت انطلاق حركة الصناعة والتجارة فيها فقام من يطالب بالغاء هذه المعاهدة وقد كان احتلال فرنسا لبلجكا وهولندا يغذي فيها أمل القضاء على التجارة الانكليزية وقد قال « سيايس » بهذا

الصدد (لو عقدنا الصلح واحتفظنا « بانفرس والاسكو وفلسينغ » مدة عشر سنوات لقضينا على مركز لندن واهمية التاميز ولا لحقنا بانكلترا من الخسارة ما يفوق حاصل عشر سنوات حرب وربحنا فيهـــا لعشريـــن معركة) ٠

وبناء لما تقدم فقد استن مجلس المديرين سياسة الحظر على البضائع الانكليزية في سائر الدول المحتلة من قبل فرنسا، وكان بذات الوقت على استعداد لعقد الصلح شرط أن يتحلل الاقتصاد الفرنسي من اغـــلال المعاهـــدة القاسيـــة وخشية معارضـــة الملكيين ودرءا لاخطار الانتخابات القريبة ٠

ورغم ادراك انكلترا ان الصلح لن يقضي بالواقع على منافسة فرنسا لها فقد ارادت الظهور بمظهـــر الراغب في عقد الصلح وانهاء النزاع تجنبا للمصاعـــب والمخاوف التي وردت اعلاه ٠

لقد كان كل فريق يتذرع بحسن النية في الظاهـــر ويكن للفريق الآخـــر الحقد والعداء ويـــود ان يظهـــره بمظهر المتعنت السيء النية فيحمله عواقب الاخفاق في تحقيق الصلح وبالفعل حقق ما يمكـــن تسميتـــه بالمهزلة وحضر مندوب انكلترا الى باريس عام ١٧٩٦ وعرض بعد وصوله اليها بمدة شهرين تقريبا شروطا غير مقبولة بالنسبة لفرنسا ولما لم تؤد المفاوضـــات بين الجانبين الى آية نتيجة غادر الموفد الانكليـــزي باريس عائدا الى بلاده ٠ وفي عام ١٧٩٧ وبعد انسحاب النمسا من الحرب وتوقيعها معاهدة ليوبين « فكـــرت

انكلترا مجددا باستئناف المفاوضات مع فرنسا ولكن مظاهر عدم الثقة المتبادلة كانت تسود المحادثات كما كان لموقف اصحاب الأموال الانكليزية والذين كانوا من دعاة التوسع الاستعماري ومن مشجعي سياسة مجلس المديرين الاقتصادية أثر فعال في اخفاق المفاوضات . وقد كان لفرنسا يد في هذا الاخفاق بسبب تخوفها من تأثير الصلح على سياستها في بلجكا وهولندا . لذلك ما ان وطد مجلس المديرين دعائم سياسته في الداخل حتى سارع الى قطع المفاوضات مع انكلترا فبقيت هذه الاخيرة وحدها في الميدان .

نتائج المعارك العسكرية تحت بونابرت وحكومة المديرين على الاسراع في توجيه حملة مصر

شعر بونابرت عقب توقيع معاهدة الصلح مع النمسا في كمبوفرميو بضرورة ارسال المعاهدة الى باريس للحصول على تصديق حكومة المديرين عليها . وقد كان على بونابرت اقناع الرأي العام الفرنسي بقبول هذه المعاهدة المتضمنة شروطا نعتها البعض بالطيبة أكثر من اللازم بالنسبة للنمسا كما أرسل الى تلليران يطلعه على المبررات في نظره لعقد الصلح بالشروط التي كانت موضع نقد من جانب الحكومة وقسم من الرأي العام الفرنسي وكانت تلخص حجج بونابرت في أنه ما دام قد انفرط عقد المحالفة الدولية ضد فرنسا بخروج النمسا نهائيا يقتضي الأسراع في منازلة غريمة فرنسا الكبرى وهي انكلترا اذ أن كل تأخير في تنفيذ هذا الامر يترك الفرصة لانكلترا لانتزاع المستعمرات الفرنسية والاسبانية والهولندية وختم

بونابرت رسالته بقوله :

ان من واجب حكومتنا القضاء المبرم على الملكية الانكليزية والا فمصير حكومتنا التدمير على ايــدي اصحاب العزلة النشيطين ، من الانكليز بفضل مـا يدبرونه من مكائد وأفساد ، والوقت الحاضر هو خير الاوقات لهذا العمل فلنركز نشاطنا بغية التوصل لتدمير انكلترا حتى اذا تم لنا ذلك وقعت اوروبا باسرها تحت اقدامنا ٠

ان اقتناع مجلس المديرين بصواب اراء بونابرت جعله يصادق على المعاهدة ويتخذ عدة قرارات لتوجيه قوى الجمهورية بأجمعها نحو النضال ضد انكلترا من بينها قرار بتجميع جيش قوي دون ابطاء على شواطىء المحيط بقيادة بونابرت فبدأ توا بتنظيم جيش انكلترا ٠

ولئن اعتقد الكثيرون بأن اعداد حملة انكلترا في نهاية عام ١٧٩٧ وأوائل عام ١٧٩٨ لم يكن يقصد منه سوى (ذر الرماد في العيون) وتحويل انتباه انكلترا من الشرق والبحر الابيض فان الدلائل تشير الى أن هذه الحملة الكبيرة كانت في الحقيقة مشروعا جديا يؤيد ذلك الاوامر والمراسلات المتعلقة بالاستعدادات البحرية والعسكرية لتنفيذ هذا الغزو كما يتضح من رحلة التفتيش الكبرى التي قام بها بونابرت على السواحل الفرنسية في أوائل شباط ١٧٩٨ ٠

استمرت الاستعدادات قائمة على قدم وساق لتدبير الاموال والاعتدة اللازمة ووضع الخطط الحربية٠

بيد أن ضرورة انجازها في اقصر مدة مستطاعة سرعان ما أظهر لحكومة المديرين ولنابوليون عظم الصعوبات التي تعترض هذا الغزو منها صعوبة الحصول على الاموال اللازمة والعدد الكبير من السفن لنقل الحملة وتموينها كما اتضح لنابوليون على أثر رحلته التفتيشية ان حملة كهذه تتطلب وقتا طويلا من الاستعدادات الهامة في الثغور الشمالية لتنفذ في الوقت الملائم كما جاءت تقارير ضباطه وبحوثهم في المراكز التي تفقدوها تؤيد هذه الحقيقة • كل هذه العوامل حولت تفكير ذوي الشأن في فرنسا عن غزو انكلترا مباشرة في عقر دارها الى غزوها بطريقة غير مباشرة وفي ميادين اخرى فكانت حملة مصر •

القسم الثاني

الاسباب المباشرة

تعددت هذه الاسباب واختلفت الاراء بصددها : فمن قائل ان حكومة المديرين اصبحت تخشى من نفوذ بونابرت بعد انتصاراته الباهرة في ايطاليا وودت لذلك لو انها استطاعت التخلص من هذا القائد (١) بارساله في حملة جديدة تبعده عن باريس فوجدت في تعيينـــه لقيادة الجيش المرسل الى مصر فرصة مؤاتية لتحقيق هذه الرغبة ذلك أن بونابرت منذ انتصاراته في ايطاليا قد ازداد اعتدادا بنفسه فأصبح لا يقنع بمركز الخادم المطيع فحسب لمجلس المديرين وان يمهد سبيل العظمة لغيره من اعضاء هذا المجلس امثـــال « باراســـس » (BARRAS) وكارنو • وفي الواقع فقد كان نابوليـــون يطمع في أن يكون من أعضاء مجلس المديرين ولكـــن سنه التي كانت أقل من الاربعين تحول دون ذلـــك بمقتضى دستور السنة الثالثة وعلى ذلك فقد فضـــل التريث حتى يبلغ هذه السن وحتى « تنضج الكمثري » كما قال : غير أنه لم يكن يرضى ان يبقى خاملا حتـــى يبلغ السن المحددة في الدستور فينساه الشعب ، انبرى

....

Histoire Diplomatique de 1 648 - 1 919 JACQUES DROZE. P. 218.

بكل قوته لتأييد مشروع الحملة على مصر (١) ٠

أما تلليران فقد كان يعزو تلك الحملة الى أن اللواء الشاب لم يكن ليقتنع في أن يضيع اسمه بين جمهرة القادة بل كان يطمع في أعلاء سمعته بعمل يكفل له ذياع الصيت وانه هو الذي عرض في باريس على مجلس المديرين القيام بحملة مصر فأجابه المجلس الى ذلك ومما لا ينكران المتأمل لتلك السياسة يرى من خلالها ان حملة مصر لم تكن وليدة التخطيط العام الذي ترسمه مجلس المديرين بل كانت حلقة من حلقات سياسة بونابرت الذاتية على غرار معاهدتي ليوبن وكامبوفورميو ٠ وهنا يتساءل المرء عن الاسباب التي دفعت بونابرت الى تدبير تلك الحملة في موسم خصب بالانتصارات في ايطاليا ؟

الجواب على ذلك هو أن بونابرت كان يعمل على الاطاحة بمجلس المديرين وقد عاد من ميدان ايطاليا لينجو من مؤامرة هؤلاء الاخرين مفضلا العودة الى ميدان السياسة في فرنسا عاملا على كسب شعبية يستمدها من غزواته تخدمه عند العودة الى فرنسا ٠

ويرى البعض أن سبب حملة مصر كان الاستمرار في اضطهاد المماليك للرعايا الفرنسيين المقيمين في مصر وامعان مجالون (MAGALLON) في ارسال الشكاوى من سوء معاملة المماليك الى حكومة المديرين

(١) الحملة الفرنسية وظهور محمد علي — الدكتور محمد فؤاد شكري الفصل الثاني ٠

وقد تضمنت خطاباته التي أرسلها الى حكومة بـــلاده فكرة الاستيلاء على مصر ذاتها كخير وسيلة لضمـان المصالح الفرنسية في مصر •

تقرير (MAGALLON) ٩ شباط ١٧٩٨ - (١)

- كانت الفوضى المنتشرة في مصر لا تدعو الـــى استتباب التجارة وكان الفرنسيون على الرغم مـــن اضطراب أحوال هذه البلاد لا يزالـــــون متمسكـــين بمصالحهم التجارية فيها •

وعندما حضر البارون دي توت الى مصر برحلـة تفتيشية كانت الحكومة الفرنسية كلفته القيام بهـا ووقف بنفسه على طغيان المماليك وفرضهم المغـارم الفادحة علـــى التجار الفرنسييـــن فـــي القاهرة • أشار على حكومته بانتقال مراكز تجارة الفرنسييـن من القاهرة الى الاسكندرية فوافقت الحكومة الفرنسية على ذلك •

الا ان انكلترا لم تتوان في بذل الجهود والمساعي لدى السلطان في الاستانة لتعطيل مصالح الفرنسييـــــن التجارية في مصر فكان من شأن ذلك أن قويت رغبـة فرنسا في الاستمرار في تجارتها وتدعيمهـا في هـــذه البلاد • وقد عمد (VERGENNES) وزير خارجيـــة فرنسا في سبيل تحقيق ذلك الى تكليف سفير فرنسا الجديد في القسطنطينية (CHOISEUL GOUFFIER) بأن يحصل على موافقة الباب العالي من أجل فتـــح الطريق البري عبر برزخ السويس للتجارة الفرنسيـة فلم ير السفير بدا من الاعتماد على خدمات أحد التجار

....

MAGALLON. MEMOIRES SUR L'EGYPTE P.205-224

الفرنسيين المدعو شارل مجالون CHARLES MAGALLON الذي كان مضى على اقامته في مصر عشرون سنة ونيف وكان يقوم بأعباء الاشراف على مصالح مواطنيه في القاهرة منذ انتقال القنصلية الفرنسية الى الاسكندرية عام ١٧٧٧ فتوصل بفضل مساعيه الى عقد اتفاقات تجارية عام ١٧٨٥ بين حكومة البكوات المماليك والحكومة الفرنسية ٠

الا أن طغيان اثنين من حكام المماليك مراد بك وابراهيم بك وسوء معاملتهما للتجار الفرنسيين حملت هؤلاء الاخرين على غلق متاجرهم في القاهرة والهرب الى الاسكندرية وكان مجالون نفسه على رأسهم

وكان لا ينفك يرسل الشكاوى المتتابعة الى حكومة المديرين ويظهر لها عبث الاعتماد على الوسائل السلمية في التأثير على المماليك كما كان يدعو الى فكرة الاستيلاء على مصر كخير وسيلة لضمان المصالح الفرنسية ٠

وفي عام ١٧٩٥ كتب مجالون الى فرنيناك في الاستانة أنه لا ينبغي الاعتماد على الفرمانات مهما كانت قوية في تغيير وتحسين مركز الفرنسيين في مصر بل على العكس ستؤدي الى ازدياد خطورة مركزهم وعلى ذلك فاما أن ينتقم لنا الديوان العثماني بشكل حاسم واما أن يطلع على ان الجمهورية ذات قوة تمكنها من تأديب جماعة من الافراد لا يعرفون سوى الكبرياء والخيلاء ٠

وأضاف مجالون اذا كانت الجمهورية تريد

الاهتمام بالتجارة واستغلالها فالواجب يحتم عليها احتلال مصر باكملها •

وقد ارسل مجالون صورة من خطابه هذا الى لجنة العلاقات الخارجية بباريس كما أرسل خطابا آخر عام ١٧٩٥ الى قوميسير هذه اللجنة كولشين (GOLCHEN) جاء فيه : ان فكرة الاستيلاء على مصر كانت موضع تفكير الحكومة الملكية الملغاة لما كانت تعرفه تلك الحكومة من الفوائد التجارية الكثيرة التي يمكن أن تجنيها من فتح هذه البلاد ولم يغفل مجالون في خطابه هذا عن ذكر مزايا الاستيلاء على السويس والسيطرة على البحر الاحمر • كما أرسل في ذات العام خطابا ثالثا بالمعنى المتقدم الى اعضاء (لجنة الخلاص) في باريس •

عودة مجالون الى فرنسا وتقديمه تقريره

التاريخي المشهور الى حكومة المديرين

اجازت حكومة المديرين العودة لمجالون الى فرنسا فوصل الى باريس عام ١٧٩٧ في الوقت الذي ختم فيه الصلح مع النمسا في (كامبوفورميو) التفكير جديا في الاقتصاص من انكلترا وفي هذه الظروف قدم مجالون تقريره التاريخي المشهور الى حكومة المديرين فكان هذا التقرير من جملة المستندات التي استرشدت بها حكومة المديرين عند اتخاذها القرار النهائي بصدد ارسال الحملة الى مصر بقيادة نابليون بونابرت •

اسباب الخصام المزمن بين فرنسا وانكلترا

يتساءل الكثيرون لماذا لم يجد هذان الشعبان ـ الانكليزي والفرنسي اللذان يتمتعان بقسط وفير من الذكاء والمدنية ـ صعيدا للتفاهم واخماد جذوة الخصام بينهما وعلى هذا يجيب اللورد (CHATAM) ۰ ابان المفاوضات البدائية لصلح باريس عام ۱۷٦۳ القى هذا اللورد خطابا أمام البرلمان في كانون الاول عام ۱۷٦۲ قال فيه :

« ينبغي على وزراء جلالة الملك الا ينسوا مطلقا هذا المبدأ الاساسي المبدأ الموجه لسياسة بريطانيا بأجمعها بأن الشيء الوحيد الذي تخشاه بريطانيا هو أن ترى فرنسا تصبح قوة بحرية وتجارية واستعمارية فهل معنى ذلك أن اللورد (CHATAM) كان يغذي روح الضغينة ضد العرق الفرنسي ؟

لا فانكلترا قد اتبعت ذات الطريقة حيال اسبانيا وهولندا والدانمرك وستتبع ذلك المسلك ازاء كل من يريد التقدم والثروة والخروج من حدود بلاده ۰ اذ أنها تعد ذلك اذى لمصالحها لا تطيق عليه صبرا ۰

ان هذه السياسة الطافحة بالانانية هي مفروضة على بريطانيا بسبب عزلتها عن بقية اوروبا وبضرورات صناعتها ۰ ولهذا فهي ما برحت تدافع بكل ما أوتيت من جهد عن مبدأ حرية البحار لتؤمن تجارتها وتمون بلادها وقد قال (URQUHARDT) في

مجلس العموم عام ١٧٦٢ :

(احذروا أن البحر يساعدكم وبذات الوقت يهددكم ، فهو يحميكم ولكنه يضرب الحصار عليكم فوضع هذه الجزيرة لا يحتمل حلا وسطا بين أن تكون في منتهى القوة أو بأن لا تكون • لهذا فقد كان يسهل اخضاعها الى أن اخضعت بدورها البحر فأصبحت سيدة العالم وستصبح بريطانيا ضحية البحر في اليوم الذي لم تعد فيه ملكته) •

ولهذا فان بريطانيا تراقب دون هوادة وعن كثب العمارات البحرية في جميع البلدان وتعلن بأن اسطولها يجب أن يكون متفوقا على كافة اساطيل الدول الكبرى في اوروبا •

فاذا ما وجدت يوما علما ينافسها فلا تتورع من محاربة الدولة العائد لها هذا العلم •

واثباتا لهذا القول فان الحرب العالمية الاولى التي كان حادث (SARAJEWO) عذرا لاعلانها لم تكن في الحقيقة سوى نتيجة للمنافسات التجارية بين المانيا وانكلترا •

ولهذا فان بريطانيا لا تربح الا اذا جعلت من السياسة قضية تجارية فهي لا تهتم سوى بمصالحها المادية وتجهل سياسة العواطف فهي تقاتل في سبيل الاولى وليس من أجل الافكار •

تلك كانت حالة اوروبا بوجه عام ازاء فرنسا التي الغت الملكية من دستورها وأعلنت حربا دون هوادة على الدول ذات النظام الملكي •

ننتقل بعد هذا الى القاء نظرة خاطفة على حالة مصر قبل مجيء الحملة الفرنسية اليها وعند مجيئها •

الفصل الثاني

حالة مصر الاجتماعية والاقتصادية قبل مجيء الحملة الفرنسية

استولى العثمانيون على مصر سنة ١٥١٧ وأزال السلطان سليم سلطة المماليك الشراكسة منها وقد وضع هذا السلطان قاعدة النظام السياسي للحكومة وهي :

ـ ايجاد سلطتين تتنازعان الحكم وتراقب كلتاهما الاخرى :

الاولى ـ سلطة نائب السلطان (الوالي)
الثانية ـ سلطة رؤساء الجند ٠
كما وضع ايضا نواة سلطة ثالثة
وهي سلطة البكوات المماليك بغية حفظ التوازن بين سلطة الوالي ورؤساء الجند ٠

ان هؤلاء المماليك هم بقايا الدولتين اللتين آل اليهما الحكم في مصر على التعاقب نيفا و ٢٦٧ سنة فالاولى هي دولة المماليك البحرية ـ والثانية هي دولة المماليك البرجية ٠

وقد أعلنت تلك البقية الباقية من المماليك خضوعها وقدمت طاعتها للسلطان سليم فعين منها حكاما للمديريات •

ولم يطل الامر حتى بدأ التنازع بين الولاة ورؤساء الجند فاغتنم المماليك تلك الفرصة وأخذوا يعملون على الانفراد بالحكومة وانتهى التنافس بين السلطات الثلاث الى تغلب سلطة البكوات المماليك وكان ذلك في النصف الثاني من القرن السابع عشر وساعدهم على ذلك الضعف الذي أصاب السلطنة العثمانية في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر بسبب حروبها المتواصلة ضد النمسا •

ولما كانت السلطة الفعلية تمثل آنذاك في « شيخ البلد » الذي هو كبير المماليك ورئيس الحكومة المحلية والباشا (الوالي) لا حول له ولا قوة ، أضحت ادارة الحكومة العسكرية والمدنية بحكم الطبع منحصرة في يد المماليك •

ان تقهقر السلطة العثمانية وانصرافها الى محاربة النمسا وروسيا خلال القرن الثامن عشر ساعد المماليك على الاستئثار بالحكم والتخلص من تركيا وكان أول من جاهر بهذه السياسة من المماليك المدعو « علي بك » الملقب بالكبير وقد وصل هذا المملوك بقوة اشياعه واتباعه الى مشيخة البلد سنة ١٧٦٣ فلما نشبت الحرب بين تركيا وروسيا سنة ١٧٦٨ جاهر بعدم طاعته للدولة العثمانية وأعلن استقلال مصر وامتنع عن دفع الخراج سنة ١٧٦٩ وعزل الوالي التركي وضرب النقود باسمه • وكان من مماليكه واتباعه

احمد باشا الجزار ومحمد بك ابو الذهب اللذين لعبا دورا هاما على مسرح الاحداث ٠

ولما كان علي بك واسع المطامع طموح النفس فقد جرد الجيوش وفتح معظم جزيرة العرب ونادى به شريف مكة (سلطان مصر وخاقان البحرين) وقد أوفد محمد بك أبا الذهب ليفتح باسمه سوريا وما كاد يتم له فتح دمشق حتى انقلب على علي بك واتفق مع الباب العالي وعاد الى مصر ليستأثر بالحكم فيها ٠ فنشبت الحرب بينه وبين سيده علي بك انتهت بقتل هذا الاخير سنة ١٧٧٣ وعادت مصر ولاية عثمانية وخلصت امارتها لمحمد بك ابي الذهب الذي استقر (شيخا للبلد) وصدر فرمان من السلطان يثبت محمد بك هذا في مشيخة البلد وتوليه حكم مصر وعادت تركيا الى ارسال الولاة كما كانت الحالة في السابق ٠

الا أن سلطة الوالي ظلت اسمية بسبب استئثار محمد بك بالسلطة الفعلية حتى موته سنة ١٧٧٥ فخلفه في مشيخة البلد ابراهيم بك وقاسمه السلطة مراد بك ٠

ثم حصلت فتنة بين المماليك تولى على أثرها اسماعيل بك مشيخة البلد لكنه لم يلبث فيها الا قليلا حيث خلفه ابراهيم بك ومراد بك وعادا ثانية الى اقتسام سلطة الحكم مع الاشارة الى أن ابراهيم بك كان شيخا للبلد وكانت له الرئاسة ٠

جردت تركيا سنة ١٧٨٦ حملة عسكرية بقيادة حسن باشا الجزائرلي لاسترجاع سلطتها في مصر

انتهت بفرار ابراهيم بك ومراد بك الى الصعيد وعاد اسماعيل بك الى مشيخة البلد لكن نشوب الحرب بين روسيا وتركيا صرفها عن الاستمرار في محاربتهما فعاد حسن باشا الى الاستانة ثم على أثر موت اسماعيل بك بالطاعون سنة ۱۷۹۱ ٠ عادت السلطة الى ابراهيم بك ومراد بك وتلاشى بجانبهما نفوذ الوالي واستقر ابراهيم بك شيخا للبلد الى ان جاءت الحملة الفرنسية سنة ۱۷۹۸ ٠

٢) الحالة الاجتماعية والاقتصادية في مصر عند مجيء الحملة الفرنسية

كانت مصر تعد حينذاك ثلاثة ملايين ٠ ينقسم شعبها الى حكام ومحكومين -

فالحكام : هم فئة المماليك المتراوح عدد المقاتلين منهم بين تسعة وعشر آلاف مملوك ٠

والمحكومون : هم الشعب المصري الذي كان يتألف من عدة طبقات اجتماعية ٠

كان العلماء ورجال الشرع يؤلفون الطبقة الاولى ولهم تأثير عظيم في نفوس الامة وقيادة أفكارها كما كانت لهم الزعامة الادبية والسياسية بين الجماهير ٠

ثم تأتي طبقة الملاك والتجار ٠ فكانت فئة الملاك تضم كبار الاعيان الذين عرفوا بسعة الثروة وبسطة الجاه وهم سلالة البيوت المصرية القديمة ٠ أما فئة التجار فكانت اغنى طبقات الشعب المصري ٠

وأما طبقة المزارعين (الفلاحين) والتي تكون

الشطر الاكبر من الامة فكانت في حالة يرثى لها من الجهل والفاقة • والزراعة في تقهقر بسبب حرمان البلاد من منشآت للري كحرمانها من حكومة عادلة توطد الامن وتصون حقوق الافراد •

أما طبقة الصناع فكانت تنتظم في طوائف تشبه نقابات الصناع الحالية يرأس كل طائفة شيخ يسمى (شيخ الطائفة) ولم تكن البلاد تعرف الصناعات الكبرى •

هذا وكانت مصر تقسم من الوجهة الادارية الى ست عشرة مديرية تسمى كل منها (اقليما) وقد كانت القاهرة ولم تزل أكبر مدن القطر المصري ومقر حكومته وعددها في ذلك العصر حوالي ثلاثمائة الف نسمة (١) •

....

(١) تاريخ الحركة القومية في مصر للدكتور عبد الرحمن الرافعي بك — الجزء الاول = الفصل الاول .

الفصل الثالث

تنفيذ الحملة الفرنسية على مصر

أقلعت العمارة من طولون يوم ١٩ ايار سنة ١٧٩٨ وعددها نحو ثلاثمائة سفينة يحرسها اسطول الاميرال بروس (BRUEYS) المؤلف من ٥٥ سفينة حربية منها ١٣ بارجة كبيرة احداها السفينة (اوريان ORIENT) وهي سفينة الاميرال التي أقلته وأقلت نابليون القائد العام وأركان حربه وبعض العلماء وسلاحها ١٢٠ مدفعا ٠

وفي الثاني والعشرين منه انضمت الى الحملة بواخر جنوه ٠

وفي السادس والعشرين بواخر كورسكا ٠

فرست بجزيرة مالطة بتاريخ ٩ حزيران وكان يحكم هذه الجزيرة طائفة من الرهبان منذ عهد شارلمان يعرفون بفرسان القديس حنا الاورشليمي ثم عرفوا بعد ذلك (بفرسان مالطة) ٠

استولى نابليون بونابرت على جزيرة مالطة بعد دفاع ضعيف ووقع حاكم هذه الجزيرة معاهدة التسليم في الباخرة (ORIENT) بتاريخ ١٢ حزيران ٠

تابع بونابرت تقدمه الى مصر بعد أن نظم حكومة في الجزيرة وأبقى فيها حامية فرنسية قوامها ثلاثة آلاف جنديا بقيادة الجنرال (VAUBOIS) لتوطيد سلطة فرنسا في الجزيرة والدفاع عنها وقد استعاض بونابرت عن هذه الحامية بألفي جندي من المالطيين ضمهم الى جيشه ورافقوه الى مصر فألف منهم (الكتيبة المالطية) •

أما عدد افراد الحملة فكان ٣٢٣٠٠ مقاتلا كما ضمت نيف ومائة وعشرين عالما بينهم (MONGE و BERTHOLLET) حتى أمكن القول بأنها كانت بعثة علمية بقدر ما هي حملة عسكرية •

وقد كان الجنرال (BERTHIER) رئيس أركان حرب الجيش •

والجنرال (CAFFARELLI) قائد سلاح الهندسة•
والجنرال (DOMMARTIN) قائد المدفعية •
والاميرال (BRUEYS) قائد الاسطول •

أقلعت العمارة الفرنسية من مالطة في ١٩ حزيران فوصلت الى شاطىء الاسكندرية في أول تموز وكان قد جاء الاميرال نلسون ـ البريطاني بأسطوله الى هذا المكان قبل ذلك بثلاثة أيام يفتش عن البواخر الفرنسية ثم عاد ادراجه لمتابعة التفتيش عنها في أماكن أخرى • وما ان علم نابليون بذلك حتى أمر بأن تتم عملية انزال الجيوش الى اليابسة في مساء النهار نفسه خشية من أن يهاجمها بغتة الاسطول البريطاني الذي يجد في أثرها • وقد لاقى الجنود الفرنسيون

مصاعب جمة في النزول الى القوارب لشـــدة هيجان البحر حينذاك حتى ان تسعة عشر جنديا قضوا غرقا تحت ستار الظلام ٠ الا انه قبل المباشرة بالنزول الـى اليابسة ـ تلي في كل عمارة بحرية على مسامع ركابها أمر نابليون الآتي :

« ايها الجنود انكم توجهون الآن ضربة مؤلمـــة الى بريطانيا ريثما توجهون اليها بعد هذه الضربـــة القاضية ٠ واني لمؤمن بالنجاح فيما شرعنـــا بـــه ٠ وسنفني المماليك الذين أهانوا فرنسا بعد بضعــــة أيام ٠ وأعلموا ان المادة الاولى للشعب الذي ستعيشون بينه هي (لا اله الا الله محمد رسول اللـــــه) فــلا تعاكسوهم في معتقدهم ٠ واعلموا أن النهــب يحقـــر الجيش وأن المدينة التي هـــي الآن امامكـــم وغــدا ستحتلونها قد بناها الاسكندر » ٠

تملك الرعب قلوب سكان الاسكندرية حينمـــــا رأوا على ضوء القمر مئات البواخر قد وصلت الـــــى شاطىء مدينتهم دون أن يكون لديهم ادنى علم فـــي الامر ٠ وكان أول من وصل الى اليابســـة الجنــــرال (MENOU) في الساعة التاسعة مساء في محلـــة (MARABOUT) أما نابليون فلم يصل الى البر الا في الساعة الواحدة بعد نصف الليل حيث أمر في الساعة الثالثة بجمع من وصل الى اليابسة من الحملة حيث بلغ عددهم ٤٥٠٠ مقاتل لانه وجد من الضرورة احتــــلال نقطة عسكرية فجأة دون اللجوء الى النيران وباشــر بالتقدم لتحقيق بغيته ٠

الا أنه في الساعة الواحدة بعد نصف الليل نمـــي الى قائد مدينة الاسكندرية المدعو كريم بأن عدوا قد

احتل قلعة مارابوت وان البحر مغطى بمراكبه والشاطىء اسودا لكثرة ما عليه من الرجال ·

سارع كريم هذا بتوجيه رسالة الى مراد بك في القاهرة يطلعه على الخبر وكان أسلوب رسالته يلقي الرعب في النفوس فقد قال فيها (ان العمارة التي حضرت هذا اليوم مراكب عديدة ما لها أول يعرف ولا اخر يوصف فبالله ورسوله ادركونا بالرجال) (١) ·

ثم امتطى جواده وسار على رأس عشرين مملوكا فالتقى بسرية رماة تقوم بمهمة حماية جانب الحملة فأغار على قائدها وأطاح برأسه وجاء به الى الاسكندرية يعرضه ظفرا · وتألب البدو على خيولهم من كل حدب وصوب لسلب هذا العدو الجديد وكم كان سرورهم عظيما عندما لم يروا مع الغزاة خيولا · حيث كانت لا تزال بعد في المراكب ـ فكانوا يغيرون على جناح الجيش ومؤخرته فتوصلوا الى أسر اثني عشر فرنسيا أعجبوا ببشرتهم · ورغم كل هذه العقبات فقد توصل نابليون الى خرق جدار المدينة وقد جرح في هذه الاثناء الجنرال (MENOU و KLEBER) اللذين كانا يقومان بالانقضاض أمام قواتهما ·

أرسل نابليون ضابطا تركيا يعلم شيوخ المدينة وعلماءها ووجهاءها بأنها معرضة للخراب في حالة ابداء أية مقاومة فأعلن الجميع خضوعهم للفاتح الجديد · فدخل نابليون مدينة الاسكندرية ونزل في مسكن قنصل فرنسا ، وقبل وصوله أطلق عليه أحد جنود الاتراك من نافذة أحد المنازل النار فأخطأه ولكن

(١) تاريخ الحركة القومية في مصر ج١ الفصل الرابع ·

حرس القائد العام قبضوا على مطلق النار في الحال ·
وقد كانت خسارة الفرنسيين في معركة الاسكندرية ثلاثمائة جندي بينما خسر الاتراك والمماليك ثمانماية ·

أما كريم قائد المدينة فقد التجأ الى منارة الاسكندرية فحوصر فيها وبعد مفاوضات استغرقت طوال الليل أعلن استسلامه وخضوعه الى القائد الفرنسي وأقسم اليمين على ولائه له فقضت حنكة نابليون بالصفح عنه رغم قتله قائد السرية الفرنسي وعهد اليه أمر السكان لحملهم على الخلود الى السكينة ففعل اذ أنه كان ذا صولة وبطش يرهبه أهل الاسكندرية وجوارها ·

وفي مساء ٢ تموز أمر قائد الحملة بتعليق مناشير في الاسكندرية كتبت باللغة الفرنسية والعربية والتركية وهذا نصها ·

« الى القضاة والشيوخ والعلماء والائمة والشعب المصري · أن البكوات يهينون فرنسا منذ وقت غير قصير وأن ساعة ادانتهم قد آنت · والله الذي يجري كل شيء بأمره قال : أن عهد المماليك قد انتهى ·

فأن قيل لكم بأنني جئت لانتقم من الاسلام فأجيبوا : أنني أحب الرسول والقرآن وما جئت الا لاعيد حقوقكم اليكم · فأسعد الناس من يعلن انه معنا · والسعيد أيضا من يلزم الحياد ولهؤلاء الوقت الكافي بأن يتعرفوا علينا · والويل لمن تحدثه نفسه بحمل السلاح ضدنا · أنهم يفنون · وسنحاكم عسكريا كل قرية تظهر لنا العداء · فتحرق أن لزم الامر · أن الشيوخ والائمة والمؤذنين آمنون حيث كانوا » ·

وقد سطر نابليون رسالة الى الباشا حاكم القاهرة كلف بنقلها ضابطا من الاتراك هذا نصها :

« طالما طالبت الحكومة الفرنسية الباب العالي بمعاقبة بكوات مصر فكان جوابه :

أن البكوات جشعون ومتمردون وينزع عنهم حمايته وقد أرسلت فرنسا جيشا عرمرما لتأديبهم فأت اذا لملاقاتي» • احتاج نابليون لنقل العتاد والذخيرة والمؤن الى خيول وجمال ولما كانت موارد الاسكندرية لا تكفي لهذا الغرض اضطر لمصالحة أمراء القبائل المجاورة وعقد اتفاق معهم فعهد الى كريم لتسهيل الامر • سارع كريم هذا بأيفاد رسلا الى شيوخ القبائل فأتاه ثلاثون شيخا من قبيلة هنيدي وأولاد علي فقدمهم الى قائد الحملة وجرى الاتفاق بينهم وبينه وتعهدوا بابقاء طريق الاسكندرية ـ دمنهور حرة حتى للافراد العزل وتقديم ثلاثمائة جوادا وخمسمائة جملا مقابل ثمنها وتقديم ألف جمل على سبيل الايجار في مدة لا تزيد عن ٤٨ ساعة وقبضوا رعبونا قدره ألف ليرة ذهبية وتعهدوا أيضا باعادة الاثني عشر اسيرا فقدموا في اليوم التالي قسما منها على أن يقدموا ما تبقى في الايام المقبلة القريبة •

وقبل أن يتحرك الجيش من الاسكندرية أرسل نابليون أمرا الى الاميرال قائد الاسطول بأن يدخل البواخر والمراكب الى ميناء الاسكندرية • فأبقيت في نفس المكان رغم أوامر نابليون الصريحة بشأنها (أي في مرفأ ابي قير) •

سارت الحملة بشطر القاهرة بعد أن قسمت خمس

فرق كل فرقة بقيادة أحد القادة الآتية اسماؤهم : (DESAIX وREYNIER و BON و DUGUA و VIAL) وبقي الاحتياط بقيادة (MURAT) وكانت المدفعية التي ترافق هذه القوة ٤٢ مدفعا لان البقية قد تركت في الاسكندرية للدفاع عن مينائها وقد انيط الدفاع عنها الى الكولونيل (CRETIN) من سلاح الهندسة وقد كان مجموع الحملة ٢١٠٠٠ مقاتل بينهم ٦٠٠ بحريا بقيادة الاميرال (PERREE) تمخر النيل مواكبة المشاة • وبقي الجنرال (KLEBER) حاكما للاسكندرية وضواحيها لعدم تمكنه من الاشتراك مع الحملة بسبب جراحه وبقي معه تسعة آلاف مقاتل للدفاع عن الاسكندرية •

وبينما كان البدو على أهبة تقديم ما تبقى عليهم من خيول وجمال تلقوا فتوى من علماء القاهرة وشيوخها يدعونهم للمبادرة الى حمل السلاح والوقوف في وجه العدو الذي يهدد الاسلام فعليهم الدفاع عن الدين فأنكروا المعاهدة وأعلنوا لكريم بأن تهديد الدين يحملهم على عدم الاعتراف بالمعاهدة وانهم يناصبون العداء للذي تعاهدوا معه وباشروا بالفتن وكانوا يواكبون الحملة الفرنسية كأنهم حماة الجوانب والمؤخرة ويلازمونها ملازمة الظل طمعا في سلب مقاتل ضل طريقه أو أعياه التعب فتوقف عن اللحاق برفاقه وبات من العسير أن يترك أحد أفراد الحملة الصف لاي سبب كان فينحرف يمنة أو يسرة ولم تحدث أحد منهم نفسه بالتأخير فيكون بانتظاره الموت المحتم وكانت المؤن والذخيرة تسير بين الصفوف محافظة عليها من النهب •

لقد لاقى الجنود الامرين اثناء سيرهم • فالمياه قليلة • ناهيك عن عذاب الحر وفقدان الظل فكادوا يستسلمون الى اليأس لولا وعود نابليون لهم بأن القاهرة جنة من جنان الارض ينسون فيها التعب •

سر بكوات مصر عندما علموا بأن الحملة التي احتلت الاسكندرية وتتابع سيرها الى القاهرة لا تملك خيولا وتعالت اصواتهم فرحا وسرورا واضيئت القاهرة ابتهاجا قائلين لبعضهم : (ان العدو القادم هو بطيخ للقطع) وامتطى أحدهم جواده وسار على رأس ٦٠٠ مملوكا لملاقاة العدو في دمنهور (DAMANHOUR) وتأخير سيره فاصطدم بهم في المكان المذكور وكم كانت بغتتهم عندما انهال عليهم الرصاص وقد لاقى القسم الجريء منهم حتفه على أسنة الحراب • ولما علم مراد بك بهذا الانهزام العاجل نعتهم بالجبن وتقدم على رأس ثلاثة آلاف مملوكا وألفين تركيا • يواكبه ستون مركبا وجمع حواليه جميع عرب الفيوم وتبعه ابراهيم بك بقوة تفوق قوته ولما وصلت هذه القوات الى (CHOBRÂKHYT) شوبراكيت عسكرت فيها وباشرت بتحصينها • ولكن ما كاد نابليون يعلم بنوايا المماليك حتى سارع لملاقاتهم قبل أن يكون لمراد بك متسع من الوقت لتحصين القرية ونظم جيشه استعدادا لبدء المعركة •

بقي الجيشان ـ الجيش الفرنسي والمماليك ـ ينظر أحدهما الى الاخر بضع ساعات لان الفريق الاول كان ينتظر وصول مراكبه ولكنها لم تصل بسبب عدم هبوب الارياح فبقيت في معزل عن المشاة وما كاد

المماليك يغيرون على خيولهم ويشقون صفوف العدو حتى انهال الرصاص من كل جانب فخسروا عددا كبيرا ولما رأى مراد بك ما حل بجيشه من الخسارة والفوضى فكر بالانسحاب سريعا لينتظر العدو على ابواب القاهرة ٠

جمع المماليك كل قواهم أمام القاهرة ٠ وتمركز مراد بك على ضفة النيل اليسرى ومعه عشرة آلاف مقاتل من المماليك والاتراك ٠ وبقي ابراهيم بك على الضفة اليمنى ومعه الاحتياط والاموال والنساء وبقية ثروة المماليك حيث يكون على استعداد تام للدخول الى القاهرة أو للهرب الى سوريا وفقا لمقتضيات نتيجة المعركة ٠ وفي ٢١ تموز وصلت الحملة الفرنسية الى سهول الاهرام فأصدر نابليون أمره بانتظار العدو وعدم فتح النار الا على مسافات قريبة ورسم خطة ، بحيث تساعده على القاء أكبر عدد من المماليك في النيل حيث لا يجدون غيره مفرا وسرعان ما حققت فكرة نابليون اذ ما كاد المماليك يغيرون كعادتهم حتى وجدوا حاجزا ناريا وكيفما اتجهوا يصلون نارا فتراجع عدد كبير منهم الى الصحراء وقسم سقط في النهر وانسحب مراد بك الى مصر العليا أما ابراهيم بك فلما علم ما آلت اليه الحال أضرم المراكب التي كانت تقل ثروة مصر كي لا يغنمها العدو وتوجه مسرعا نحو سوريا ٠ وكانت خسارة المماليك ستمائة مقاتل ما عدا الفا منهم قضوا غرقا ٠ في هذه المعركة قال : نابليون لجيشة وأشار الى الاهرام (ايها الجنود أربعة الاف عام تنظر اليكم) ٠

وقد كان للرسالة التي بعثها نابليون الى حاكم

القاهرة أثر كبير في أوساط العاصمة المصرية فما كاد يكتب له النصر في معركة الاهرام حتى سارع اليه وفد من شيوخ القاهرة وعلمائها الى الجيزة حيث كانت المدينة تنتظر عودتهم بفارغ الصبر فشكروا القائد العام على حسن ملاقاتهم وأعلنوا خضوعهم للسلطان الكبير ، هكذا كان البدو يلقبون نابليون ويعرفونه بهذا الاسم • ثم دخل الجنرال (DUPUY) الى القاهرة وعين حاكما عليها • وعلق في جميع انحائها المنشور الآتي وهذا نصه :

« يا أهل القاهرة • أني مسرور من تصرفكم • وما جئت الا لقطع دابر المماليك وحماية التجارة • فليطمئن ذوو المخاوف منكم • ولتقام الصلاة اليوم كالمعتاد فلا تخافوا شيئا على عيالكم وبيوتكم وأملاككم وخاصة نبيكم الذي احبه » •

وخصص نهاري ٢٢ و ٢٣ تموز لاستقبال اعيان القاهرة في الجيزة حيث كانوا يفدون لاعلان خضوعهم للفاتح الجديد • وقد استخدم نابليون في تلك الاثناء جل حنكته بحسن الحفاوة للوفود لكسب ثقتهم وكذلك مقدرة المترجم المدعو (VENTURE) كانت من العوامل التي حملت الجميع على تقدير السلطان الكبير ولا يخفى ان هذا المترجم قد قضى أربعين عاما في تركيا ويعد أول مستشرق أوروبي • وفي الخامس والعشرين من تموز دخل نابليون القاهرة ونزل في حي الازبكية •

الانكليز والحملة الفرنسية

لم تكن بريطانيا تدرك شيئا من غرض

استعدادات الفرنسيين في بادىء الامر وكانت تخشى أن تكون هي بالذات هدفا لهذه الاستعدادات وكان اسطولها مرابطا في البحر بقيادة : (JERVIS BARL SAINT VINCENT) على مقربة من مدينة كاديكس الاسبانية وهي مرفأ حربي على الاطلنطيك وعلى مقربة من مضيق جبل طارق الى الشمال ·

أوعزت الحكومة البريطانية الى سنت فنسنت هذا بالمراقبة عند جبل طارق كما كلفته بأختيار أحد الضباط الاكفاء لتقصي حركات الاسطول الفرنسي في البحر الابيض وقد اختار VINCENT لهذه المهمة الاميرال (HORACE NELSON) هوراس نلسن ولم يكن فنسنت وحده المسؤول عن هذا الاختيار فقد كتبت اليه الاميرالية تشير الى اختيار نلسن على اعتبار انه أكثر خبرة ودراية بالبحر الأبيض من غيره ولما هو مشهود له بالكفاءة والنشاط ·

ومع أن اختيار نلسن اثار امتعاضا بين الضباط الاخيرين من الرتب العالية والذين اعتقدوا من حقهم القيام بهذه المهمة فقد دلت الحوادث على أن اختيار نلسن كان اختيارا موفقا في النهاية ·

اجتاز نلسن مضيق جبل طارق بغية جمع المعلومات الكافية عن حركة الاسطول الفرنسي ولكنه لم يوفق في العثور على العمارة الفرنسية فاستطاع الفرنسيون الاستيلاء على مالطة والافلات من مراقبته· عندها كتب نلسن الى القنصل الانكليزي في الاسكندرية « جورج بلدوين » أنه لما لم تكن صقلية هدف الفرنسيين فالمعتقد ان غرضهم الاستيلاء على ميناء من موانىء مصر ثم الاستقرار عند رأس البحر

الاحمر حتى يمكنهم ارسال جيش عظيم الى الهند وهناك يستطيعون بالعمل سويا مع (تبو صاحب) ، الذي هو اخر نباب في الهند ومشهور بعدائه لبريطانيا ، طرد الانكليز اذا أمكنهم من الهند .

كما طلب نلسن من بلدوين ان يمده بالاخبار عن أية استعدادات تقام في مصر لاستقبال الفرنسيين أو عن أعداد أية سفن في السويس لنقلهم في البحر الاحمر . صمم نلسن على الاتجاه صوب الاسكندرية بناء على المعلومات التي حصل عليها في الموانىء التي زارها في نابولي وصقليا ولكنه وجد لدى وصوله الى الاسكندرية أن بلدوين القنصل الانكليزي قد غادرها منذ ثلاثة أشهر كما أنه لم يشاهد العمارة الفرنسية هناك . عندها غادر نلسن الاسكندرية متوجها شطر الشواطىء الاسيوية ثـ ممر على مقربة من شاطىء كريلي الجنوبي ثم عاد الى شواطىء صقلية وكاد اليأس يمتلكه فأبحر الى (MOREE) وهناك علم بأن الاسطول الفرنسي قد غادر شاطىء كريت منذ أربعة أسابيع فأسرع حينذاك نلسن صوب الاسكندرية وفي الساعة الرابعة من بعد ظهر أول اب سنة ١٧٩٨ شاهد الاسطول الفرنسي رابضا في خليج أبي قير .

كان الاميرال الفرنسي (BRUEYS) وضباطه على المائدة انذاك وقسم من الملاحين والقوارب في الاسكندرية أو على الشاطىء في أبي قير .

معركة ابي قير البحرية

أعتمد نلسن خطة محكمة لمهاجمة الاسطول الفرنسي الذي حصر بين نارين وصب على بارجة

القيادة الفرنسية (أوريان) نيران شديدة فأصيب قائدها (CASABIANCA) ثم أصيب الاميرال برويس بجروح بليغة في رأسه وفي جسمه أودت بحياته • ودامت المعركة الى ظهر اليوم التالي اسفرت عن تدمير الاسطول الفرنسي ومقتل أربعة آلاف من بحارته (١) هذا ولم يساهم الاميرال (VILLENEUVE) في القتال متذرعا بحجة أنه كان بأنتظار أشارة من الاميرال (BRUEYS) الذي قتل في حين انه كان في أزمة لا حاجة لاعطاء مثل هذه الاشارة للمساهمة في القتال • لقد دفع الأميرال (BRUEYS) أغلى شيء عليه وهي حياته ـ لخطأه وعدم تقيده بأوامر القائد العام اي بأبقاء العمارة في ابي قير وعدم أخذ الاحتياطات اللازمة للدفاع عنها •

وكذلك لانه لم يعين من يقوم بدوريات استطلاع الى الادرياتيك •

اما نلسن فقد أصيب بجرح بليغ في أثناء المعركة وقد بقي حوالي الاسبوعين في أبي قير وفي ١٩ آب أبحر الى وارسو (٢) •

أرسل نلسن أنباء هذه الهزيمة الى لندن والى بمباي في الهند والى القسطنطينية معلقا أن هذه الهزيمة انما هي لمصلحة السلام والامن في اوروبا وفي

---

(١) تاريخ الحركة القومية في مصر ج١ الفصل الثامن •

(٢) NELSON VOL III

الهند بعد أن أصبح من المتعذر ارسال حملة فرنسية من السويس الى الهند على متن هذا الاسطول الذي دمر القسم الكبير منه كما حث الباب العالي على استرجاع مصر بأرساله البوارج والجيوش لتحطيم سفن العدو الباقية واستعادة الاسكندرية كما صادر كافة رسائل بونابرت المرسلة الى فرنسا ٠

اسباب الهزيمة

ترجع أسباب هذه الهزيمة الى عدم مهارة الفرنسيين البحرية وتفوق انكلترا عليهم في هذا المضمار كما تعود الى نقص تدريب البحرية الفرنسية والى اهمال من قادتها ٠ الا أنه من الواضح أن بقاء الاسطول الفرنسي في الشواطىء المصرية بدلا من الذهاب الى كورفو هو السبب الاساسي في تعريضه لهذه الكارثة ٠

صدى نبأ هزيمة ابي قير في باريس

كتب تلليران على أثر سماعه نبأ الكارثة الشنيعة التي حلت بالاسطول الفرنسي الى (SIEYES) في ١٥ أيلول ١٧٩٨ متسائلا : ماذا كان يفعل الاسطول في الاسكندرية بدلا من الذهاب الى كورفو كما كان المتفق عليه فينتظر في كورفو أوامر الحكومة وحيث يستطيع الوصول اليها من غير مشقة ؟؟؟؟

ـ مسؤولية بونابرت في كارثة أبي قير وحججه ـ
بونابرت ومرسى الاسطول

لقد احتفظ نابليون لنفسه مع اعضاء حكومة المديرين أثناء الاستعدادات للحملة المزمعة على مصر بسرية هدف هذه الحملة • كما تم الاتفاق بين بونابرت وحكومة المديرين قبل أقلاع الحملة من طولون (TOULON) عما يجب اتخاذه بمجرد انزال جيش الحملة الى البر في الشواطىء المصرية وعلى عدم بقاء الاسطول في المياه المصرية بل الذهاب عند الفراغ من انزال الجيش الى كورفو للاحتماء بها من شرور الاسطول الانكليزي الذي كان من المترقب أن يجد في البحث عن الاسطول الذي يقل الحملة الفرنسية في البحر المتوسط •

ويعود السبب في الاتفاق على المكان الذي يصح التجأ الاسطول الفرنسي اليه بعد أنزال (جيش الشرق) في مصر فهو أن اعضاء حكومة المديرين لم يكونوا جميعهم مقتنعين بنجاح الحملة • فقد لاحظ احد أعضاء هذه الحكومة وهوREVELLIERE LEPEAUX أن سيطرة الانكليز البحرية تجعل اجتياز البحر الابيض من أشد الامور خطورة وتهدد الجيش بمجرد نزوله الى البر بالعزلة التامة • وقد تم الاتفاق على اختيار كورفو (CORFOU) وهي أحدى الجزر الايونية في بلاد اليونان مكانا امينا لالتجاء الأسطول الفرنسي

---

(1) DOUIN LA FLOTTE

اليه • ومن المحتمل ان يكون بونابرت هو الذي أشار الى كورفو لما لهذه الجزيرة من أهمية كمركز استراتيجي ولانها لا تبعد كثيرا عن مصر وقريبة في الوقت نفسه من فرنسا ومن حكومة المديرين التي تستطيع في هذه الحالة من أرسال أوامرها الى نابليون عن طريق (ANCONE) وهي مرفأ في ايطاليا يقع على بحر الادرياتيك فتحمل هذه الاوامر الى مصر قطع الاسطول الموجودة في كورفو ويظهر أن الذي حمل بونابرت على اقتراح (CORFOU) كان تهدئة روع أعضاء حكومة المديرين وعلى الخصوص LAREVELLIERE LEPEAUX) والحصول على موافقتهم لانه كان من غير المعقول بتاتا أن تعرض فرنسا زهرة شبابها وصفوة علمائها والبقية الباقية من أسطولها الى أشد المخاطر من غير اتخاذ الحيطة الكاملة وقد كانت المحافظة على سرية الحملة من جهة ثم الاتفاق على مكان أمين لالتجاء الاسطول اليه بعد الفراغ من مهمته من جهة أخرى من وسائل هذه الحيطة •

الا أن بونابرت منذ وصول الحملة الى الشواطىء المصرية لم يكن فقط قد ترك ظاهريا مسألة ذهاب الاسطول الى كورفو بل ويريد نهائيا استبقاءه في المياه المصرية لان بونابرت كان بحاجة الى الاسطول الذي كان يحمل مقدارا من المدفعية والمعدات التي لم تنزل الى البر • كما أن ابتعاد الاسطول عن الشواطىء المصرية يجعل الاتصال بين الجيش والاسطول عسيرا لوجود الاسطول الانكليزي في البحر الابيض • أضف الى ذلك أن بونابرت لم يكن قد سيطر بعد على الموقف تماما في مصر فاذا حلت

الهزيمة بالجيش أو حالت صعوبات غير منتظرة دون تقدمه واضطر الى الارتداد الى الشاطىء فماذا يفعل اذا لم يجد الاسطول ؟ كما أن بقاء الاسطول علـــى الساحل المصري حماية لمدينتي الاسكندرية ورشيـد الخاليتين من أية تحصينات ولا تستطيعان الدفـــاع ضد الغزو الاجنبي وضد الأسطول الانكليزي وزيـــادة على ذلك فقد كانت هنا كرغبة نابليون نفسه فـي العودة سريعا الى فرنسا ذلك انه عندما تقرر ارسال الحملة الى مصر لم يكن معنى ذلك اهمال الحملـــة الكبيرة ضد انكلترا والتي كان بونابرت يمني النفس باستلام قيادتها •

لجميع هذه الاسباب بقي الاسطول الفرنسي في المياه المصرية الا ان بونابرت كان قد أمر الامـــيرال (BRUEYS) عند مغادرته الاسكندريـــة بوجـوب ادخال السفن ميناء الأسكندرية •

وبتاريخ ٢ آب تلقى بونابرت خبرا مؤرخا في ٣٠ تموز مفاده أن العمارة الفرنسية لا تزال ترسو في مرفأ أبي قير فاغتاظ لهذا الخبر وأرسل مرافقـــه الكبتان (JULIEN) للاستفسار عن أسباب تأخر (BRUEYS) في تنفيذ أوامر القائد العام ووجوب ادخال السفـن الى ميناء الاسكندرية غير أن (JULIEN) قتلـــه الاعراب قبل وصوله الى الاسكندرية ونهبوا الحقيبـة التي كانت تحتوي علـى أوامـــر بونابـــرت بصدد الاسطول •

وبتاريخ ١٢ آب تسلم بونابرت نبأ الكارثة التي حلت بالاسطول فما كان من بونابرت الا ان استشاط غيظا قائلا :

« عندما وصلت الاسكندرية تمنيت لو أن الحظ يحفظ العمارة لمدة خمسة أيام فوافقت الاقدار على مدة شهر ولكن الاميرال (BRUEYS) لم يضع الاسطول بمأمن في ميناء الاسكندرية ولم يكن يستلزم هذا العمل أكثر من ست ساعات ٠ أن القدر الذي لا يقهر يلاحق بحريتنا وسيكون لهذه الكارثة نتائج حاسمة في القريب والبعيد » ٠

هذه هي أسباب الحملة الفرنسية التي وجهت بقيادة نابليون الى مصر وهذا هو قسم من وقائعها سنشرع بدرس آثار هذه الحملة في كافة الحقول مستهلين هذه الآثار بنتائج معركة أبي قير البحرية :

الفصل الرابع

آثار الحملة

١ ـ آثار معركة أبي قير البحرية ونتائجها بوجه عام •

لقد كانت نتائج هذه الهزيمة حاسمة اذ انها عطلت نهائيا مشروع ارسال الحملة المرتقبة الى الهند ثم قضت في النهاية على الحملة الفرنسية ذاتها في مصر ذلك أن قطع المواصلات بين مصر وفرنسا أدى الى التجاء الفرنسيين للاعتماد على موارد البلاد الداخلية اعتمادا كليا مما أدى الى نشوب الثورة في القاهرة وأثارة الاضطرابات في الاقاليم فانعدم بسبب ذلك وجود اي مجال للتعاون بين الفاتحين وأهل البلاد وفشلت سياسة نابليون الاسلامية وكان من نتائج هذه الهزيمة أن أقدم الباب العالي على الانضمام الى انكلترا وروسيا ضد فرنسا واشترك في الحملات التي أرسلت لطرد الفرنسيين من مصر واستمر النضال حتى اخلى الفرنسيون البلاد وكان معنى جلاء الفرنسيين اخفاق مشروعهم الاستعماري في الشرق وفي مصر ، ذاك المشروع الذي كان الهدف من تحقيقه هو التعويض عن الخسائر التي لحقت بفرنسا في مستعمراتها في

الانتيل وجزر الهند الغربية ٠

لقد تلاشت هذه الآمال في معركة أبـــي قير اذ قضت هذه المعركة على البحرية الفرنسية وضمنت لانكلترا السيادة على البحار وأحيت آمال الدول الملكية التي قهرتها فرنسا في ميادين القتال وانتهزت انكلترا فرصة انتصارها على ظهر البحار لتجتذب اليهـــا الدول الموتورة وانضمت روسيا الى تلك الدول وعقدت محالفة جديدة مؤلفة من انكلترا والنمسا وروسيـــا وتركيا ونابولي لمحاربة الجمهورية الفرنسية وتمكنـــت انكلترا من أن تحمل الباب العالي على اعلان الحـرب على فرنسا والانضمام الى روسيا عدوته التاريخيـــة وفتح البحر الابيض للبوارج والقوات الروسية ٠ كما قامت الثورة في مالطة ضد الفرنسيين وتحرج مركـــز فرنسا بسبب هذا التكتل الذي أقامته الدول الملكيـة ضدها (التحالف الثانـي) فكانت معركة أبي قير نذيرا بضياع فتوحاتها في القارة الاوروبية والبحر الابيض المتوسط (وسنرى تفصيل ذلك عند الكلام عن آثـــار حملة بونابرت على الصعيد الدبلوماسي والعسكري)٠ ولكم كان وقع هذه المعركة اليما في نفوس الجنـــود الفرنسيين لانهم أدركوا أن المواصلات قد انقطعـــت بينهم وبين فرنسا وكان وقع الكارثة أشد على جنـــود الاسكندرية والسواحل القريبة حيث شهدوا آثارهـا عن كثب : فالمستشفيات تغص بالجرحى والشاطـىء يحضن بقايا العمارة المحطمة والبوارج الانكليزيـــة تمخر عباب اليم فتلقي الرعب في القلوب ٠

أثرت كل هذه العوامل في روح الجنود المعنويـــة فغزا نفوسهم اليأس وكان من نتائج هذه الواقعة أن

ضعضعت هيبة فرنسا في جهات الاسكندرية وجوارها وشجعت أهاليها على الثورة ·

كما شدد الاسطول الانكليزي الحصار على الشواطىء المصرية فقطع المواصلات التي كانت مصدر ثروة الاسكندرية ونضب معين الجمارك فشعر أهل الاسكندرية بالحرج والضيق وزاد سخطهم على الاحتلال الفرنسي ·

في هذا الظرف الحرج المشحون بالأحداث جاء بونابرت بفكرة تأسيس المجمع العلمي المصري بعد أن وصلته انباء كارثة تحطيم العمارة الفرنسية في مرفأ أبي قير وقطعت كل صلة بينه وبين فرنسا وتركته وجيشه منعزلين في مصر ·

وفي الوقت الذي تلقى فيه الجند نبأ الكارثة بأنهيار في العزم قابله بونابرت بالجلد والعزيمة فأسس المجمع العلمي ليجد من خبرة اعضائه وكفاءتهم ما يجعله يكتفي بموارد البلاد (وسنأتي على ذكر هذا الاثر الخالد ـ المجمع العلمي ـ عند تكلمنا عن آثار حملة بونابرت على الصعيد العلمي والثقافي) وأخذ يقيم النظم في مصر كأنه باق فيها الى الابد وفي ذلك دليل واضح على قوة عزيمة بونابرت وعلو همته ونبوغه وعبقريته فكأن أبا الطيب المتنبي عناه بقوله :

وتعظم في عين الصغير صغارها
وتصغر في عين العظيم العظائم

ب ـ آثار الحملة على الصعيد الديني والاسلامي

لقد أراد بونابرت أن يجعل من الحملة أداة لنشر الحضارة في البلاد • كما اعتقد أنه من الممكن احياء قوة الاسلام بانشاء مركز اسلامي علمي في القاهرة حيث يوجد سوربون الازهر الى جانب المركز الاسلامي الديني الصرف في مكة •

لذلك فقد اختط بونابرت في سياسته الداخلية في مصر خطة كانت لحمتها وسداها احترام شعائر أهل البلاد وقد كانت كافة الأوامر والمنشورات التي أصدرها بونابرت لجنده ، ولاهل البلاد تتضمن احترامه العميق للاسلام • وكان يشترك في الاحتفالات الدينية كما حاول غرس بذور التفرقة بين المصريين والعثمانيين وشرع بمكاتبة الامراء المسلمين في البلدان المجاورة محاولا انشاء العلاقات معهم وأخيرا أسس الحكومة الوطنية وعمادها المشايخ والعلماء وأعيان البلاد لمعاونة الفرنسيين في الحكم •

١ ـ سياسة نابليون حيال الاسلام

لم يكن احترام نابليون للاسلام وليد الساعة وانما كان مبدأ من مبادىء السياسة التي ترسمها قبل وصوله الى مصر يدل على ذلك المنشور الذي أصدره من على ظهر البارجة (أوريان) الى جنده وأوضح فيه عظم الاثر الذي سوف يحدثه استيلاؤهم على مصر على حضارة وتجارة العالم اجمع • كما أبان لهم أن الشعوب التي سوف يعيشون بينها هي شعوب

اسلامية شهادتهم ٠ : ان لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وأوصاهم ان يظهروا الاحترام لمفتيهم وأئمتهم وجوامعهم والتسامح حيال الاعياد والاحتفالات الدينية ٠ ثم أصدر منشورا اخر الى كافة أهالي مصر استهله بالعبارة التالية : بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله ولا ولد له ولا شريك له في ملكه ٠ ثم استطرد مخاطبا المصريين قائلا : يا أيها المصريون قد قيل لكم بأني ما نزلت بهذا الظرف الا بقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين انني ما قدمت اليكم الا لاخلص حقكم من يد الظالمين ٠ وأنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم ٠ ثم طلب بونابرت في هذا المنشور بأن تكون الصلاة قائمة في الجوامع على العادة وأن يظل القضاة والمشايخ والعلماء والائمة في وظائفهم ٠

٢ ـ محاولات بونابرت في التفريق بين المصريين وتركيا ٠

كما لجأ بونابرت لتدعيم أركان سياسته الاسلامية الى وسيلة جديدة وهي تلخص في التفرقة بقدر المستطاع بين المصريين والعثمانيين ثم محاولته احياء آمال المصريين في امكان اكساب الاسلام قوة جديدة والنهوض بالقاهرة الى مصف المراكز الدينية الرئيسة في الاسلام حتى تتخذ الى جانب مكة المكرمة محلا لائقا للزعامة في العالم الاسلامي ٠

وعندما ساءت علاقات بونابرت مع الباب العالي حاول بذر بذور التفرقة بين المصريين والاتراك وقد تنوعت الوسائل والحجج التي حاول بونابرت فيها

اظهار السلطان العثماني بمظهر غير المهتم بالمصلحة الدينية الاسلامية موضحا ان السلطان كان حليفا لفرنسا في وقت كانت فيه هذه الدولة الامة المسيحية العريقة ثم نبذ صداقتها عندما أصبحت اكثر عطفا على المسلمين وأقرب ميلا لتفهم العقيدة الاسلامية ·

ومنها محالفة الباب العالي للروس الذين يعتقدون بوجود الهة ثلاثة بينما يعتقد الفرنسيون بوجود اله واحد ·

وقد حاول بونابرت احياء آمال المسلمين في نصرة العقيدة الاسلامية في عهد الحكم الفرنسي في مصر وذلك بتحسين علاقاته مع المصريين انفسهم أو مع الامراء وحكام البلدان الاسلامية المجاورة كما يتضح من خطاب بونابرت الى المواطن (BEAUVOISIN) المندوب الفرنسي لد ىديوان القاهرة عندما طلب أليه التوجه الى يافا لمقابلة أحمد باشا الجزار صاحب عكا واقناعه بأن بونابرت لا يبغي الاستيلاء على بيت المقدس وتحطيم الدين المحمدي الحنيف ولا استرقاق المسلمين وأنما يريد خلاصهم ·

٣ ـ مراسلات بونابرت للامراء المسلمين

وتظهر رغبة نابليون في انشاء الصلات مع الامراء المسلمين في الاقطار المجاورة في مراسلاته لحاكم درنه وحاكم طرابلس ثم الى سلطان مكة وأمام مسقط وكان يرجو من هذا الاخير أن يساعده في توصيل الاخبار الى تبو صاحب في الهند كما أرسل بعدئذ رسالة الى هذا الامير يطلعه على عزمه على تحقيق طرد الانكليز من

الهند • كما كتب بونابرت الى شريف مكة رسالة في ٣٠ تموز عام ١٧٩٩ لتوطيد العلاقات التجارية بين مصر وبلاد العرب والهند •

ج ـ آثار حملة بونابرت على الصعيد المحلي في نفوس المصريين •

ثورة القاهرة ـ اسبابها ونتائجها ـ

ذهبت كافة المحاولات التي قام بها بونابرت في استمالة المصريين الى جانبه أدراج الرياح وظل المصريون على اعتقادهم الراسخ بأن الفرنسيين انما هم اعداء الدين الاسلامي • والى جانب هذا العداء الديني الذي كان من العوامل الرئيسية في تحرك الاضطرابات والثورات هناك أسباب أخرى مهدت الى اندلاع لهيب الثورة في القاهرة ذكرها نقولا التركي أحد المعاصرين نلخصها ادناه :

١ ـ انخداع المصريين بأقوال الفرنسيين الذين زعموا انهم حضروا الى مصر بارادة السلطان سليم ثم وقوفهم على عدم صحة هذا النبأ •

٢ ـ ورود رسائل من الامراء المصريين وكتابات من أحمد باشا الجزار تحث المصريين على الثورة •

٣ـ عدم تقيد الفرنسيين بقواعد الادب والاعراف المحلية حيال النساء المسلمات •

٤ ـ شرب الخمر وبيعه الى الجنود •

ـ هدم الجوامع والمنارات لتوسيع الطرقات •

الا أن السبب المباشر والرئيسي لم يذكره نقولا التركي وهذا السبب هو اقتصادي ويقول الجبرتي في ذلك « أن تذمر المصريين من ترتيبات الفرنسيين الاقتصادية وتنظيماتهم المالية كان هو المحرك الاول لقيام الثورة » ·

ذلك أن بونابرت منذ ان وطآت قدماه أرض مصر بدأ كأنه يريد الاعتماد على موارد البلاد في تموين وسد نفقات الحملة ثم تضاعف هذا الاعتماد خصوصا بعد هزيمة ابي قير البحرية · وكان نابليون بونابرت منذ سقوط الاسكندرية حتى اندلاع الثورة في القاهرة شديد الاهتمام بضرورة تحصيل الاموال فكان يلجأ الى فرض الغرامات على المدن تارة والى مصادرة أملاك المماليك طورا · وفي ١٦ أيلول صدر أمر بانشاء مكتب للتسجيل « في كل مديرية لتسجيل مستندات التمليك على أن يحصل عليها رسوم بنسبة قيمتها وقد جاء في هذا الامر ان كافة الممتلكات التي لا تسجل لا يعترف بها ، وقد اعطى هذا الامر مهلة شهر واحد للتسجيل في مدينة القاهرة وشهرين في كافة مديريات القطر · فاذا لم تسجل الاملاك تصبح من نصيب الجمهورية الفرنسية ·

وصدر أمر اخر بذات التاريخ بالزام كل فرد من أصحاب المهنة أو الاعمال ايا كان نوعها أن يكون لديه ترخيص يجيز له القيام بعمله يطلبه من ادارة التسجيلات وعليه ان يجدد هذا الترخيص سنويا ثم فرضت ضريبة على المباني والحمامات ومعاصر الزيت وطواحين الغلال والبيوت والغرف كما قسمت

المباني الى أربع درجات تتراوح الضريبة عليها بين ١٨ ريالا ونصف ريال ·

ولما كان الغرض الاول لسياسة بونابرت المالية هو الحصول على المال بكل وسيلة فمن المنتظر أن يشتد تذمر المصريين من هذه الخطة وأن يتنادوا للثورة على أنظمة الفاتح الجديد ·

وسرعان ما تألفت في الازهر « لجنة المتآمرين » جمعت حولها الغاضبين من الحكم الفرنسي والكارهين له وقد اشترك في التحريض على الثورة الائمة والموذنون وغيرهم من رؤساء الدين حتى انفجر بركانها ولكنه أخمدها بعد ثلاثة أيام وقدرت خسائر الثائرين بألفين وخمسمائة ضحية بينما لم تتعد خسائر الفرنسيين الخمسين رجلا ·

وكان من نتائج هذه الثورة أن قلبت سياسة الفرنسيين رأسا على عقب تلك السياسة القائمة على التودد الى الاهالي ومجاملتهم فسلك بونابرت منذ ذلك الحين سياسة الشدة والصرامة مع المصريين وشدد في عقاب المحرضين على الثورة كما أمر بمعاقبة عدد من المشايخ الذين اشتركوا فيها بالاعدام ومصادرة ممتلكاتهم ثم عطل الديوان مدة شهرين حيث اضطر الى اعادته عندما قرر الخروج بحملته الى سوريا ·

وهكذا يكون قد انعدم اي رجاء في الحقيقة بسبب هذه الثورات والاضطرابات في أمكان التعاون بين الفرنسيين والمصريين ·

كما شغل بونابرت في الشهور التالية بالاعمال العسكرية عندما نشب الصراع العنيف بين فرنسا

وبين بونابرت في مصر من جانب وبين أعضاء المحالفة الدولية الثانية الاوروبية من جانب آخر وكان تأليف هذه المحالفة التي انضمت اليها تركيا بعد ترددها الطويل من آثار هزيمة الاسطول الفرنسي تلك الهزيمة الحاسمة في موقعة أبي قير البحرية •

د ـ آثار حملة بونابرت على الصعيد التنظيمي والاداري •

١ ـ نظام الحكم الداخلي في مصر

كان النظام الذي شاء بونابرت أن يضعه لحكومة البلاد الداخلية يقوم على اساس انشاء الديوان في القاهرة والدواوين في المديريات تتألف من المشايخ والعلماءواعيان البلاد • وكان الغرض الذي يهدف اليه بونابرت هو أستتباب الامن والنظام في الديار المصرية واستمالة الرؤساء الدينيين وضمان انحيازهم له ليستطيع بواسطتهم بما لهم من نفوذ على الجماهير الوصول الى اقناع المصريين بالرضى بالحكم الفرنسي من جهة والوقوف على آراء ومطالب الشعب المصري من جهة ثانية وذلك لكي يتمكن من انجاز المشروعات التي يرى الفرنسيون من الضروري تنفيذها دون أن يصطدموا مع الاهالي • وقد كان بونابرت يرى أن اشراك الشيوخ والعلماء في الحكومة الداخلية اشراكا محدودا تحت اشراف الفرنسيين ومراقبتهم يكفل ضمان التفاهم مع المصريين وتوطيد السيطرة الفرنسية في مصر•ثم دعا بونابرت الى انشاء ديوان عام في القاهرة غايته محاولة تعويد أعيان مصر على فكرة عقد

المجالس والقيام بأعباء الحكومة ومعرفة ما ينبغي اتخاذه من تدابير لسعادة الشعب ٠

أما غاية انشاء دواوين الاقاليم في معرفة الانظمة التي ينبغي اجراؤها في القضايا المدنية والجنائية ثم بحث الوسائل الكفيلة بتأييد حقوق الوراثة وحقوق الملكية وما ينبغي اتباعه في فرض وتحصيل الضرائب٠

ولم يلبث بونابرت ان استخدم الديوان والعلماء في اصدار المنشورات لتسكين خواطر الاهالي وحضهم على التزام الهدوء والسكينة ٠ ومن الامثلة على ذلك النصيحة التي اذاعها علماء مصر على المواطنين لاجتناب الفتن حيث جاء فيها :

« ننصحكم أيها المصريين الا تحركوا الفتن ولا الشرور بين البرية ولا تعارضوا العساكر الفرنساوية بشيء من أنواع الاذية فقد قال النبي عليه افضل الصلاة والسلام » :

« الفتنة نائمة لعن الله من ايقظها بين الامم » ٠

٢ ـ ديوان القاهرة (١)

١ ـ انشاء الديوان :

صدر بتاريخ ٢٥ تموز عام ١٧٩٨ من معسكر

---

(١) تاريخ الحركة القومية وتطور نظم الحكم في مصر — لعبد الرحمن الرافعي : الفصل الثالث ٠

القاهرة الامر التالي :

بونابرت عضو المجمع العلمي الاهلي والقائد العام للجيش يأمر بما يأتي :

ـ أولا : تحكم مدينة القاهرة بديوان مؤلف من تسعة اعضاء .

ـ ثانيا : يتألف هذا الديوان من المشايخ : السادات ـ الشرقاوي ـ الصاوي ـ البكري ـ الفيومي ـ العريشي ـ موسى الرسي ـ والسيد عمر نقيب الاشراف ـ ومحمد الامير وعليهم أن ينتخبوا من بينهم رئيسا وأن يختاروا سكرتيرا من غير الاعضاء ويعينوا أثنين من الكتبة والتراجمة يعرفان الفرنسية والعربية. وعلى الديوان أن ينتخب لجنة مؤلفة من ثلاثة لمراقبة الاسواق وتموين المدينة ولجنة من ثلاثة آخرين يكلفون بمهمة دفن الموتى بالقاهرة وضواحيها .

ثالثا : يجتمع الديوان ظهر كل يوم ويبقى ثلاثة أعضاء على الدوام بدار المجلس .

رابعا : يقام على الديوان حرس فرنسي وآخر تركـي .

خامسا : على الجنرال (BERTHIER) اجراء ما يلزم لاعضاء الديوان ولكي يأخذ عليهم عهدا الا يعملوا شيئا ضد مصلحة الجيش .

ب ـ اختصاص الديوان

لئن غدت السلطة المدنية للحكومة من اختصاص

الديوان فلم يكن لهذا الاخير ـ سلطة قطعية في أي أمر من الامور بل كان المرجع الاعلى للسلطة العسكرية ٠

كما كان للديوان صوت مسموع في تعيين كبار الموظفين كمحافظ المدينة ورئيس الشرطة وقد احتفظ الفرنسيون بتعيين بعض كبار الموظفين دون استشارة الديوان : كمدير الشؤون المالية للحكومة ومدير الجمارك ومدير البريد ٠

وقد عين بونابرت الجنرال (BEAU VOISINS) قوميسيرا لدى الديوان وعهد اليه حضور جلساته على الدوام وأن يرفع اليه عقب كل جلسة كل ما يدور فيها وكان بونابرت حريصا على تتبع مداولات الديوان حتى في اثناء غيابه عن القاهرة ٠

ولا يخفى بأن مهمة القوميسيير هي التجسس على الاعضاء يؤيد ذلك تعيين بونابرت للفرنسي (TALLIEN) عوضا عن (BEAU VOISINS) الذي أوفد بمهمة الى الجزار لحضور جميع جلسات الديوان والسعي لمعرفة اخلاق اعضائه واطلاعه على الشكاوى التي ترفع الى الديوان والمسائل التي تبحث فيه ٠

فيتبين مما ذكر أن سلطة الديوان لم تكن تتعدى مدينة القاهرة وأن هذه السلطة كانت استشارية ومقيدة بتعهد الاعضاء الا يأتوا بعمل ضد مصلحة الجيش ٠

٣ ـ دواوين الاقاليم

وفي ٢٧ تموز اصدر بونابرت امرا بتأليف ديوان من سبعة أعضاء في كل مديرية من مديريات القطر

المصري مهمته السهر على مصالح المديرية والنظـــر بالشكاوى التي تصل اليه ومنع اعتداء القرى بعضها على بعض ومراقبـــة الاشخاصـــ السيئي السيرة ومعاقبتهم والاستعانة على ذلك بالقوات التي تحـت أمر القواد الفرنسيين • كما عين في كل مديرية قـــوة مسلحة قوامها ستون رجلا للمحافظة على النظام والامن والسكينة • وقد عين مباشر لجباية اموال المـــيري والضرائب وايراد املاك المماليك التي أصبحت ملكـــا للجمهورية كما عين بجانب هذا المباشر وكيل فرنسي للاتصال مع مدير المالية ومراقبة تنفيذ الاوامر •

٤ ـ الديوان العام

هو عبارة عن جمعية تمثل اعيـــان العاصمـة والاقاليم الفها بونابرت ليستنير بآرائها ويستشيرها في النظام النهائي للدواوين التي أسسها وفي ادارة الحكومة ووضع نظامها الاداري والمالي • وقد توخـــى بونابرت اختيار هؤلاء الاعيان من الاشخاص الذين لهم نفوذ بين الاهالي ومن الذين تميزوا بمركزهـــم العلمي وكفايتهم وطريقة استقبالهم للفرنسيين •

وقد اصدر بونابرت أمره الى العالميـــن مونـــج (MONGE) و (BERTHOLET) عضوي المجمع العلمي بالاشتراك في جلسات الديوان العام بصفة قومسييرين لحضور المناقشات وعرض مشروعات الحكومة علـــى الاعضاء وقد تلقى هذان العالمان من بونابرت رسالة ضمنها الغرض من عقد الديوان العام جاء فيها :

أن الغرض من عقد الديوان العام هو تعويد الاعيان المصريين نظم المجالس الشورية والحكم فقولوا لهم أني دعوتهم لاستشارتهم وتلقي آرائهم فيما يعود على الشعب بالسعادة والرفاهية ٠

ـ أطلبوا من الديوان العام أن يبدي رأيه في المسائل الآتية :

أولا : ما هو أصلح نظام لتأليف مجالس الديوان في المديريات وما هو المرتب الذي يجب تحديده للاعضاء ٠
ثانيا : ما هو التشريع الذي يكفل ضبط المواريث وأنواع الشكاوى والاجحاف الموجود في النظام الحالي ٠
ثالثا : ما هو النظام الذي يجب وضعه للقضاء المدني والجنائي ٠

رابعا : ما هي الاصلاحات والاقتراحات التي يراها الديوان لاثبات ملكية العقارات وفرض الضرائب ٠

عقد الديوان العام أول اجتماع في أوائل شهر تشرين الاول عام ١٧٩٨ حضره العالمان الفرنسيان مونج وبرتوليه مندوبين من قبل بونابرت لافتتاح الديوان والاتصال بالاعضاء وعرض أفكار الحكومة عليهم ومشروعاتهم لاخذ رأيهم فيها ٠

ولما استقر بالاعضاء المقام ناول كبير المندوبين (مونج) الترجمان خطبة الافتتاح وتليت مترجمة الى اللغة العربية نورد خلاصتها لما لها من فائدة تاريخية ولما أحدثه وقعها من أثر في نفوس المصريين وقد جاء

فيهـــا :

« أن مصر بلاد لا نظير لها وأن العلوم والصنائع والقراءة والكتابة التي يعرفها الناس في الدنيا أخذت عن أجداد أهل مصر الاول ولكون قطر مصـــر بهـــذه الصفات طمعت الامم في تملكه • فملكه أهـل بابـــل وملكه اليونان والعرب والترك الآن الا أن دولة التـــرك شددت في خرابه لانها اذا حصلت الثمرة قطعت عروقها ولذلك لم يبقوا بأيدي الناس الا القدر اليسير • ثم أن الفرنسيين بعدما تمرسوا بأمور الحروب اشتاقـــت أنفسهم لاستخلاص مصر مما هي فيه واراحة أهلهـا من تغلب هذه الدولة المفعمة جهلا وغباوة فقدمـــوا وحصل لهم النصر ومع ذلك لم يتعرضوا لاحد من الناس ولم يعاملوا الناس بالقسوة وأن غرضهم تنظيم أمور مصر واجراء خلجانها التي دثرت فيصير لها طريقان • طريق الى البحر الابيض وطريق الـى البحر الاحمـــر فيزداد خصبها وريها ومنع القوي من ظلم الضعيـــف استجلابا لخواطر أهلها والبقاء للذكر الحسن فالمناسب من أهلها ترك الشغب واخلاص المودة • أن المتأمل في نص هذه الرسالة يرى نابليون يشيد بعظمة مصـــر القديمة ومركزها الممتاز في العالم ويعترف بأنها كانت معلمة الامم وحاملة لواء الحضارة والمعرفة وجميـل أن يصدر هذا الاعتراف من قائد دانت له الممالك وخضعت له الرقاب •

على أن هذه اللهجة من شأنها أن تبعث في نفوس سامعيها من أعضاء الديوان روح العـــزة القوميـــة فتصرفهم عن الاذعان لحكم الفرنسيين وغيرهم وتحدو بهم الى التطلع لاحياء مصر القديمة والواقع أن مصر

لم تذعن للحملة الفرنسية وثورة القاهرة في وجه الفرنسيين يوم الاحد في ٢١ تشرين الاول عام ١٧٩٨ شاهد عدل على عدم رضوخ المصريين للفاتح الجديد ·

ومما يلفت النظر أن نابليون في خطابه هذا قد خالف خطته القديمة في مجاملته الباب العالي والتظاهر بالمودة للسلطان العثماني فهو بهذه الرسالة يجاهر لاول مرة في خطاب رسمي علني بعدائه لتركيا ويعود السبب في ذلك الى أن هذه الاخيرة اتحدت مع انكلترا وروسيا لمحاربة فرنسا واخراج جنودها من مصر · فقد أعلن الباب العالي الحرب على فرنسا في أيلول عام ١٧٩٨ ولذا لم ير بونابرت بدا من أن يجاهر بعدائه للاتراك وينعتهم بالظلم والجهل والغباوة ليصرف المصريين عن التعلق بهم · على ان المصريين كانوا يرون أن الدولة التركية تعمل بمساعدة حلفائها على أجلاء الفرنسيين من مصر وستترك البلاد لاهلها بعد جلاء الفرنسيين عنها وقد حققت الاحداث صحة ما ترقبه المصريون لان محمد علي لم يحقق استقلال مصر الا بعد طرد الفرنسيين والانجليز من البلاد ·

وعودة سريعة الى نظام الديوان العام والقاء نظرة خاطفة عليه تطلعنا :

١ = أن رئاسة هذا الديوان كانت تحصل بالاقتراع السري كما يحصل في المجالس النيابية ·

٢ = لم تكن للديوان سلطة قطعية في الأمور التي تفرض عليه بل كان الغرض من انعقاده استشارته والوقوف على آراء أعضائه ·

هذا وقد كانت المسائل التي تعرض على الديوان تدرس في الوقت نفسه من قبل لجنة ألفها بونابرت برئاسته وبعضوية مدير مهمات الجيش المدعو (SUCY) ومدير الشؤون المالية بوسيلنغ وكبير المباشرين وهو المعلم جرجس الجوهري الذي كان كبير المباشرين في عهد المماليك فأبقاه بونابرت في مركزه كما أمر بونابرت بأن تنعقد هذه اللجنة يوميا وتعطى القرارات النهائية بما يتداول فيه الديوان ·

فقرارات الديوان كانت اذن أشبه برغبات تعرض على اللجنة ولهذه الاخيرة القول الفصل ·

٣ = أما بشأن تأليف الديوان العام فقد قرر بونابرت أن يكون هذا الديوان مؤلفا من ٢٥ عضوا منهم تسعة من القاهرة وواحد عن كل مديرية من المديريات الست عشرة التي كان يتألف منها القطر المصري ·

٤ = أما النظام القضائي المدني والجنائي فقد رأى الديوان أن يبقى نظام القضاء على ما كان عليه لكنه طلب أن تحدد رسوم التقاضي التي تدفع للقضاة وموظفي المحاكم كما طلب أن يكون تعيين القضاة في كل مديرية من حقوق « الديوين » المؤلفة بها ·

٥ = لقد طال الجدال في مسألة التشريع الخاص بالمواريث بين أعضاء الديوان الذين طالبوا بتقسيم المواريث بحسب القواعد الشرعية الواردة في آيات المواريث وبين المندوبين الفرنسيين اللذين تقدما بآراء معاكسة بهذا الموضوع فرجحت في النهاية فكرة اعضاء

الديوان بعد تقديمهم المراجع من الآيات الكريمة فوافق بونابرت على نظام التوريث الشرعي وقرر تقسيم المواريث طبقا لاحكام الشريعة الغراء ٠

٦ = اما بشأن تسجيل عقود الملكية والضرائب العقارية فقد وضع بونابرت نظاما جديدا لاثبات الملكية على قاعدة تسجيل مستندات التمليك في مقابل رسوم تدفع للتسجيل وقد مهد لهذا النظام بأنشاء محاكم تسمى (المحاكم التجارية) وقد انشئت هذه المحاكم في كل من القاهرة والاسكندرية ودمياط ورشيد بناء على أمر صدر عن بونابرت في ١٠ أيلول سنة ١٧٩٨ وتختص هذه المحاكم بالفصل في المنازعات التجارية والمدنية ويختار اعضاؤها من التجار على اختلاف جنسياتهم يعينهم القائد العام لمدة ثلاث سنوات ٠

وفي ١٦ أيلول سنة ١٧٩٨ أصدر بونابرت أمرا بانشاء ادارة لتسجيل مستندات التمليك وقد سميت هذه الادارة (مصلحة التسجيلات وادارة أملاك الحكومة) وأمر بأن يقدم جميع ملاك العقارات حجج تمليكهم القديمة والجديدة لتسجيلها في مقابل رسوم ٢ في المائة من قيمة العقارات يدفعها الملاك أجمعون ٠

أما نص الامر فهو التالي :

« ينشأ في عاصمة كل مديرية مكتب لتسجيل جميع سندات التمليك والعقود ويدفع عن التسجيل رسم نسبي طبقا للائحة الرسوم ٠ وقد قدر هذا الرسم في اللائحة باثنين في المائة عن معظم المعاملات ولا يعترف بالملكية الا للعقود والسندات المسجلة واذا لم تسجل تصادر الملكية لجانب الجمهورية وعلى جميع

الملاك أن يسجلوا سندات ملكيتهم في مدى ثلاثين يوما من تاريخ نشر الامر واذا لم يتم التسجيل في هذه المدة يدفع الملاك ضعف الرسم المقرر للتسجيل واذا انقضى شهر اخر ولم يقع التسجيل تصادر الملكية لجانب الجمهورية الفرنسية ومن الآن فصاعدا يجب تسجيل عقود البيع والبدل والتنازل في مدى عشرة أيام من تحرير العقد والا يعتبر باطلا • وكذلك يجب تسجيل الوصايا في مدة ثلاثة اشهر على الاكثر من وفاة الموصي

ولما كان بونابرت يبغي من وضع هذا النظام ابتكار وسيلة جديدة لجمع المال من الاهالي ضج الاهالي من هذه الرسوم لانها كانت أشبه بضريبة جديدة لم يكونوا يدفعونها من قبل •

كما فرض بونابرت ضرائب سنوية على جميع أصحاب الحرف والصنائع فسخط الصناع وأصحاب الحرف من هذه الغرامات •

وقد وضعت ضرائب على المباني وقسمت هذه الاخيرة الى أنواع لكل نوع ضريبة تقدر بحسب درجاته ووفقا لبيان اعد لهذا الغرض فقد قسمت المباني الى أربع درجات وتقرر بأن تدفع الضريبة في السنة على قسطين •

لقد كان تقرير هذه الضرائب الفادحة من أهم الاسباب التي نفرت المصريين من حكم الفرنسيين • أما الديوان العام فقد انفض في ٢٠ تشرين أول سنة ١٧٩٨ دون أن يستطيع تخفيف فداحة الضرائب التي استخدمها الفرنسيون ولم يكد ينفض حتى شبت

نار الثورة في القاهرة ٠

وقد وقفنا على أسبابها ونتائجها فلا ضرورة للعودة اليها ولكن ينبغي تتبع مصير الديوان بعد هذه الثورة حيث تظهر حنكة بونابرت ومثابرته على متابعة العمل في الحقل التنظيمي ٠

٥ = اعادة الديوان (١)

بعد اخماد ثورة القاهرة لم يشأ بونابرت ان يخبط في معاقبة السكان خبط عشواء بل صب جام غضبه على المحرضين على العصيان والثورة فاكتسب بعمله هذا قلوب العدد الكبير من السكان الذين أظهروا ندامة بانقيادهم وانصياعهم للمحرضين من عمال المماليك والانكليز ٠ وكذلك لم يشأ بونابرت عندما رأى الهدوء يسود احياء القاهرة أن يحرم طويلا هذه المدينة ومصر كافة من المجلس التمثيلي الذي يمكنه من مناقشة المصالح الوطنية مع ابقاء الشعب مرتبطا بالسيطرة الفرنسية ٠

لهذا لم يمض شهران على حل مجلس الديوان حتى أمر بونابرت بتشكيل مجلس جديد يتألف من كبار المشايخ في القاهرة كما في باقي الاقاليم بحيث يكون عدده ستين عضوا على ان ينتقى من بين هؤلاء مجلس أو ديوان دائم يكلف بالادارة والعدل ومصالح السكان المصريين وقد الحق بهذا الديوان مندوب

(١) BONAPARTE EN EGYPTE D. LA CROIX P. 210 - 214.

فرنسي يكون له صوت استشاري وليطلع بنفس الوقت بونابرت على أعمال هذا الديوان كما عهد الى هذا المندوب صلاحية اخذ التدابير اللازمة بما يتعلق بمصالح الجيش ولئن حاول بونابرت استمالة قلوب الشعب المصري بما اتخذه من اجراءات وابتدعه من أساليب فلم يسه عن باله بذات الوقت أن يتخذ التدابير اللازمة لتجنب ثورة ثانية باقامة القلاع والتحصينات وعهد بذلك الى الجنرال (CAFFERELLI) الذي باشر باقامة التحصينات حوالي المدينة وداخلها ليكون بوسعه التحكم بالاحياء التي كانت بالامس بؤرة للعصيان والثورة وقد أعطيت هذه القلاع والحصون والانشاآت اسماء بعض القادة الذين صرعوا في ساعات القتال •

٦ = آثار الديوان

لقد كان تأسيس الديوان نواة لنظام شورى لم تكن تعرفه مصر من قبل وقد حصل في عصر (أواخر القرن الثامن عشر) كان الحكم فيه مطلقا يقوم على الظلم والاستبداد وأهواء الحكام في الشرق وفي أغلب الدول الاوروبية • فكان النظام الذي انشأه بونابرت في مصر اذن نظاما جديدا في الحكم •

وبعد أن كان العنصر المصري أثناء حكم المماليك بعيدا عن كل نفوذ فقد أصبح له صوت في حكومة البلاد

وبالرغم من أن نظام الديوان جعل السلطة العليا للفرنسيين فقد أشرك العنصر الاهلي في ادارة الحكومة حصل ذلك دون شك بتأثير الافكار والمبادىء الجديدة التي أوحت الثورة الفرنسية وقد كان بونابرت نفسه

وليد هذه الثورة التي كان علمها لا يزال يخفق فـــوق جيوش الجمهورية الفرنسية •

ويرى المتتبع للمنشورات والبيانات التي اعلنها بونابرت عند حضوره الى مصر وصاغها بلهجة التودد أنها تشبه تلك الاعلانات التي أطلقها قادة جيوشـــس الثورة الفرنسية في البلدان التي احتلوهـــا كبلجكـــا وايطاليا زاعمين انهم أقدموا على الاستيلاء على هذه البلدان في سبيل نصرة مبادىء الحرية وتحطيم أغلال الاستعباد •

ولئن كان بونابرت قـــد استثار الروح القوميـــة المصرية في منشوراته فقد أثارها في الوقت نفســـه باعتدائه وتصرفاته فحملت المصريين على مقاومتـــه واعلان الثورة عليه •

ومما لا شك فيه أن الحملة الفرنسية قد هـــزت أعصاب الامة المصرية فاستيقظت من سباتها وأزاحت عن أبصارها غشاء الجهل •

لقد كان بونابرت على يقين بأنه لا يستطيـــع انشاء دولة عربية على ضفاف النيل تخضع لحكمـــه الا اذا استمال قلوب المصريين ولذا فقد جاءت بياناته تنضح بروح التودد الا أن أهالي مصر لم يذعنوا للحكم الفرنسي ولم يطمئنوا اليه ولم تغرهـــم عبـــارات بونابرت المعسولة •

ـ مساهمة السكان المصريين في أعمال حفظ الامن (١)

نظمت مفارز من الأهلين لمد يد المساعدة الى رجال الشرطة وذلك بغية مراقبة المقاهي والتجمعات والساحات العامة والاسواق وفقا لعادات المناطق • وقد ألفت ثلاث سرايا يونانية قوام كل منها مئة رجل كلفت خصيصا بمرافقة وسائل الاسعاف •

وقد ساد الرضاء القاهرة فترة من الزمن فعمد الاوروبيون الى فتح الحوانيت والمقاهي التي كان من شأنها أن تخفف عن الجيش الفرنسي بعض الشيء آلام الهجرة والحنين الى الوطن • كما استخدم أحد قصور المماليك لشتى أنواع الترويح عن النفس فانشىء فيه صالات للعب وللبليار (billiard) وقاعات للمطالعة وجوقة للموسيقيين (orchestres) وللرقص ومقهى ومطعم وألعاب نارية بحيث لم تقل شأنا عما يعهده الفرنسيون في باريس •

ـ نشاط الفرنسيين في الحقل التجاري (٢)

ولقد قرر التجار الاوروبيون الذين كانوا آنذاك في القاهرة أن ينشئوا شركة تجارية مساهمة برأسمال قيمته ثلاثمائة ألف فرنك وثمن السهم ثلاثة آلاف فرنك حيث نالت موافقة بونابرت بعد أن أعلن رغبته بأن

---

(١) BONAPARTE en EGYPTE P. 214

(٢) BONAPARTE en EGYPTE P. 215

يستفيد صندوق الجيش منها بعشرة أسهم ·

ـ اثار حملة بونابرت على الصعيد

العلمي والثقافي

أ ـ ومن اثار حملة بونابرت تأسيس المجمع العلمي

قال تيبرس (THIERS) في كتابه تاريخ الثورة الفرنسية : أن نوابغ فرنسا في الحروب والعلوم والفنون فد صحبوا نابليون في الحملة وجذبتهم اليها ثقتهم في قائدها الفتي العظيم وركبوا البحر دون أن يعرفوا الى أية جهة يقصدون ·

ذلك أن نابليون قد اصطحب معه طائفة من علماء فرنسا ونوابغها في الهندسة والطب والجغرافيا والفلك والادب والكيمياء والاقتصاد السياسي والآثار والمعادن وطبقات الارض والحيوان والنباتات وفن العمار وهندسة الري والقناطر والجسور والميكانيك وطائفة من رجال الفنون من المصورين والرسامين والموسيقيين والنقاشين فبلغ عددهم ١٤٦ عضوا ما بين عالم وأديب ومهندس تتألف منهم لجنة العلوم والفنون · وكان من بينهم جماعة من أقطاب العلوم ممن يشار اليهم بالبنان أمثال مونج (MONGE) العالم الرياضي وبرتوليه (BERTHOLLET) العالم الكيميائي وهما اللذان عهد اليهما نابليون اختيار أعضاء البعثة (١) ·

بقي أعضاء « بعثة العلوم والفنون » في

---

(١) تاريخ الحركة القومية في مصر ـ الجزء الاول ـ الفصل الثاني

الاسكندرية بلا عمل حتى انتهت العمليات الحربية ودخل نابليون القاهرة فاعتزم بعد موقعة الاهرام الانتفاع بمواهب اولئك العلماء والفنيين فاستدعاهم الى القاهرة وفكر في انشاء المجمع العلمي المصري على غرار المجمع العلمي الفرنسي الذي انشىء عام ١٧٩٥ وانتخب نابليون عضوا فيه عام ١٧٩٧ • وتحقيقا لهذا الغرض عهد نابليون بونابرت الى سبعة من أقطاب لجنة العلوم والفنون وقادة الجيش اختيار أعضائه وهؤلاء السبعة هم العلماء مونج وبرتوليه وجوفروا سان هيلير وكوستاز والطبيب ديجنت وكل من القائدين كافريللي واندريوسي فيكون بونابرت بهذا قد اسس بجانب « الديوان » مجلسا له صبغة علمية وله علاقة بادارة الحكومة وهو (المجمع العلمي المصري) (INSTITUT D'EGYPTE) ـ اصدر بونابرت أمره بانشاء هذا المجلس في ٢٢ آب سنة ١٧٩٨ وضمنه الغرض من انشائه وبيان اختصاصاته • ويتألف هذا الامر من ست وعشرين مادة تتلخص فيما يلي :

١ ـ الغرض من المجمع :

أن الغرض من تأسيس مجمع العلوم والفنون في مدينة القاهرة هو :

أولا : تقدم العلوم والمعارف في مصر

ثانيا : دراسة المسائل والأبحاث الطبيعية والصناعية والتاريخية الخاصة بمصر ونشر هذه الابحاث •

ثالثا : ابداء رأيه للحكومة في المسائل التي تستثيره فيها •

ب ـ اقسام المجمع :

يتألف المجمع من أربعة اقسام وكل قسم من اثني عشر عضوا وهذه الاقسام هي :

- ـ قسم الرياضيات
- ـ قسم الطبيعيات
- ـ قسم الاقتصاد السياسي
- ـ قسم الآداب والفنون

ج ـ انعقاد المجمع :

كان يجتمع مرتين في الشهر ويجوز لقادة الجيش الفرنسي وضباطه أن يحضروا جلساته ٠

د ـ أبحاث المجمع :

ينشر المجمع مجموع أبحاثه كل ثلاثة أشهر وتشمل هذه المجومعة مذكرات أعضائه وتقارير اللجان التي يؤلفها لدرس إلمسائل التي تعرضها عليه الحكومة ٠

هـ ـ مكتب المجمع :

ينتخب المجلس من بين أعضائه هيئة مكتب المجلس وتتألف من الرئيس ونائب ويعاد انتخابها كل ثلاثة أشهر وسكرتير دائم ومدير يعاد انتخابه كل سنة وأمين دائم لمكتب المجلس ومترجم عربي ويجوز أن يكون من الاعضاء ٠

و ـ جوائز المجمع :

يقرر المجلس اعطاء جائزتين،كل سنتين : الاولى لاهم بحث خاص بتقدم الحضارة والمدنية في مصر والثانية لاهم بحث خاص بتقدم الصناعة •

ز ـ لجنة توزيع الجوائز :

تتألف لتوزيع الجائزتين لجنة تنتخب بالاقتراع مؤلفة من خمسة أعضاء • يدرسون الابحاث المقدمة في الجلسة السابقة ويقررون البحث الذي يستحق الجائزة وتطبع الابحاث التي تفوز بالجائزة في مجموعة المجلس اما الاعضاء التي كانت تؤلف أقسام المجمع فهي الواردة أسماؤهم أدناه :

١ = قسم الرياضيات

مونج ، نابليون بونابرت ، فورييه ، كوستاز ، لوبيز ، جيرار ، كروا ، الجنرال اندريوسي ، مناي ، وماليس •

٢ = قسم الطبيعيات :

برتوليه ، دولوميو كونتي ، جوفروا سان هيلار ، ديكوتيل ، سافيني ، ديبوا ، ديجنت ، شامبي ، دليل •

٣ = قسم الاقتصاد السياسي :

الجنرال كافاريلي ، كلوتيه ، SUCY ، مدير مهمات الجيش (TALLIEN) تاليان (SULKOUSKI)

POUSSIELAGUE

٤ = قسم الاداب والفنون :

عضو المجمع العلمي PERSEVAL DEGRANDMAISON الفرنسي (VENTURE) نـــوري (NORY) دي ترتـــر (TERTRE) فيفان دي نـــون (VIVANT DENON) ريجل (RIGEL) ، (REDOUTE) وقد تغير بعض أعضاء المجمع العلمي وحل محلهم غيرهم نذكر من هذه التغييرات التي حصلت اثناء وجود بونابرت في مصر اثنتين •

١ = قسم الرياضيات :

عين المهندس (LANCRET) بدلا من (SAY) الذي قتل في الحملة على سوريا •

٢ = قسم الاقتصاد السياسي :

عين كورنساز (CORRANCEZ) بدلا من الجنرال (CAFFARELLI) الذي قتلَ في حصار عكا •

آثار المجمع العلمي

نستعرض فيما يلي أعمال أعضاء المجمع العلمي جماعة أو فرادى في المدة التي انقضت بين تأسيس المجمع ورحيل الفرنسيين •

كانت اولى جلسات المجمع العلمي يـــوم ٢٣ آب سنة ١٧٩٨ فاجتمع الاعضاء وانتخبوا العالم الرياضي « مونج » رئيسا للمجمع ونابليون بونابرت نائب الرئيس وفوريه سكرتيرا دائما وكوستـــاز نائب السكرتير وعرض بونابرت على المجمع في هذه الجلسة درس المسائل التالية :

أولا : ما هي الوسائل التي يمكن اتباعها لتدبير المواد اللازمة لوقود أفراد الجيش ؟

وقد أحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من برتوليه وكافاريللي ومونج وساي) ٠

ثانيا : هل يوجد وسيلة يمكن اتباعها في مصر لاستبدال حشيشة الدينار في مصنع البيرة ٠

أحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من برتوليه وكوستاز وديجينيت وجلوتيه ٠

ثالثا : ما هي الوسائل الناجعة لترشيح وتبريد ماء النيل ؟أحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من برتوليه وكوستاز ومونج وفانتور ٠

رابعا : ما هو الانفع للبلاد بحسب الحالة الراهنة في مصر طواحين الماء أم طواحين الهواء ٠

أحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من اندريوسي وكافاريللي وكوستاز وماليس وساي ٠

خامسا : هل في مصر مواد أولية لصنع البارود وما هي هذه المواد ؟

أحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من اندروسيه وبرتوليه وماليس ومونج وفانتور ٠

سادسا : ما هي حالة التشريع والقضاء المدني والجنائي في مصر وحالة التعليم وما هي الاصلاحات الممكن ادخالها على هذه النظم ويرغبها أهل البلاد ؟

أحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من كوستاز وسولكوسكي و SAY و TALLIEN كما عرضت فيما بعد على المجلس مسائل فنية أخرى لدراستها كدرس طرق زراعة القمح في مصر وزراعة العنب وتموين القلعة

بمياه النيل ، وحفر الآبار في الصحراء وانشاء وبحث هزات الابرة المغنطيسية في مصر .

كما بحث بونابرت في امكان جلب الاخشاب من الحبشة بطريق النيل لصناعة السفن في مصر وقد أنشأ أعضاء المجمع العلمي مكتبة تحوي انفس الكتب التي أحضروها من فرنسا وجمعوها من خزائن الكتب في القاهرة . وأخذوا يجوبون البلاد فأزاحوا الستار عن عظمة مصر القديمة ورسموا خرائط مفصلة للبلاد ونيلها وترعها وساحلها وبحثوا في طبائع الحيوانات والنباتات والمعادن ودرسوا مياه النيل وطميه وطبقات الارض .

الطباعة

أنشأ المجمع العلمي المصري بالقاهرة مطبعة عربية وفرنسية وهي التي أحضرها بونابرت الى مصر وقد جمع لها الاحرف الفرنسية والعربية واليونانية من باريس واستكمل لها الاحرف العربية من روما وعهد بادارتها الى المسيو مارسل المستشرق أحد اعضاء لجنة العلوم والفنون وعين المستشرق فنتور (VENTURE) مفتشا للمطبعة بحيث لا يطبع فيها شيء الا بأمره (١) .

وكانت هذه المطبعة تسمى في الاسكندرية (مطبعة جيش الشرق) وعندما نقلت الى القاهرة أمر بونابرت بتسميتها (المكتبة الاهلية) واثناء ثورة القاهرة نقلت

(١) تاريخ الحركة القومية — ج — ١ — الفصل الرابع .

الى الجيزة ثم الى القلعة الى أن جلا الفرنسيون عن مصر • وهي اول مطبعة أنشئت في مصر في العصر الحديث وقد أعادها الفرنسيون معهم عند جلائهم عن البلاد ولم تعد الطباعة الى مصر الا في عهد محمد علي الكبير •

وكانت منشورات بونابرت بالعربية تطبع في هذه المطبعة وجريدة الجوائب المصرية (LE COURRIER

DE L'EGYPTE) والعشرية المصرية (LA DECADE EGYPTIENNE) وكان للفرنسيين مطبعة أخرى خاصة حروفها افرنجية فقط لصاحبها (MARC AUREL) استعملت لطبع الاعداد الاولى من (LE COURRIER DE L'EGYPTE الى أن نقلت المطبعة الرسمية من الاسكندرية الى القاهرة •

الصحافة

أنشأ الفرنسيون في مصر جريدتين :

احداهما سياسية دعيت (الجوائب المصرية (LE COURRIER DE L'EGYPTE) وكانت تصدر بالفرنسية كل أربعة أيام في أربع صفحات طبع منها الثلاثون عددا الاولى في مطبعة مارك اوريل ثم طبع باقي ما ظهر منها في المطبعة الاهلية • ظهر أول عدد منها في ٢٩ آب عام ١٧٩٨ وآخر عدد رقم ١١٨ في حزيران عام ١٨٠١ قبيل جلاء الفرنسيين عن مصر •

تولى تحرير الاعداد الاولى من هذه الجريدة

كوستاز؛ أحد أعضاء المجمع العلمي ثم (FOURRIER) سكرتير المجمع ثم (DESGENETTES •) كبير أطباء الحملة وتعتبر هذه الجريدة الصحيفة شبه الرسمية للحملة الفرنسية •

أما الجريدة الثانية فهي (العشرية المصرية) LA DECADE EGYPTIENNE فهي جريدة علمية اقتصادية كانت تصدر مرة كل عشرة أيام وتنشر فيها أبحاث المجمع العلمي ومناقشات اعضائه • تولى ادارتها كبير أطباء الحملة (DESGENETTES) وكانت تطبع في المطبعة الاهلية وقد صدر اول عدد منها في تشرين الاول سنة ١٧٩٨ •

مكتبة المجمع العلمي

كان للمجمع العلمي مكتبة تحتوي على عدد كبير من الكتب وبأمكان من أراد المطالعة أن يحضر اليها ويطلب ما يريده من الكتب وكان يعمل في هذه المكتبة خازن ومباشرون • مهمتهم المحافظة على هذه الكتب واحضارها للطلبة واسترجاعها منهم وكانوا لا يمنعون المسلمين من الدخول اليها ـ على حد قول الجبرتي الذي هو مؤرخ معاصر للحملة الفرنسية ، بل كانوا يتلقونهم بالبشاشة وخاصة اذا رأوا فيهم قابلية وتطلعا للمعارف • كما كان المجمع مزودا بالالات الفلكية المتقنة الصنع وكذلك أفرد فيه مكان للمصورين والرسامين والمهندسين والجراحين •

آثار المجمع العلمي في الحقل الصحي (١)

أنشأ الفرنسيون محجرا صحيا بجزيرة بولاق يحتجزون به المسافرين القادمين أياما معدودة كما أنشأوا حجرا آخر في جزيرة الروضة خاصا بالوباء ٠

كما أمر بونابرت بانشاء مستشفى عسكري في قصر مراد بك الا ان هذا المستشفى كان خاصا بالجنود الفرنسيين ٠ كما فكر بانشاء مستشفى للوطنيين وألف لجنة لهذا الغرض من الجنرال كافريللي والطبيين ديجينيت ولاري والعالمين مونج وبرتوليه والمسيو دور مدير مهمات الجيش لكن المشروع لم ينفذ شيء منه في عهد الحملة الفرنسية ٠ كما قرر انشاء لجنة لادارة الشؤون الصحية في القاهرة ومصر القديمة وبولاق ووضع اللوائح لنظافة المدينة وتقرير الوسائل الصحية فيها ٠

آثار المجمع العلمي في الحقل الصناعي

أنشأ المسيو كونتي (CONTE) أحد اعضاء المجمع العلمي طواحين الهواء احداها في جزيرة الروضة والثانية بباب الحديد ٠

كما أصلح المسيو كونتي والمسيو (CHAMPY) وولده دار الصناعة التي انشأها مراد بك في الجزيرة لصنع المدافع والسفن والآلات الحربية وأنشأوا مصنعا للبارود في جزيرة الروضة عهد بادارته الى المسيو

(١) تاريخ الحركة القومية — ج — ١ — الفصل الرابع ٠

. (CHAMPY)

كما انشأوا مصنعا للجوخ وآخر لصنع القبعات وآخر لصناعة البيرة ولدبغ الجلود ومصنعا ميكانيكيا ومصنعا للتجارة .

ولفرط اعجاب الفرنسيين بجمال جزيرة الروضة وحسن موقعها فقد أقاموا جسرا من المراكب من الروضة الى الجزيرة وقد تم وضعه أثناء الحملة على سوريا كما فكر بونابرت أن يجعل من الروضة مقرا للجالية الفرنسية وينشىء فيها مدينة فرنسية وقد وضع الجنرال (MENOU) تخطيطا لمدينة ينشئها بها ولكن لم ينفذ شيء من ذلك .

ـ وقد أنشأوا منتدى للتنزه دعي (التيفولي) في الازبكية تشبها بنظيره بباريس سماه الجبرتي (دار الخلاعة) وأقاموا مسرحا لتمثيل الروايات .

نظرة شاملة الى المجمع العلمي

وأقل ما يقال بصدد هذا المجمع العلمي : أن اعضاءه بذلوا جهودا جبارة في خدمة العلم والفن بفضل نشاط اعضائه ومثابرتهم بحيث يمكن عدّه من أعظم المجامع العلمية قدرا وأكثرها ثمرة .

ولا يخلو من الفائدة ـ للدلالة على أهمية هذا المجمع العلمي ـ ذكر فقرة من رسالة المسيو جوفروا سان هيلير (GEOFFROI SAINTHILAIRE) وهو من أعضاء هذا المجمع النابهين بعث بها الى زميله (CUVIER) العلامة الذي هو محدث علم التشريح المقارن وعلم مطمورات الارض ـ يقول فيها (أن

المجمع العلمي المصري في نشاط دائم وأني أؤكد أن جلساته تعادل بالاقل جلسات المجمع العلمي الفرنسي في اعمالها وثمراتها وقد قررنا بناء على اقتراح زميلنا بونابرت (نابليون) أن ترسل الى مجمعكم محاضر جلساتنا فهل لكم أن تقرروا أزائنا مثل هذا القرار وبذلك نتمكن من الوقوف على تطور حركة العلوم في أوروبا • (١)

تعطيل أعمال المجمع العلمي

لقد تعطلت أعمال المجمع العلمي أثناء الحملة على سوريا وذلك بسبب انصراف الافكار الى حركات الحملة وانتظار نتائجها ولغياب جماعة من أقطاب المجمع كمونج وبرتوليه وكوستاز والجنرال كافاريللي (الذي مات تحت أسوار عكا) •

وقد استؤنف عقد جلسات هذا المجمع عند عودة الحملة من عكا الى مصر بعد تعيين أعضاء جدد عوضا عن اولئك الذين قتلوا في حملة سوريا أو عادوا الى وطنهم فرنسا • وبدأ المجلس أعماله بالبحث في الوباء الذي فتك بالجنود وبيان أسبابه ومنشئه وتطوره ووسائل الوقاية منه • ثم شرع نابليون في بناء الحصون في القاهرة للدفاع عنها كما استؤنف نشاط الاعمال الصحية والعمل في مصنع البارود كما شرع بونابرت في تجديد ملابس الجنود باستعمال منسوجات البلاد

---

(١) رسالة جوفروا سان هيلير الى كوفييه بتاريخ ٢٠ تشرين الاول سنة ١٧٩٨ الواردة في كتاب (رسائل من مصر) •

القطنية والاجواخ الواردة من خارجها واكتفى الجيش الى حد ما بموارد البلاد بفضل نشاط المسيو كونتي والمسيو شامبي وادارة المسيو دور (DAURE) مدبر مهمات الجيش (١) ٠

كما ألف بونابرت لجنتين للكشف عن آثار الفراعنة في الصعيد ورسمها ٠ فاللجنة الاولى برئاسة المسيو فورييه سكرتير المجمع العلمي ٠ والثانية برئاسة المسيو كوستاز مهمتها التنقيب عن آثار مصر القديمة في الوجه القبلي فأزاحوا الستار عن عظمة مصر القديمة ودونوا أبحاثهم في كتاب تخطيط مصر فكانت أعمالهم وأعمال المجمع العلمي هي الخالدة من آثار الحملة الفرنسية ٠

ـ هذا ولم يكن المجمع العلمي المصري معهدا للعلوم والفنون فحسب بل كان أيضا بمثابة مجلس استشاري فني يضم اخصائيين لدرس المسائل والمشاريع التي تعرضها الحكومة عليه فهو من هذا القبيل يشبه المجالس الاقتصادية العصرية وان كان يتفوق عليها بصلاحية النظر في المسائل الخاصة بالتشريع ٠

واذا نظرنا الى هذا المجمع من الوجهة العلمية نجد أنه نفع البلاد بآثاره وأعماله وتعد مذكرات أعضائه نواة للابحاث العلمية الخاصة بمصر ويمكن اعتباره الاثر الوحيد الباقي من آثار الحملة الفرنسية ٠

---

(١) تاريخ الحركة القومية في مصر الجزء الثاني ـ الفصل الرابع ٠

ولئن يكن قد انتهى العهد الاول لهذا المجمع بعد رحيل الفرنسيين فقد أعيد انشاؤه سنة ١٨٥٩ بالاسكندرية وانتخب المسيو جومار* (JOMARD) آخر من بقي من أعضاء المجمع العلمي الاول رئيسا شرفيا للمجمع الجديد ، وأن المجمع العلمي الحالي هو استمرار للمجمع العلمي القديم وقد انتقل من الاسكندرية الى القاهرة سنة ١٨٨٠ ٠

من آثار المجمع العلمي الخالدة

كتاب تخطيط مصر

ولا بد قبل انهاء آثار الحملة على الصعيد الثقافي والعلمي من الاتيان على ذكر الكتاب القيم الذي وضعه علماء الحملة الفرنسية وأسموه كتاب تخطيط مصر ٠

DESCRIPTION DE L'EGYPTE ويقسم هذا الكتاب الى قسمين :

- قسم النصوص ويقع في ستة وعشرين مجلدا ويحتوي على مذكرات علماء الحملة وتقاريرهم ومشاهداتهم واكتشافاتهم في خلال الثلاث سنوات التي قضوها في مصر ٠

- وقسم الخرائط والرسوم ويقع في أحد عشر مجلدا كبيرا ويحتوي على ثلاثة آلاف من الخرائط والرسوم حيث تظهر فيه رسوم الحيوانات والطيور والأسماك والحشرات والنبات والمعادن والخرائط الجغرافية عن مصر وسواحلها وترعها وبحيراتها

وصحاريها ·

أخذ علماء الحملة منذ وصولهم الـــى فرنســا يجمعون المباحث التي أتموها أثناء اقامتهم بمصــر فاستغرق تأليف هذا الكتاب سبعة عشر عامـا · ولا يخفى أن نابليون هو الذي أمر بجمع هذه الابحاث فــي كتاب واحد وطبعه على نفقة الحكومة ·

وقد ألفت لجنة لهذا الغرض من ثمانية من أكبر علماء الحملة وهم :

برتوليه BERTHOLLET مونج MONGE
كونتي CONTE كوستاز COSTAZ
ديجينيت DESGNETTES فورييه FOURIER
جيرار GIRARD لانكري LANCRET
كما انضم اليها خلال العمـــل دليــل DELILLE
وديفيليه DEVILIERS وجومار JOMARD وجولـــي JOLLAIS وقد تولى برتوليه BERTHOLLET رئاسة هذه اللجنة وتولى سكرترياتها على التعاقب LANCRET ثم JOMARD ثم JOLLAIS ·

– وقد مات بعض مؤلفي هذا الكتاب اثناء تأليفه فعين من يخلفهم حتى تم ظهور الكتاب الذي ظهــرت أجزاؤه الاولى سنة ١٨٠٩ واستمرت تظهر تباعا حتــى سنة ١٨٢٦ ·

أما مواضيعه فتقسم الى ثلاثة أقسام :
القسم الاول يحتوي على وصف مصر القديمـــة حتى الفتح الاسلامي ·

ـ القسم الثاني وصف مصر الحديثة منذ الفتح الاسلامي حتى نهاية الحملة الفرنسية ·

ـ القسم الثالث التاريخ الطبيعي لمصر ·

ويعتبر هذا الكتاب خير دليل على مقدرة علماء الحملة الفرنسية في استيعاب الحقائق العلمية واستقصاء المعلومات في فترة قصيرة لم تتعد الثلاث سنوات كما يعد أعظم كتاب ظهر في العصر الحديث عن تخطيط مصر وشاهد عدل بما تدرع به هؤلاء العلماء من الصبر والجلد لاتمام هذا العمل الجليل ·

بعض مشاهير أعضاء المجمع العلمي

واكمالا للبحث في آثار المجمع العلمي نرى من المفيد اعطاء فكرة عن بعض من اشتهروا من أعضاء المجمع العلمي ولجنة العلوم والفنون وترددت أسماؤهم في هذه الرسالة · (١) ·

١ = ونبدأ بمونج :

MONGE فهو أكبر علماء الرياضيات بفرنسا في عصره ومؤسس الهندسة الوصفية وعضو بالمجمع العلمي بفرنسا وقد تلقى عليه نابليون علوم الطبيعة في مدرسة باريس الحربية وكان موضع احترامه واجلاله ووقع عليه الاختيار لرئاسة المجمع العلمي بمصر وكان روح أبحاث المجمع العلمي ·

٢ = كوستاز :

COSTAZ من علماء الرياضيات وعضو بالمجمع

---

(١) تاريخ الحركة القومية في مصر ج ـ ١ ـ الفصل الرابع .

العلمي الفرنسي كان مدرسا بمدرسة الهندسة العالية بفرنسا عندما اختاره بونابرت لعضوية لجنة العلوم والفنون

٣ = جومار :

JOMARD مهندس جغرافي وعضو لجنة العلوم والفنون له في مصر أبحاث أثرية وجغرافية على جانب كبير من الاهمية وقد اشترك في رسم خريطة مصر قضى سبعة عشر عاما في اظهار كتاب تخطيط مصر تولى عام ١٨٢٦ رئاسة أول بعثة مصرية أرسلها محمد علي الكبير الى فرنسا ولما أعيد انشاء المجمع العلمي المصري أسندت اليه رئاسته الفخرية عام ١٨٦١ ٠

٤ = LE PERE

هو كبير مهندسي الري والطرق والجسور في عهد الحملة الفرنسية وواضع التقرير المشهور عن ايصال البحر الاحمر بالبحر الابيض المتوسط ٠ عهد اليه نابليون أن يدرس هذا المشروع فقضى عامين في دراسته ٠

٥ = فورييه :

FOURIER من علماء الرياضيات كان مدرسا في مدرسة الهندسة قبل انتظامه في سلك لجنة العلوم والفنون انتخب سكرتيرا دائما للمجمع العلمي وتولى رئاسة الادارة القضائية في أواخر عهد الحملة الفرنسية وهو واضع مقدمة كتاب تخطيط مصر ٠

٦= نوى :

NOUET من علماء الفلك ويعتبـــر أكبــر علماء الحملة الفرنسية في الفلك والميقات نشرت أبحـــاثه الفلكية الخاصة بمصر في الجزء الاول من كتاب تخطيط مصر •

٧ = برتوليه :

BERTHOLLET من كبار علماء الكيمياء وصديق لمونج اشتركا معا في تأسيس مدرسة الهندسة فـــي باريس واليهما عهد بونابرت اختيار أعضاء الحملـة الفرنسية • كان من اعضاء المجمع العلمي الفرنســي قبل حضوره الى مصر صحبة نابليون •

٨ = GEOFFROI SAINT HILAIRE

عالم كبير في التاريخ الطبيعي لـــه أبحـــاث مستفيضة ورسوم عديدة لحيوانات مصر وحشراتهــا وأسماكها انتخب بعد عودته عضوا في المجمع العلمــي الفرنسي ـ له شهرة عالمية في التاريخ الطبيعي ـ

٩ = دولوميه :

DOLOMIEU من علماء طبقات الارض والمعادن كان استاذا في مدرسة المناجم وعضوا بالمجمع العلمي الفرنسي عاد الى فرنسا أثناء الحملة لمرض اصابــه وانكسرت به السفينة وجنحت على شاطىء (تارانت) جنوب ايطاليا فأسر وألقي في السجن الى أن انتصــر بونابرت في معركة مارنجـــو MARENGO سنة ١٨٠١ فجعل اطلاق سراحه شرطا من شروط الصلح •

١٠ = كونتيه :

CONTE عالم كيميائي وميكانيكي استخـــدم المناطيد في حروب الثورة الفرنسية ولما جاء الى مصر أسس عدة مصانع تولى ادارتها وأنشأ طواحين الهواء في القاهرة وأنشأ مصنعا ميكانيكيا وعهـــد اليـــه بونابرت صب أحرف الطباعة وكان يعتمد عليه كثيرا في استثمار موارد مصر لاستيفاء حاجات الجيش بعد كارثة أبي قير ٠

١١ = تاليان :

TALLIEN أحد أعضاء الجمعية الوطنية الفرنسية وخصم روبسبير الشهير ٠ إنتظم في سلك لجنـــة العلوم والفنون عهد اليه نابليون وقتا ما بمهمة مندوب لدى الديوان لكنه لم يكن موضع ثقـــة نابليـــون ولا احترامه ٠ فقد بعد عودتـــه الـــى فرنسا مكانتـــه السياسية ٠

١٢ = ديجينت :

DESGENETTES كبير أطباء الحملة الفرنسية في ايطاليا ومصر له كتاب قيم اسمه (التاريخ الطبي لجيش الشرق) وقد وضع في مصر رسالة في مرضـــــس الجدري طبعها في المطبعة العربية التـــي أحضرهـــا الفرنسيون وأهداها الى أعضاء الديوان ٠

١٣ = فيفان دينون :

VIVANT DENON كاتب وفنان ٠ ألف كتابـــا نفيسا سماه (رحلة في الوجه البحري ومصر العليا أثناء حروب الجنرال بونابرت) ضمنه رسوما لبعض المعارك

التي شهدها ورسمها أثناء وقوعها • كان من المولعين بالفنون الجميلة وتولى في عهد امبراطورية نابليون ادارة المتاحف وانتخب عضوا في المجمع العلمي الفرنسي •

١٤ = فانتور :

VENTURE مستشرق وأكبر أعضاء المجمع العلمي سنا وكبير تراجمة الحملة الفرنسية ومستشار نابليون ومرجعه في المسائل الخاصة بالشرق والشرقيين •قضى نحو أربعين سنة في بلاد الشرق • كان يعرف اللغات التركية والعربية والرومية والطليانية والفرنسية) •

١٥ = ريدوت :

REDOUTE مصور في التاريخ الطبيعي رسم معظم حيوانات مصر وأسماكها وتزين رسومه كتاب (تخطيط مصر) •

فكرة نابليون بونابرت في شق قنال السويس (١)

اما الفكرة التي ينبغي التوقف عندها والتي تعد من المشاريع الانشائية الكبرى فهي تلك التي اختمرت في ذهن بونابرت فقد حاول هذا القائد استرعاء انتباه نخبة اعضاء البعثة العلمية الى امكانية وصلَ البحر الأحمر بالبحر الابيض المتوسط بواسطة قنالٍ يشق عبر برزخ السويس ذلك أن الاساطير تشير الى ان وصلَ هذين البحرين قد تم في الايام الغابرة وفي عهد

(١) BONAPPARTE en EGYPTE P. 221

كانت المدنية والتجارة والعلوم والفنون قد بلغت ذروتها في مصر التي كانت تتبوأ مركزا مرموقا في العالم المعروف يومذاك ٠

الا أن يد الاجيال قد هدمت هذا القنال ثم بوشر باعادته من جديد في أيام حكم الخلفاء الفاطميين ومهما يكن الامر فأن ايجاد مثل هذا القنال بين البحر الاحمر والبحر المتوسط كان مشروعا من شأنه أن يعيد لمصر مركزها القديم وأن يحقق لفرنسا منافع جمة في علاقتها التجارية مع افريقيا وآسيا ٠

لقد كان جديرا ببونابرت الاقدام على تحقيق محاولة عظيمة كالمشروع المذكور اذا كانت المنطقة سهلة المسلك ، كما كان ينبغي في كافة الحالات أن يصبح الفرنسيون أسياد مرفأ السويس قبل الشروع بأي تنقيب ٠

وقد كان من مصلحة الجيش الفرنسي احتلال مدينة السويس التي التجأ اليها أولئك الذين قاموا بالثورة في مدينة القاهرة وكانوا فضلا عن تعكيرهم صفو المنطقة كان ابراهيم بك يستخدمهم لحث القبائل في الصحراء على مناصبة العداء للفرنسيين وقد كان من الضروري احتلال هذه المدينة الهامة الا أن الصعوبات الجمة التي كانت تعترض القيام بهذا العمل نجم عنها هذا التأخير في الاستيلاء عليها ٠ ذلك أن المنطقة قاحلة لا ماء فيها ولا ظلال وتتطلب أثنتين وأربعين ساعة من المسير فهي مضنية صيفا وقد كانت الحالة آنذاك تقضي بتجنب كل ما يثير اشمئزاز الجند فما أن حل فصل الخريف وخفت حدة الحر

وتحسنت اوضاع الجند حتى تقرر الزحف على مدينة السويس وكان الجنرال بون (BON) هو الذي كلف بهذه الحملة التي كان عددها ٧٠٠ رجلا و ٥٠ جوادا ومؤن لخمسة عشر يوما وماء لخمسة أيام كما زود بونابرت القائد بون (BON) بتعليمات خاصة لانجاز هذه المهمة على ان يباشر بانشاء التحصينات في السويس بعد الاستيلاء عليها لتصبح بمأمن من مهاجمة الاعراب ٠

ولم يتأخر بونابرت عن اللحاق بالجنرال بون (BON) الى مدينة السويس وبعد أن زار احياءها قام بجولة في ضواحيها وبرفقته مونج (MONGE) وعدد من القادة وقد استرعت انتباهه آثار جدار من الحجارة ٠ وما كاد بونابرت يتبع اتجاه هذا الجدار حتى ظهرت أمامه آثاره قنال فتبع الاثر مدة خمس ساعات حتى داهمه الليل فعاد الى المخيم في السويس

لم يكتف بونابرت بالقاء نظرة خاطفة على تلك المنطقة فعاود الكرة في ٣ كانون الثاني عام ١٧٩٩ وشرع يجوب المنطقة للدرس والاطلاع تواكبه مفرزة الجند فصادف مرور ساع يمتطي جملا ومعه رسالة من الجزار وابراهيم بك الى أهالي مصر وتتضمن هذه الرسالة خبرا مفاده أن الاشتباكات بدأت على الحدود السورية وأن جيش الجزار باشا قد توغل في الاراضي المصرية وأن طلائعه احتلت واحة العريش وشرعت بتحصين قلاعه ٠ عندها عاد بونابرت الى القاهرة

ليتدبر الامر على ضوء الواقع (١) فكانت حملته على سوريا والتي سندرسها بالتفصيل فيما بعد واذا كانت مسألة شق ترعة السويس لم تتعد نطاق الفكرة لان الاحداث حالت دون ابرازها الى حيز الوجود فقد أخذ القنصل الفرنسي العام في القاهرة (FERDINAND DE LESSPS) تجسيم فكرة بونابرت وفتح ترعة السويس التي أصبحت صالحة للملاحة بتاريخ ١٧ كانون الاول سنة ١٨٦٩ ٠

و ـ آثار الحملة على الصعيد الدبلوماسي والعسكري

١ = على الصعيد الدبلوماسي

١ = أثر حملة بونابرت في الباب العالي

كان بونابرت وتلليران يعتقدان ان الامبراطورية العثمانية أصبحت قريبة الانهيار وأن من واجب فرنسا عدم فوات فرصة اقتسام تركة الرجل المريض وذلك على الرغم من علاقات الصداقة والمودة التقليدية القائمة بين فرنسا وتركيا ٠

وقد ظن تلليران وبونابرت عند خروج الحملة الى مصر أنه من الممكن التوفيق في وقت واحد بين عمليتين متناقضتين تماما :

الاولى تلخص في تأكيد الصداقة نحو تركيا
الثانية : الاستيلاء على جزء من ممتلكاتها الغنية ٠
وعلى ذلك فقد أصبح للدبلوماسية الفرنسية ميدانان:

BONAPARTE en EGYPTE P. 222 - 242

أحدهما في القاهرة والآخرة في القسطنطينية ٠

٢ = الدبلوماسية الفرنسية في مصر

حرص بونابرت كل الحرص عند استيلائه على مصر على التمسك بالصداقة نحو تركيا وأعلن عن أسباب حضوره الى مصر معاقبة المماليك لتمردهم على السلطان كماحاول بونابرت اقناع الباشا العثماني في مصر وباشا دمشق والصدر الأعظم واحمد باشا الجزار بأنه لم يحضر الى مصر معاديا للعثمانيين أو معتديا على حقوق السلطان العثماني ٠

وقد كتب بونابرت الى باشا القاهرة (باكير باشا) في ٢٣ تموز عام ١٧٩٨ أن هدف الجمهورية الفرنسية من احتلال مصر هو طرد المماليك الثائرين على الباب العالي ٠ ورغم استيلاء الجمهورية الفرنسية على مصر فهي تود ان يبقى الباشا نائب السلطان العثماني في مصر وأن تبقى له أمواله ٠ وقد طلب اليه بونابرت أن يؤكد للسلطان العثماني بأنه لا ينبغي عليه أن يعتبر استيلاء الفرنسيين على مصر خسارة ذلك أن الخراج الذي كان يرسل في الماضي سوف يستمر ارساله في المستقبل ٠ الا أن باشا القاهرة كان على رأس الهاربين مع فلول المماليك شطر الديار الشمالية ولم يجب على رسالة بونابرت وكتب بونابرت الى الصدر الاعظم بضعة رسائل يؤكد له فيها صداقة الفرنسيين لتركيا ويشرح له الغرض من حضور الحملة الى مصر وهو معاقبة المماليك الذين

أساؤا الى التجارة الفرنسية كما أطلعه بأن وزير الخارجية الفرنسي تلليران سيعين سفيرا لدى الباب العالي وسيزود بالتعليمات لعقد اتفاقات مع تركيا من شأنها ازالة الصعوبات الناجمة من الاحتلال الفرنسي في مصر وتدعيم الصداقة القديمة بين تركيا وفرنسا ولكن الصدر الاعظم لم يجب على رسالة بونابرت كما أن تلليران لم يعين سفيرا وقد بعث بونابرت برسالة الى باشا دمشق والى أحمد باشا الجزار يؤكد لهما بأنه لم يكن يوما عدوا للمسلمين ٠ ومما يجدر ذكره أن بونابرت كلف المواطن (BEAUVOISINS) المندوب الفرنسي لدى الديوان في القاهرة بنقل الرسالة الى أحمد باشا الجزار ولدى وصوله على ظهر باخرة الى عكا لم يقابله الجزار وهدد بقطع رأسه اذا نزل الى اليابسة فاضطر الى العودة على نفس السفينة التي أقلته الى عكا ٠

٣ = الدبلوماسية الفرنسية في القسطنطينية

قررت حكومة المديرين ارسال الحملة الفرنسية الى مصر قبل ان تعين خلفا لسفيرها في الاستانة والذي توفي فجأة في أواخر عام ١٧٩٧ تاركا أعباء السفارة على عاتق السكرتير الاول فيها حيث رفع الى مرتبة قائم بأعمال ، وقد اقترح تلليران على الحكومة ارسال سفير ماهر الى القسطنطينية ، فصل مهمته بتوكيد صداقة فرنسا نحو تركيا ورغبتها في أن تكون على سلام معها كما عليه أن يطيل المفاوضة حتى تستغرق شهرين أو ثلاثة ريثما يكون الفرنسيون قد وطدوا اقدامهم في مصر كما عليه ان يعرض على الباب

العالي حلا من اثنين : اما ان يظل الباشا العثماني نائب السلطان في مصر على حالته وتستمر حكومة البلاد تدار شؤونها باسم الباب العالي شرط ان تبقى القوة العسكرية في ايدي الفرنسيين الذين يحصلون الضرائب ويدفعون منها الى تركيا ٥٠٠ كيسا أو ٢٢٥٠٠٠٠ من الفرنكات سنويا وأما أن يتنازل السلطان عن مصر بكامل حقوق السيادة عليها الى فرنسا على أن تترك هذه الاخيرة جزر الليفانت الى تركيا

وفي ١٧ تموز ذاع في الاستانة نبأ وصول الفرنسيين الى الاسكندرية ومن ذلك الحين ذهبت سدى كل محاولة لاستمالة العثمانيين الذين كانت تعوزهم القوة لاظهار العداء لفرنسا علانية فصمتوا على مضض مكتفين بالتضييق على القائم بالاعمال الفرنسي والفرنسيين في الاستانة وفي البلدان الاخرى واستمر الحال على ذلك حتى ٢٢ آب حيث وردت الى الاستانة اخبار هزيمة الاسطول الفرنسي في أبي قير عندها كشفت تركيا القناع عن نواياها وفي آخر أيلول ١٧٩٨ الفى الباب العالي القبض على القائم بالاعمال والرعايا الفرنسيين وسجنهم وكان ذلك يعني قطع العلاقات واعلان الحرب من جانب تركيا على فرنسا ٠

٤ ـ اسباب فشل الدبلوماسية الفرنسية

أخفقت الدبلوماسية الفرنسية في محاولة اقناع الباب العالي بصداقة الفرنسيين له في الوقت الذي كانت فيه جيوشهم تحتل جزءا من الاملاك العثمانية ٠ أما السفير الماهر الذي اقترح تلليران ارساله الى

الاستانة فقد صرف النظر عن ارساله • وقد كان بونابرت يفضل أن يكون هذا السفير تلليران نفسه جريا على عادته من اشراك اولئك الذين يقبل النصح منهم في الاخطار التي تنجم عن قبول نصحهم حتى يطمئن من عدم وقوع الخيانة من جانبهم أو انصرافهم عن تأييده • وقد اضطر تالليران حيال رغبة بونابرت وبعض رجال حكومة المديرين الى قبول هذه المهمة ولكنه رغم ذلك لم يذهب الى القسطنطينية •

وقد تضاربت الآراء في أسباب عدم ذهاب تلليران الى تركيا فمنهم من يقول : أن بونابرت كان يريد أن يكون هو المسيطر على المفاوضات مع تركيا من مركزه في القاهرة ويقول آخرون : ان تلليران كان يخشى من أن يقبض عليه الاتراك ويلقى به في غياهب السجون ، كذلك فان تلبد الغيوم السياسية في أوروبا ذاتها جعلت من المتعذر على حكومة المديرين الاستغناء عن خدماته في وزارة الخارجية • وهكذا لم يذهب سفير فرنسي الى القسطنطينية • وقد عد بونابرت حكومة المديرين مسؤولة عن فشل السياسة التي سبق الاتفاق عليها بينه وبين اعضاء هذه الحكومة قبل ابحاره الى مصر • ذلك انه لما لم تتقدم من جانب الفرنسيين أية توضيحات للباب العالي عن الحملة ولم يحضر اي سفير الى القسطنطينية ارتمى الباب العالي في احضان انكلترا وروسيا •

٥ ـ نجاح الدبلوماسية الانكليزية في الاستانة

لم يكن من الصعب على الدبلوماسية الانكليزية ان تحول دون حصول الاتفاق والتفاهم بين الاتراك

والفرنسيين وذلك لشكوك الاتراك الظاهرة من نيات الفرنسيين وما كان يذاع من الشائعات والاخبار من أهداف الحملة في طولون والتي استولت بعد ذلك على مالطه ثم جاءت الاخبار اخيرا عن وصولها الى الشواطىء المصرية • وكان الوزير الانكليزي في الاستانة (سبنسر سميث SPENCER SMITH) شديد الانتباه لكل ما يجري من محادثات بين الاتراك وبين (روفان) القائم بأعمال السفارة الفرنسية في الاستانة • ولم يكن المندوب الروسي (بازيل تمارا BASILE TAMARA) أقل ملاحظة من الوزير الانكليزي فقد خشيت روسيا من امتداد نفوذ الفرنسيين في الليفانت (وكانت عبارة ECHELLE DE LEVANT) تطلق على المرافىء التي كانت تابعة للسيطرة التركية مثل الاسكندرية وبيروت) ومما زاد مخاوف قيصرها بول الاول احتلال الفرنسيين لجزر الايونيان ثم استيلاؤهم بعد ذلك على مالطة ومع أن القيصر كان يريد السلام مع الجمهورية الفرنسية فقد اقنعته الحوادث الاخيرة بضرورة الاتفاق مع تركيا ومع اعداء فرنسا لدفع خطر الفرنسيين ونفوذهم في الليفانت •

وعلى ذلك فقد اجتمع المندوب الروسي بالاستانة بالريس أفندي منذ تموز سنة ١٧٩٨ ومن ذلك التاريخ سارت المفاوضات بين الاتراك من جهة وبين كل من روسيا وانكلترا من جهة ثانية وكان هدف سبنسر سميث (SPENCER SMITH) أن يضم الباب العالي الى جانب الدول ضد فرنسا ويعلن الحرب على الجمهورية • بيد أن الباب العالي ظل مترددا حتى اذا

وصلت اخبار هزيمة الاسطول الفرنسي في أبي قير كف الباب العالي عن تردده • وضاعف سبنسر سميث جهوده فأصدر الباب العالي منشورا ضد فرنسا وضد حملتها في مصر في ٩ أيلول وفي آخر الشهر ذاته القي (روفان) ومواطنيه في السجون وكان معنى هذا اعلان الحرب من جانب تركيا على فرنسا •

وكان في طليعة المؤيدين لهذه السياسة ، سياسة اعلان تركيا الحرب على فرنسا ، اللوردنلسن الذي كان يريد منذ أن انتصر على اسطول (برويس) في أبي قير أن تعد تركيا جيشا وأسطولا لطرد الفرنسيين نهائيا من مصر فكتب من مالطة في ٢٦ تشرين اول ١٧٩٨ – الى (سبنسر سميث) يثني على همته وكفاءته في العمل الشاق الذي قام به حتى يجعل الباب العالي يفكر تفكيرا صحيحا ويعمل ما ينبغي عليه عمله (١) وكان على الحكومة الانكليزية أن تنشط بعد هذا النجاح المبدئي لجذب الاتراك نهائيا الى المحافظة الدولية ولمعاونة هؤلاء جديا على الكفاح ضد فرنسا ولطرد بونابرت وجيشه من مصر •

ولم تلبث انكلترا ان أدركت أهمية الاشتراك العسكري – السريع مع تركيا لاخراج الفرنسيين من مصر عندما أصر (هنري دنداس) HENRI DANDAS وهو واحد من وزرائها المهتمين خصوصا بشؤون الهند على ضرورة اخلاء مصر من الفرنسيين صيانة للمصالح الانكليزية في الهند ذاتها ثم عندما قدم اخصائيوها

(١) NELSON VOL III P. 158

في المسائل الهندية أمثال الكولونيل (FULLARTON) ثم (وارن هستنكز) التقارير لاظهار أهميـــة مصر لتجارة العالم بفضل موقعها الجغرافي وأهمية الاحتفاظ بمركزها او عدم سقوطها في أيدي العدو لمصلحـــة انكلترا في الهند وزيادة على ذلك فان رغبة روسيا في الاشتراك الآن في الدفاع عن عدوتها القديمة تركيا كان من شأنه كله اقناع الانكليز بوجوب التدخل •

وسرعانما وقع اختيار وزير الخارجية CRENVILLE على أحد الاخصائيين في الشؤون التركية وهو السير سدني سميث (SIR SIDNEY SMITH) للتعـاون مع الاتراك • فصدرت اليه التعليمات بالذهاب الـــى القسطنطينية على ظهر البارجة الحربية (TIGRE) التي استولى عليها الانكليز من الفرنسيين في تمـوز عـــام ١٧٩٥ (١) فيعمـــل مع اسطولـــه بالاشتـــراك مع الاساطيل الروسيـــة والتركيـــة للدفـــاع عـــن الامبراطورية العثمانية ولازعاج العدو في هذه الجبهات وقد أعطي سدني سميث حقوقا دبلوماسية تخولــه الاشتراك مع الوزير الانكليزي في القسطنطينيـــة (سبنسر سميث وكـــان اخـــا لـه في المفاوضات المنتظرة) (٢) وزيادة على ذلك وقع اختيار وزيـــر الخارجية على الكولونيل (كوهلر) (KOEHLER) للذهاب الى القسطنطينية في بعثة عسكرية الغرض منها تنظيم واعداد الجيش العثمانـــي وقـد جاء في التعليمات التي أعطيت له (٧ تشرين الثاني ١٧٩٨) – أن من واجبه بذل كل مساعدة ممكنة حتى يستطيـع

(١) BARROW VOL I P. 234

(٢) ELSON VOL III P. 216

الحلفاء هزيمة وتدمير الجيش الفرنسي في مصر وتحطيم نقالاتهم وبقية سفنهم الاخرى في ميناء الاسكندرية وأبحر كوهلر الى الاستانة في أوائل كانون الاول عام ١٧٩٨ وأما السير سدني سميث فقد وصل الى القسطنطينية في آخر كانون الاول وكان وصوله اليها في وقت كانت قد تقدمت فيه المفاوضات بين الرئيس أفندي وبين سبنسر سميث من جانب وبين الريس أفندي وبين المندوب الروسي من جانب آخر وكان غرض الدبلوماسية الانكليزية ان تكون تركيا في نطاق المحالفات المزمع عقدها وتنظيمها هي المتزعمة للنضال ضد الفرنسيين في الشرق (١) وقد أسفرت هذه الجهود عن عقد محالفة هجومية دفاعية لمدة ثماني سنوات بين روسيا وتركيا وفي ٢٥ كانون الاول ١٧٩٨ وقعها (تمارا والريس افندي احمد عاطف) وفي هذه المحالفة تعهد كل من المتعاقدين بضمانة املاك الآخر كما أعلنا أن الهدف من المحالفة ليس التوسع وانما المحافظة على ممتلكاتها والعمل على تأييد مبدأ التوازن بين الدول حرصا على السلام في أوروبا كما اتفق المتعاقدان على دعوة الدول الاخرى للانضمام الى المحالفة كالنمسا وانكلترا وبروسيا ثم كافة رؤساء الحكومات الاخرى • وفي ٥ كانون الثاني عقدت انكلترا معاهدة التحالف مع تركيا (٢) ووقعها من الجانب الانكليزي كل من (سدني سميث وسبنسر سميث) وجاء فيها أن جلالة ملك بريطانيا الذي تربطه مع امبراطور روسيا المحالفة الوثيقة ينضم في هذه

---

(١) CHARLES ROUX L'ANGLE. ET L'EXPED T.I P.133

(٢) NOUADOUNGHIAN T.II P.28 - 31

المحالفة المبرمة الان الى المحالفة الدفاعية التي تـــم أخيرا عقدها بين السلطان العثماني وقيصر روسيـــا وكذلك فقد ضمن كل من المتعاقدين أملاك الاخر وتعهد ملك انكلترا (جورج الثالث) بضمانة كافة ممتلكـات الامبراطورية العثمانية من غير استثناء وكما كانت قبل غزو الفرنسيين لمصر مباشرة وبالمثـــل تعهـــد السلطان العثماني (سليم الثالث) بضمانة كافـــة الممتلكات البريطانية من غير اي استثناء ثم نصـــت المعاهدة على ضرورة مواصلة الحرب بالاشتراك وعدم اقدام احد المتعاقدين على ابرام صلح منفرد مــــع الاعداء ٠

وهكذا فقد كان عقد هاتين المعاهدتين مؤذنـــا بتكوين المحالفة الدولية الثانية ضد فرنسا نهائيا ٠ فقد انضمت الى الحلفاء مملكة نابولي في معاهـــدة القسطنطينية في ٢١ كانون الثاني عام ١٧٩٩ وفي ٢٤ منه أعلنت النمسا الحرب على فرنسا تحت ضغط كل من انكلترا وروسيا (١) وفي هذه الظروف كانت مهمة السير سدني سميث دفع الاتـــراك دفعـــا لانجـاز استعداداتهم وبدء عملياتهم العسكرية وقد هالـه أن يجد البحرية العثمانية في حالة الضعف لا تمكـــن الاتراك من العمل الجدي بمفردهم وعلى ذلك فقد عول سدني سميث على طلب المساعدة من انكلترا فكتب من القسطنطينية في ٢٤ كانون الثاني ١٧٩٩ (٢) الى اللورد (نلسن) يخبره بعقد المحالفة التي تحتم على

CHARLES ROUX OPERATION CIT.P.132

BARROW VOL I P. 251 - 253 (٢)

الانكليز كما قال : في تنفيذها أن يبذلوا أقصى جهودهم لارجاع مصر الى الباب العالي ثم استطرد مخاطبا (نلسن) بقوله : وأنكم يا سيدي اللورد قد فعلتم كثيرا في سبيل ذلك وهذا أيضا قبل أن نتعهد من جانبنا بشكل قاطع بارجاع مصر الى تركيا ولما كانت البحرية العثمانية لا تزال في مهدها ولا يستطيع الاتراك اعداد قوة كبيرة قبل الربيع القادم وهو الوقت المحدد لقيام الحملة ضد الفرنسيين في مصر من تركيا فان الاتراك يعتمدون على الانكليز كل الاعتماد في محاصرة الاسكندرية وفي مساعدة الجزار باشا فيهجومه على مصر والان يا سيدي اللورد ذلك وحدك ان تعين مدى ما يمكنك امدادي اياه لتنفيذ كل ذلك جديا وحتى يتسنى لك الاحتفاظ بثمار النجاح الذي أحرزته في هذه المسألة .

وزيادة على ذلك فقد طلب سدني سميث من حكومته أمداده بالاموال لاعداد الاسطول العثماني للعمل أو تقدم انكلترا اسطولا انكليزيا بدلا منه ـ وفي الوقت نفسه عقد سدني سميث الاجتماعات مع وزراء الباب العالي للاتفاق على برنامج للعمل العسكري والبحري ضد الحملة في مصر ثم أبحر الى رودس ثم الى عكا للاتفاق مع حسن بك حاكم رودس والجزار باشا حاكم عكا بصدد برنامج العمليات الحربية (١) .

وقد اعترضت سدني سميث عدة صعوبات منها : غضب اللورد نلسن لحرمانه من الاشراف على حصار

(١) CHARLES ROUX OPE. CIT. P. 140 - 142

مصر والدفاع عن المياه العثمانية وتعيين احد الضباط (سدني سميث) من الذين لم يشتركوا في موقعة النيل كما ساءه ان يعطي سدني سميث حقوقا تجعله شبه مستقل في تحمل مسؤولياته عن نلسن وقيادته في البحر الابيض • وقد ازدادت صعوبات سدني سميث بسبب عدم وصول كوهلر وبعثته العسكرية الى القسطنطينية فقد تأخر خروجه من انكلترا وكانت الحاجة ماسة الى تنظيم واعداد القوات البرية - العثمانية (١) وفي الواقع كانت الضرورات ملحة لانجاز كافة هذه الاستعدادات بكل سرعة لان بونابرت في شباط ١٧٩٩ كان قد بدأ بالزحف على سوريا •

٢ - على الصعيد العسكري

١ - حملة بونابرت على سوريا

عندما باءت حكومة المديرين في القسطنطينية بالفشل كتبت الى بونابرت رسالة في ٤ تشرين الثاني ١٧٩٨ جاء فيها انه ما دام الانكليز والروس أصحاب السيطرة في البحر الابيض فمن المستحيل انشاء أية مواصلات بين فرنسا ومصر لارسال الجند والذخائر الى هذه الاخيرة فالواجب يقضي على بونابرت ان يتخذ الوسائل التي تكفل له الاعتماد على موارده في مصر فقط ولما كان من المتعذر على حكومة المديرين ارسال النجدات بسبب حراجة موقفها في أوروبا مضافة الى الاسباب الملحوظة آنفا فقد أصدرت هذه الحكومة تعليمات الى بونابرت تكتفي فيها - باقتراح ثلاثة

---

(١) CHARLES ROUX OPE. CIT. P. 141

حلول وتترك له اختيار ما يروقه منها وهي :

أولا : البقاء في مصر مع تدعيم مركزه بشكل يمنع عنه هجوم الاتراك ·

ثانيا : التقدم الى الهند ومن المنتظر أن يجد هناك أناسا على استعداد للانضمام اليه لتهديم السيطرة الانكليزية في الهند ·

ثالثا : السير برا الى القسطنطينية وسبق العدو الذي يهدده في عملياته ·

كان بونابرت قد بدأ بالزحف على سوريا واستولى على بضعة مراكز هامة في حملته عندما وصلت اليه تعليمات حكومة المديرين ·

ذلك أن بونابرت كان قد كتب الى حكومة المديرين منذ ١٧ كانون الاول ١٧٩٨ ينبئها ان الاتراك في سوريا كانوا يقومون باستعدادات عدائية ·

وعندما امتنع الجزار باشا عن الرد على رسائله ووصلته من REYNIER التقارير عن زحف جند ابراهيم بك والجزار باشا نحو الحدود المصرية في ٣٠ كانون الاول وذلك على الرغم من مسعى نابليون الاخير من أجل السلام مع تركيا قرر القائد العام مبادرة اعدائه بالهجوم والزحف على سوريا فأصدر أمرا في ١١ كانون الثاني ١٧٩٩ حتى تبدأ مقدمة الجيش بالسير الى العريش وقد أوضح بونابرت الاغراض التي كان يبغي تحقيقها من هذه الحملة وهي تتلخص :

أولا : في تدعيم الفتح في مصر ومنع الخطر عنها

من أية جيوش تهاجمها من الشرق أو تعمل بالاشتراك مع جيش أوروبي ينزل على الشواطىء المصرية •

ثانيا : ارغام الباب العالي على توضيح موقفه وحمله على تأييد المفاوضات التي لا بد وأن تكون حكومة المديرين قد بدأتها مع تركيا ثم تأييد (BEAUCHANT) في المهمة التي أوفده بونابرت من أجلها الى القسطنطينية •

ثالثا : حرمان السفن الانكليزية في البحر الابيض من أخذ مؤنها من سوريا •

تقدمت الحملة بقيادة بونابرت الى غزة بعد سقوط قلعة العريش واستولت على الرملة ثم حاصرت يافا فسقطت بعد أربعة أيام بتاريخ ٧ آذار وأثناء ضربه الحصار على يافا أرسل بونابرت الى شيوخ نابلس حتى يخيرهم بين الحرب والسلام كما كتب الى الجزار باشا يدعوه الى ترك القتال مع الفرنسيين والانضمام اليهم فلم يلق من الجزار باشا اي جواب وفي يافا انتشر الوباء • ولما كان بونابرت يخشى أن يؤدي وجود عدد الاسرى الكبير (٣٠٠٠) وهم في حالتهم السيئة الرثة الى كثرة الاصابات بين الفرنسيين ولما كان الجند يتذمرون من قلة المؤن لديهم وكان الجيش على وشك استئناف الزحف على العدو فقد واجهت بونابرت مشكلة البت في أمر هؤلاء الاسرى ولذلك عقد القائد العام مجلسا عسكريا من قواده لبحث موضوع هؤلاء الاسرى ، فاتجه الرأي أولا نحو ارسالهم الى مصر ولكن لم تلبث أن اعترضت الاخذ بهذا الرأي صعوبات منها عدم وجود المؤن الكافية لتغذية الإسرى في أثناء سيرهم الشاق الى مصر ثم

عدم وجود العدد الكافي من الجند حتى يمكن الاستغناء عن فريق منهم لحراسة الاسرى في عودتهم وكذلك كان يخشى من ارسالهم بطريق البحر حتى لا تتعرض سفن الانكليز لهم وأخيرا قر الرأي على اعدامهم رميا بالرصاص بدلا من تركهم يموتون جوعا في يافا أو اعطائهم الفرصة حتى ينضموا ثانية الى الاعداء وقد علق صاحب تاريخ الحملة العلمي والعسكري (١) على هذا العمل قائلا :

« ان المذبحة كانت ولا شك وصمة في جبين أولئك الذين كان في استطاعتهم منعها فانه مهما انتحلت الاعذار لهذا الفعل الشنيع فقد سلم هؤلاء الاسرى أنفسهم ولا ينبغي بأي حال من الاحوال ومهما كانت الاسباب تحطيم الوعود ونسيان قوانين الحرب المعمول بها » .

الا أن بونابرت في كتاباته في جزيرة (SAINTE HELENE) يشرح الاحداث التي تبرر ضرورة اقدامه على اعدام الاسرى فقد ألمح في احد ىمذكراته التي كتبها في جزيرة (SAINTE HELENE) عن الضرورة الملحة التي دفعته الى اعدام هذا العدد الكبير من الاسرى فقد زعم انه يوجد في موقع يافا عدد كبير من الجنود الاتراك لم يمض وقت طويل على وقوعهم في الاسر في معركة العريش وكان بونابرت قد قرر تسييرهم باتجاه بغداد بعد أن عاهدوه بأنهم سيعتزلوا الخدمة أو انهم على الاقل لن يحملوا السلاح في وجهه لمدة سنة وعلى هذا الاساس فقد وجهوا

---

(١) REYBAND T. IV P. 351

على طريق بغداد تواكبهم قوات فرنسية على مسافة ٥٠ كيلومترا تقريبا ·

الا ان هؤلاء الاتراك بدلا من الذهاب الى بغداد عرجوا على يافا وتمركزوا دفاعيا فيها مسببين خسائر هامة في القوات الفرنسية عند وصولها الى يافا فلو اتخذ بونابرت ذات الموقف حيالهم لكانوا تقدموه الى عكا وعززوا الدفاع فيها · ثم اضاف بونابرت بأن موجباته كقائد تحتم عليه ضمان التأمين والحرص على جنده من اعتداءات مماثلة من قبل هؤلاء الاسرى· لقد كان يستحيل على بونابرت ابقاء عدد كبير من جنده الذي يتضاءل عدده يوما بعد يوم لتأمين حراسة هؤلاء الاسرى ولهذا فقد كان اعدام هؤلاء الاخيرين أضمن وسيلة للاحتفاظ بأكبر عدد من القوات الفرنسية لمتابعة القتال (١) · لقد كان اجتياز الصحراء الشاق والانتقال من مناخ جاف الى مناخ رطب وممطر من العوامل التي أثرت على صحة الجنود الفرنسيين كما أن الطاعون الذي نقلت جراثيمه من مصر بعض قطع الحملة قد تفشى في الجيش وانزل به خسائر فادحة فقد غصت المستشفيات بالمصابين ولاذ المرضون بالفرار تجنبا للعدوى ولكن بونابرت رغبة في رفع معنويات الجند لم يتردد في عيادة هؤلاء المرضى فكان يتفقدهم في المستشفى وبرفقته هيئة أركان الحرب وكان يوزع عليهم الدراهم والمؤن ويتوجه اليهم بعبارات مشجعة ولما أشار عليه الاطباء بمغادرة المستشفى نجنبا لالتقاط العدوى أجابهم بهدوء قائلا :

(هذا من واجبي انني قائدهم) (٢) ·

(١) BONAPARTE EN EGYPTE P. 276 - 277

(٢) BONAPARTE EN EGYPTE P. 277 - 279

الجزار باشا وبونابرت

في ١٨ آذار عام ١٧٩٩ بدأ بونابرت في حصار عكا وكان حصارا طويلا شاقا دام ثلاثة أشهر وقد صمدت عكا أمام الفرنسيين بفضل مقاومة الجزار باشا ثم بفضل المساعدة التي قدمها سدني سميث من البحر الى المحاصرين وقد سبق بونابرت في الوصول اليها بيومين ثم استطاع أن يفتح الطريق لوصول النجدات من رودس الى عكا كما شتت أسطولاً من السفن الفرنسية كان يحمل مدافع الحصار الى بونابرت ٠ وقد ساعد الجزار باشا في تقوية الدفاع عن عكا الكولونيل « PHELIPEAUX » المهندس الفرنسي ومن أصدقاء سدني سميث ومن أعداء الجمهورية وعلى ذلك فقد أخفق بونابرت في حصار عكا ٠ وقد حاول أثناء هذا الحصار استمالة زعماء البلدان المجاورة اليه وتنفيرهم من الجزار باشا فكتب الى ابن الشيخ عمر ظاهر كما كتب الى بشير الشهابي والى شيخ نابلس فلم يحصل على أية نتيجة من ذلك ٠ وقد اشتبك الفرنسيون حول عكا في جملة مواقع كان أهمها موقعة جبل طابور أبلى فيها الجنرال (KLEBER) بلاء حسنا بالاشتراك مع بونابرت وأصبح طريق الشام مفتوحا أمام الفرنسيين ولم يمنع بونابرت من التقدم سوى وجود العدو الممتنع في عكا في مؤخرته وقد كانت خسائر بونابرت في هذا الحصار كبيرة حيث خسر عددا لا يستهان به من خيرة قادته وضباطه وجنده فقتل من القادة (DETROYE)

BON CAFFARELLI فقرر عند ذلك العودة الى مصر

لقد عني بونابرت عناية فائقة بنقل الجرحى والمرضى من سوريا الى مصر فأرسل ثمانمائة بطريق الصحراء وألف ومائتين بطريق البحر حيث أبحر أكثرهم من يافا كما أمر بوضع كافة الخيول تحت تصرف الجرحى لنقلهم دون أن يستثني الخيول الخاصة به (١) وفي ١٤ تموز دخل بونابرت القاهرة دخول الظافر المنتصر وان كان في الحقيقة يجر أذيال الخيبة التي مني بها أمام أسوار عكا المنيعة ·

عودة بونابرت الى القاهرة

عاد الجيش الفرنسي الى القاهرة في ١٥ حزيران لقد أخفقت حملتا مصر وسوريا ·أن انتصار الفرنسيين في معركة أبي قير البرية بتاريخ ٢٥ تموز على الجيش التركي البالغ عدده سبعون ألف رجل والقاءهم في البحر لم يعوض عن هذا الاخفاق · فمنذ ستة أشهر لم تصل الى مسامع بونابرت أخبار عن فرنسا ولكن وقوع بضع مجلات بين يديه صدفة اطلعته بأن فرنسا أصبحت على وشك الانهيار : ثورات في الداخل وانهزام جيش الرين (RHIN) وانكسار جيش ايطاليا وضياع ايطاليا ·

عندها سطعت في ذهن بونابرت فكرة العودة الى فرنسا · ففي ١٩ آب غادر بونابرت القاهرة دون علم أحد الى الاسكندرية وهناك أعطى الاميرال (GANTHEAUME) أمرا بأن يحضر سرا البارجتين

---

(١) BONAPARTE EN EGYPTE P. 341

اللتين نجتا من كارثة أبي قير وهما LA CARRIERE
LA MUIRON

لقد كان على نابليون أن يختار بين أمرين :
الأول : خيانة الجيش - والثاني : خيانة فرنسا
ولقد اختار بونابرت الامر الاول ولبى نداء القدر .
وفي ليل ١٤ آب أبحر بونابرت على البارجة (MUIRON) وفي صباح اليوم التالي اختفى الساحل المصري عن عينيه . لقد كانت الرحلة شاقة تحف بها الاخطار من كل جانب فالاسطول الانكليزي يجوب البحر المتوسط من أقصاه الى أقصاه .

استطاع بونابرت الوصول الى (PREJUS) صباح ٩ تشرين الاول وفي مساء ذلك اليوم توجه الى باريس (١) .

---

(١) VIE DE NAPOLEON PAR DMITRY MEREJECOVSKY P. 114 - 118.

الفصل الخامس

مصير الحملة الفرنسية في مصر بعد أياب بونابرت الى فرنسا

أسند بونابرت قبل سفره من مصر قيادة الحملة الفرنسية الى الجنرال كليبر وترك له تعليمات خطية ضمنها وعودا معسولة لا تخلو من بعض التشجيع ٠

كما ترك نداء للجند أعلن عليهم في ٢٣ آب وهذا نصه :

« أيها الجنود أن الحالة في اوروبا تضطرني للعودة الى فرنسا ٠ أترك قيادة الجيش الى الجنرال كليبر (KLEBERE) سأوافي الجيش بأنبائي ٠ لا أستطيع الافصاح أكثر من ذلك ولئن اضطررت الى فراق الجند الذي طالما أحببته فلن يكون هذا الفراق الا وقتيا » ٠

أما التعليمات التي تركها للجنرال كليبر فقد تضمنت ما يلي :

ان حكومة المديرين ستطلعك مباشرة بعد اليوم على نياتها وأنا من جانبي كرجل ذي صفة رسمية وكمواطن عادي سأفعل ما يلزم لامدادك حينا بعد حين

بما يكون لدي من اخبار ومعلومات • واذا طرأت أحداث غير متوقعة ولم تنجح محاولاتنا فلم يصلك مدد أو معونة من فرنسا او اذا لم تجد الاحتياطات الصحية المتخذة ودخل الطاعون الى مصر وقتل من جنودك ألفا وخمسماية رجل فلك عندئذ ان تكف عن القتال • واني أعطيك تفويضا بعقد الصلح مع الباب العالي ولو كان شرط الصلح الجلاء عن مصر ولكن عليك أن تستبعد تنفيذ هذا الشرط ما استطعت وتربطه بعقد الصلح العام في أوروبا •

وأنت تعلم ما هي أهمية مصر بالنسبة لفرنسا وترى أن الامبراطورية التركية تتداعى من كل جانب وقد تنهار غدا • ولهذا فان انسحابنا من مصر سيكون كارثة علينا لانه لم يمض وقت طويل قبل أن تقع في يد دولة اوروبية أخرى • واذا أجاب الباب العالي على طلب فتح المفاوضات الذي بعثت به اليه قبل ان تصلك أخبار عني من فرنسا فليكن جوابك أن لك من الصلاحيات مثل ما كان لي وادخل معه في المفاوضات وجدد له التأكيد بأن فرنسا لم تفكر قط في انتزاع مصر منه وطالبه بالانسحاب من صفوف المتحالفين وبالاعتراف لنا بحق الابحار في البحر الاسود وباطلاق سراح الاسرى الفرنسيين وأخيرا بهدنة لستة أشهر وهي المدة اللازمة لابرام المعاهدة وتبادل وثائقها • واذا اضطرتك الظروف الى الاسراع في عقد الصلح فافعل • ولكن قل أنك لا تستطيع التنفيذ الا بعد الابرام • ومن الامور المتفق عليها دوليا أن الفترة التي تقع بين توقيع الصلح وابرامه تكون هدنة يمتنع فيها الفريقان

عن القيام بأي عمل حربي أو عدائي • (١) •

هذه نبذة من التعليمات التي تركها بونابرت لكليبر وقد كان يبغي من ورائها أن يجعل مصر موضوع مساومة مع الباب العالي واداة استدراج لاخراجه من التحالف الدولي الثاني ضد فرنسا •

موقف كليبر حيال بونابرت وآراؤه

لم يكن كليبر شديد الاقتناع بمضمون هذه التعليمات التي كان وقعها عليه أشبه بوقع الصاعقة وشعر بحراجة الموقف وبثقل التبعة التي ألقيت على عاتقه كما ساءه أن يتملص بونابرت منها وقد ظهر هذا الاستياء في رسالة وجهها الى الجنرال (MENOU) في ٢٤ آب سنة ١٧٩٩ (جاء فيها أن الطير قد فر من وكره) كما طلب فيها الى الجنرال (MENOU) أن يعطيه ايضاحات عن رحيل البطل وصحبه المبجلين وهي عبارة تنضح بالسخرية والتهكم •

وكان كليبر يعتقد أن حملة مصر أكبر خطأ ارتكبته حكومة المديرين وانها حملة فاشلة بسبب ارتجالها وخلوها من الدقة في التنظيم • ولا شك أن كليبر كان مصيبا في حكمه بعد أن اصبح رجال الحملة أشبه بمجموعة بشرية أسيرة منها بقوة محاربة وقد قطعت عليها سبلَ الاتصالَ بالوطن بعد تدمير الاسطول الفرنسي في أبي قير •

....

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي من ١٧٨٩ الى ١٩٥٨ — أميل الخوري وعادل اسماعيل ص : ١٣٠ — ١٣١ •

وكان بونابرت قد غادر مصر دون علم أحد تاركا وراءه جيشا قتل نصفه في حروب سوريا وثورات القاهرة والمماليك وليس في وسع العدد القليل الباقي أن يصمد أمام البريطانيين والترك والروس لان ليس لديه ما يكفي من السلاح والذخيرة ولا مال عنده لتدارك الحال ودفع ما استحق ويستحق للجنود فراحوا يبحثون عن الكسب والرزق بالطرق المحرمة فيسطون وينهبون (١) .

تقطعت أوصال آمال كليبر بوصول النجدة اللازمة اليه من فرنسا لانقطاع المواصلات بينه وبين الوطن الام فقرر الدخول مع العثمانيين في مفاوضات للصلح على أساس جلاء شريف .

٢ = آراء بعض قادة الحملة الفرنسية بصدد عودة بونابرت

وقد كان لعودة بونابرت الى فرنسا بهذه الصورة المفاجأة صدى في نفوس بعض القادة ولا سيما كليبر وأعوانه أمثال تاليان وبوسيلينغ ودوغا (DUGUA) الذين كانوا يرون في الحملة على مصر عملا فرديا أقدم عليه بونابرت سعيا وراء المجد لا تنفيذا لسياسة وطنية وقد انتهى هذا العمل الفردي بتراجع بونابرت عنه وعدم المضي فيه .

لكن فريقا آخر من قادة الحملة كان لا يزال متفائلا

---

(١) ذات المصدر ص ١٣٢ = CHARLES ROUX OPERATION C I T. P. 132

بالنجاح أمثال (MENOU) و (DESAIX) وكـــان يرفض قبول الهزيمة والنزول عند حكم الاعداء ٠

وقد حاول (MENOU) الذي كان قائــدا لموقـع الاسكندرية أن يقنع كليبر بضرورة المفاوضـة مـع الصدر الاعظم لسلخه عن حلفائه فقرر كليبر تعيين الجنرال (MENOU) للقيام بالمفاوضة ووجه له أمـرا بتسليم قيادة موقع الاسكندرية الى الجنرال لانوس والحضور الى القاهرة حيث كان كليبر بانتظاره ولكن الجنرال (MENOU) عندما علم بأن كليبر قد اختـار الجنرال بوسيلينغ كمساعد له في المفاوضـة وكـان بوسيلينغ من محبذي الجلاء عن مصر اعتذر عند ذاك الجنرال (MENOU) عن الحضور الى القاهرة بحجـة أنه لا يملك فلسا واحدا للانتقال من الاسكندرية الـى القاهرة كما أوجس الجنرال (MENOU) خيفـة بـأن الجنرال كليبر مزمع على اللحاق ببونابرت وانه ايضا من محبذي الجلاء ٠

ثم وجـه الجنرال (MENOU) الـى الجنـرال (KLEBER) تقريرا ضمنه رأيه في مصر واهميتها من الناحية الاستراتيجية والاقتصادية وانهـا كافيـة للتعويض عما خسرته فرنسا من مستعمرات في الهند والانتيل (١) وانه لا بأس من التفاهم مع بريطانيـا على ان تترك لها الهند وتجارة الخليج الفارسـي وتمتنع عن ارسال اسطولها الحربي الى البحر الاحمر

....

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي — أميل الخوري وعـادل اسماعيل ص : ١٣٣ ٠

مقابل بقاء الجيوش الفرنسية في مصر • ولم يكن الجنرال (MENOU) ليستبعد امكان اقناع بريطانيا بهذا لان روسيا بدأت تتوسع في المتوسط وليس من صالح بريطانيا أن تتوغل روسيا في الشرق وآسيا •

ولما كان الجنرال كليبر مصمما على المفاوضة مع العثمانيين بغية الجلاء بسلام وكان يبرر تصميمه هذا الى انه تتمة لما شرع به بونابرت في كتب وجهه الى الصدر الاعظم بهذا الصدد في ١٧ آب ١٧٩٩ فقد كتب الى يوسف باشا في ١٧ أيلول ١٧٩٩ رسالة جاء فيها :

••• فليكن لسعادتك مجد عقد الصلح • فالصلح أعظم خدمة يمكن أن تؤديها لوطنك • والفرنسيون لا يخشون اعداءهم •ولا يجزعون من الحرب وهم ما فتئوا يقدمون الادلة على هذا منذ عشر سنين ولكنهم يعتبرون الحرب القائمة بينهم وبين الباب العالي صديقهم التقليدي حربا ضد أنفسهم •

وترانا نبكي من انتصاراتنا لانها تضعفكم وتحد من قوة جيوشكم التي لا بد لها ولنا من الانضمام لنقاتل معا أعداءنا الحقيقيين • ومصر كانت لكم وستبقى لكم • بل هي لكم اليوم أكثر منها بالامس لان المماليك قد أقصوا عن حكمها ولن يحكموها بعد الان • (١)

....

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي — ص : ١٣٤ •

اعتبر الصدر الاعظم رسالة كليبر كما اعتبر كتاب بونابرت دليل ضعف من جانب الفرنسيين ولم ينخدع بمضمونهما فأرسل جوابا على الرسالتين طافحا بالعنجهية التركية قائلا :

أن الفرنسيين اعتدوا على مصر بدون سابق انذار واحتلوا هذا البلد التابع مباشرة للباب العالي ومما يثير العجب أن تكتبوا الي بعد عمل كهذا أن الجمهورية الفرنسية صديقة لنا ... أما وقد بدأ من جانب فرنسا ميل صحيح الى الصداقة القديمة مع الباب العالي فان الصدر الاعظم يقبل أن يعفو عنها ويعيد جميع الفرنسيين الموجودين في مصر الى بلادهم آمنين سالمين (٢) .

تقبل الجنرال كليبر هذا الجواب برحابة صدر محاولا اقناع ناقل هذا الجواب محمد رشدي أفندي وهو أحد القادة العثمانيين بأن مصلحة الفريقين تقضي بألا يصر الصدر الاعظم على أن يتم جلاء الفرنسيين عن مصر فورا لان ذلك يفتح أمام روسيا باب التدخل في مصر كما حرص الجنرال كليبر على أن يصب جسام غضبه على روسيا دون التعرض الى بريطانيا بشيء وأنه كان يعتقد بأن العثمانيين يكنون الصداقة لبريطانيا لما أظهرته من مساعدة لهم .

وما كاد الصدر الاعظم يوسف ضيا باشا يقبل باجراء مفاوضات منفردة مع القائد الفرنسي حتى وجه سدني سميث من سفينته (النمر) الراسية أمام دمياط الى كليبر رسالة ضمنها وجهة نظر بريطانيا في

---

(٢) ذات المصدر ص : ١٣٥ .

موضوع جلاء للفرنسيين ٠

وقد استند سدني سميث فيما تضمنته رسالته الى كتاب تلقاه من اللورد سبنسر في ٦ آذار سنة ١٧٩٩ بصدد جلاء الفرنسيين عن مصر جاء فيه :

أننا سنسهل على الفرنسيين جلاءهم عن مصر بكل الوسائل الممكنة ٠ وأني أرى من واجبي أن أؤكد لبونابرت أننا مستعدون لسماع كل اقتراح معقول ٠ ولما كان الذباب لا يصاد بالخل فعلي أن أقدم له العسل ولن يقتصر تقديمي هذا الجسر الذهبي الى بونابرت وحده وسأسعى لتقديمه بطرق غير مباشرة الى كل من أفراد جيشه (١) ٠

ولما كانت مهمة سدني سميث في البحر المتوسط عسكرية وسياسية معا فقد رأى أن يقف موقفا فعالا أزاء ما سيجري من مفاوضات بين القائد الفرنسي والصدر الاعظم ولهذا فقد وجه الاميرال سدني سميث الى الجنرال كليبر رسالة طويلة نقتطف منها ما يهم الموضوع :

« قال : لما كانت بريطانيا ذات مصلحة سياسية في الامور التي تناولتها الرسالتان ـ ويعني بها رسالة كليبر الى الصدر الاعظم ـ فأن باستطاعتي أن أدلي برأيي في الموضوع سيما وأن المادة الخامسة من معاهدة التحالف الموقعة بين بريطانيا وتركيا في ٥ كانون الثاني عام ١٧٩٩ تنص على أن لا يحق لدولة من الدول المتحالفة أن تعقد صلحا أو هدنة بدون أن تشرك

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي ص : ١٣٦ ٠

حلفاءها في ذلك وتؤمن مصالحهم وسلامتهم • كما نصت المادتان الثامنة والتاسعة من ذات المعاهدة أن الفرقاء المتعاقدين هم في حالة حرب ضد عدو مشترك قد اتفقوا على أن يكونوا يدا واحدة فلا يتم صلح ولا تعقد هدنة الا باتفاقهم جميعا كما تعهدوا بتبادل الرأي وبأن يطلع أحدهم الاخيرين على تفكيره فيما يتعلق بشؤون الحرب ومدتها وشروط الصلح • هذه هي العهود التي تربط الحلفاء • ولا شك يا حضرة الجنرال بأنك ستخرج من قراءة ما تقدم مؤمنا بأن الحكومة العثمانية المعروفة من قديم الزمان بالاستقامة والوفاء لن تنحرف لحظة واحدة عن واجب العمل (١) بالاتفاق مع الدولة التي أتشرف بتمثيلها • أن اقتراحنا على الجيش الفرنسي أن نؤمن له طريقا حرة في حالة جلائه عن مصر قد تجاهلته القيادة الفرنسية حتى اليوم ووصفته بأنه محاولة لافساد افراد هذا الجيش • ولم يكن هدف الذين تقدموا بهذا الاقتراح سوى حقن الدماء والحد من الآلام التي يعانيها جنود منفيون • على أن وقت الافادة من هذا الاقتراح الكريم لم يفت بعد • ولن يجني الفرنسيون من بقائهم في مصر الا مصائب فوق مصائبهم • أن الاقتراح الذي أجدده لكم اليوم لا مرد له الا الروح الانسانية • وفي الاوضاع السياسية الحالية ما يفرض علينا الرجوع عنه • ولكن التقاليد البريطانية توجب على البريطانيين أن يكونوا عند القول الذي أعطوه ولو ان في الوفاء للقول المعطى تأثيراً غير مستحب على مصالحهم الحاضرة • أما

---

(١) ذات المصدر ص : ١٣٧ .

الصلح العام فيجب أن تفهموا جيدا أنه أمر مستحيل الوقوع قبل الجلاء عن مصر وهذا الجلاء أساسي . فكلما أسرعتم فيه أسرعت فكرة الصلح في الرجوع الى العالم (١) .

تلقى الجنرال كليبر كتاب الاميرال البريطاني المدون بمداد القساوة والعنجهية ، برحابة صدر وأرسل جوابا مهذبا الى الاميرال سدني سميث يوافق فيه على الجلاء عن مصر اذا كان هذا الجلاء ثمنا للصلح العام كما جاء في رسالته ما يلي : أن القوى التي بيدي تكفيني لمدة طويلة . ومهما تكن رقابة الاعداء في المتوسط يقظة ودقيقة فأنها لن تمنع وصول المدد الينا أن الغاية التي أسعى اليها هي الصلح والسلم . أن سلامة الامبراطورية العثمانية التي هي أساس التحالف بين بريطانيا والباب العالي هي أيضا موضوع عطف الجمهورية الفرنسية . واذا كنت أقبل أن يكون الجلاء نتيجة لمفاوضات الصلح فأني لا أستطيع قبول الفكرة التي تريد أن تكون مقدمة لهذه المفاوضات وأنهى كليبر كتابه قائلا : لقد حان لامتين قد لا تحب احداهما الاخرى وعدم الحب لا ينفي الاحترام والتقدير أقول لقد حان لامتين هما طليعة الحضارة الاوروبية أن توقفا القتال بينهما (٢) .

عندها أقنع الاميرال البريطاني الصدر الاعظم بأنه من الاوفق أن تبدأ المفاوضات في جو تكون فيه

---

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي — أميل الخوري وعادل اسماعيل ص : ١٣٨ .

(٢) ذات المصدر ص : ١٤١ .

لهما أي لتركيا وبريطانيا ـ الكلمة العليا فيه وقررا القيام بحملة عسكرية من جانب تركيا يلين معها عود القيادة الفرنسية كما اتفقا على أنه في حال فشل الجيش التركي فعندئذ تدخل بريطانيا طرفا ثالثا في النزاع وقد كان الاميرال سدني سميث موقنا بنجاح الحملة التركية وبأن انتصارا تحرزه هذه الحملة على الفرنسيين يمكن تركيا وبريطانيا من املاء شروط الجلاء على الجنرال كليبر ٠

ولهذا فقد أنزل العثمانيون في أول تشرين الاول عام ١٧٩٩ جيوشهم في الساحل المصري عند دمياط لحماية البوارج الانكليزية ولكن القوات الفرنسية ألحقت بهذه الجيوش الهزيمة فردت بعضها وقضت على البعض الآخر ٠ وبالرغم من انتصار الفرنسيين على الاتراك فقد بقي الجنرال كليبر مصرا على متابعة المفاوضات بينه وبين الصدر الاعظم وذلك بالرغم من معارضة الجنرال (DESAIX) الذي حذر الجنرال كليبر من دسائس الاميرال البريطاني وقد جاء في كتاب الجنرال (DESAIX) الى الجنرال كليبر أن لسدني سميث غاية واحدة وهي اقناعنا بضرورة الانسحاب من مصر في أسرع وقت ٠ وأن هذا الرجل راغب في المفاوضة ٠ واذا عدوك طلب شيئا فكن على يقين ان هذا الشيء يؤلمه جدا أن يكون في يدك فعليك الا تجيبه الى طلبه) ٠

الا أن كليبر بقي مصرا على موقفه ومعلنا رغبته في متابعة المفاوضات ٠

وفي ٢٨ تشرين الثاني عام ١٧٩٩ وافق الصدر الاعظم على مبدأ الدخول في المفاوضات وفوض مرغما الاميرال سدني سميث أن يقوم بها بأسم السلطان كما اختار كليبر للتفاوض باسمه كلا من القائدين (DESAIX) وبوسيلينغ وطلب اليهما التشدد في أن يكون الجلاء ثمناللمطالب التالية :

١ = انسحاب الجيش الروسي من الجزر الايونية واعادتها الى فرنسا ٠

٢ = انسحاب الباب العالي من الحلف مع روسيا وبريطانيا والنمسا ٠

٣ = تعهد بريطانيا ببقاء مالطة بيد الجمهورية الفرنسية ورفع الحصار الذي ضربته عليها بعد معركة أبي قير ٠

٤ = انهاء الحرب بين فرنسا وتركيا ٠

٥ = يتم انسحاب الفرنسيين من مصر بكامل معداتهم وأسلحتهم وينقلون الى المرافىء الفرنسية التي يختارونها على سفن تركية لا بريطانية (١) ٠

لقد تشدد الجنرال كليبر بهذه المطالب بعد أن لاحظ تراخيا في صفوف معاونيه وميلا الى القبول

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي — أميل الخوري وعادل اسماعيل ص : ١٤٢ ٠

بالشروط التي يريدها البريطانيون كما كان يود أن يطول أمد المفاوضات علّه يتلقى من فرنسا أخبارا تساعده على معرفة التطورات وقد كان الجنرال كليبر يتوقع بأن سدني سميث يرفض مقترحاته وأن روسيا سترفض الانسحاب من الجزر الايونية دون مقابل كما أن بقية المطالب تتعدى صلاحيات سدني سميث وتتصل بالسياسة العليا .

كما كان كليبر يهدف من وراء هذه الشروط اقصاء تركيا عن حلفائها وعقد صلح منفرد معها دون الرجوع الى حكومته كما فعل بونابرت في معاهدة كامبوفور ميو عقب انتصاره الساحق على النمسا . وبتاريخ ٢٣ كانون الاول سنة ١٧٩٩ اجتمع المندوبان الفرنسيان والاميرال سدني سميث على ظهر دارعته (النمر) لبدء المفاوضات فأعلن المندوبان الفرنسيان أن قائد الحملة الفرنسية مستعد للجلاء عن مصر مقابل اعادة الروس للجزر الايونية لفرنسا .

عندها أرسل سدني سميث الى الصدر الاعظم يوسف ضيا باشا الذي كان يومذاك في يافا بوجوب الرد على الاقتراح الفرنسي بعمل حربي وهو الزحف الى العريش واحتلال قلعتها وقد أراد سدني سميث امتحان أعصاب الجنرال كليبر ومعرفة مدى تمسكه بطلبه فما كان من كليبر الا أن كتب الى الجنرال (DESAIX) يوعز اليه بالتساهل ما استطاع لانهاء المفاوضات .

وحدث في تلك الاثناء أن وردت الى كليبر أخبار

من فرنسا عن الاضطرابات الداخلية فيها وحشد الجيوش الاجنبية على حدودها فأدرك ان التشدد بوجه سدني سميث عمل في غير محله وأن الوضع في فرنسا سيزيد سدني سميث تصلبا في موقفه ولهذا فقد كتب كليبر الى (DESAIX) وبوسييلغ أن يتراجعا عن الشروط السابقة ويربطا الجلاء بشرطين فقط ·

١ = وقوف الباب العالي على الحياد ·

٢ = عودة جيوش الحملة الى فرنسا بحرية تامة (١) ·

٣ = عدم موافقة الصدر الاعظم على اقتراح كليبر ·

الا أن الصدر الاعظم يوسف باشا لم يرضى باقتراح كليبر وأعلمه برسالة أن الباب العالي غير مستعد لتبديل موقفه من حلفائه واعتماد سياسة الحياد وأنه سيواصل الاعمال الحربية ضد الجيش الفرنسي الى أن تقبل قيادته بالجلاء عن مصر دون قيد ولا شرط ·

عندها ثارت ثائرة (DESAIX) وعد تصلب الصدر الاعظم تحديا لكرامة الفرنسيين فكتب الى كليبر يقول : (أن المفاوضة مع العثمانيين الذين يعملون بتعليمات سدني سميث أصبحت لا تطاق فهم يصرون على الجلاء دون قيد أو شرط وهذا ما اعتبره

---

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي — ص : ١٤٤ ·

استسلاما يتنافى وكرامة الجيش الفرنسي وأنا لا صلاحية لي لتوقيع وثيقة استسلام) •

أما رفيقه الجنرال بوسييلغ فلم ير في الامر غضاضة وكان لا يرى في الجلاء بدون قيد او شرط انتقاما من الكرامة والآباء • فكتب الى كليبر رسالة يستحثه فيها على قبول شروط الصدر الاعظم لانه (المنفذ الوحيد الى الخلاص من الازمة العصية (١) •

٤ = اقتناع الجنرال كايبر بضرورة الموافقة على الجلاء

اقتنع كليبر بضرورة الموافقة على الجلاء بدون قيد أو شرط على أن يتم نقل الجيوش الفرنسية الى بلادها على سفن تركية وبجوازات مرور بريطانية وأرسل الى (DESAIX) يطلعه على موافقته وأنه يعتمد عليه في أن لا يكون في اتفاق الجلاء ما ينطوي على معنى من معاني الاستسلام والهزيمة وذيل رسالته بعبارات تكشف عما في قلبه من عداء دفين لبونابرت حيث يقول فيها : عليك أن تواجه الحقيقة وهي أن بونابرت قد ضحى بهذه البلاد قبل أن يغادرها الى فرنسا • وهو لم يهرب منها الا ليوفر على نفسه قبول ما نحن مضطرون الآن الى قبوله • :

....

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي — أميل الخوري وعادل اسماعيل ص : ١٤٥ .

وقد أراد كليبر أن يدحض عن نفسه في الحاضر والمستقبل فكرة الاستسلام فشاور في الامـــر أحــد اصدقائه المخلصين ـ الجنرال (DUMAS) واتفقــا على أن يشرك كليبر في القرار أركان حربه وغيرهم من كبار الضباط فدعاهم الى مجلس حربي عقد في القاهرة في ٣٠ كانون الثاني سنة ١٨٠٠ تقرر فيه : قبول الجلاء عن مصر دون قيد أو شرط . معللين قرارهم بسبب الظروف القاسية التي تمر بها الحملة وعدم ارســال المؤن والمعدات والمساعدات لها رغم نداءات القائــد العام المتتابعة مما جعل مجلس الحرب يؤمــن بــأن المحافظة على مصر لم تعد ممكنة وأن محاولة تأمينها بالنزول مع الاعداء في معركة طاحنة لن تفيد في الواقع شيئا ولو كتب النصر فيها للجيش الفرنسي (١) .

وفي ٢٤ كانون الثاني سنة ١٨٠٠ تم بين العثمانيين والفرنسيين في العريش وضع اتفاق يحدد كيفيــة انسحاب الجيش الفرنسي من مصر بسلاحه وعتــاده في غضون ثلاثة أشهر من تاريخ الاتفاق .

٥ ـ تمنع الاميرال سدني سميث عن توقيع الاتفاق

ولما طلب الى الأميرال سدني سميث أن يوقــع الاتفاق أبى أن يتبنى نتيجة مفاوضاته الطويلة بحجة أن بريطانيا طرف ثالث في النزاع ناسيا قولــه فــي

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي ــ اميل الخوري وعــادل اسماعيل ص : ١٤٦ .

خطابه الى كليبر بتاريخ ٢٦ تشرين الاول عام ١٧٩٩ أن بريطانيا تعتبر نفسها بمقتضى معاهدتها مع الباب العالي الموقعة في ٥ كانون الثاني سنة ١٧٩٩ طرفا أساسيا فيه ٠

ومما لا شك فيه أن سيدني سميث تمنع عن توقيع الاتفاق ليحتفظ لحكومته بحق الرفض وعدم التقيد بأحكام الاتفاق اذا قضت بذلك مصلحتها وتطورات الاحداث ٠

أرسل كليبر صورة اتفاق العريش الى الحكومة الفرنسية في ٢٨ كانون الثاني سنة ١٨٠٠ مرفقة بكتاب مسهب يبرر فيه أقدامه على القبول بالشروط العثمانية لكن حكومة الادارة (المديرين) كانت قد زالت من الوجود بتاريخ ٩ تشرين الثاني سنة ١٧٩٩ وحلت محلها حكومة قنصلية تبوأ بونابرت المركز الاول فيها لانه كان روح الانقلاب وسيفه ودماغه ٠ وكان أول ما فكر به بونابرت هو تدارك أمر الرفاق الذين تركهم في مصر فوجه اهتمامه الى معالجة الازمة المصرية مع الباب العالي ٠ ولهذا طلب الى سفير فرنسا السابق في القسطنطينية السفر الى الشرق والاتصال بالصدر الاعظم ومفاوضته في بقاء الجيوش الفرنسية في مصر بموافقة السلطان لقاء امتيازات يعترف له بها ٠ ولكن قبل أن يغادر السفير فرنسا وصلت أخبار اتفاق العريش الى باريس فألغيت مهمته (١) وقد حاول بونابرت في كانون الثاني عام

---

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي — أميل الخوري وعادل اسماعيل ص : ١٤٧ ٠

١٨٠٠ ايفاد عدد كبير من الجنود والمعدات من برست الى الاسكندرية ولكن أسطولا بريطانيا ضخما كـان يسد عليه الطريق قوامه سبع وأربعون بارجة ضخمة فاضطر بونابرت الى العدول عن فكرته .

٦ = معارضة بعض القادة الفرنسيين لاتفاق العريش

وقد ظهر بين قادة الحملة في مصر من يعارض القبول بشروط اتفاق العريش لانها لم تفرض في الميدان ولم تكن نتيجة لمعركة خاسرة وكـان على رأس هؤلاء الجنرال (MENOU) فكتب الى بونابرت في ٢٤ شباط سنة ١٨٠٠ رسالة يحتج فيها على توقيع اتفاق العريش وختمها قائلا : لا ريـب في أن الروس أو البريطانيين سيصبحون أسياد البلاد بعد جلائنا عنها

وأخذ عدد المعارضين يزداد بين القادة وأعضاء البعثة العلمية تدفعهم الى ذلك فكرة التقرب من بونابرت الذي كان صاحب فكرة احتلال مصر أما كليبر فقد كان للانقلاب الذي حصل في باريس صدى مرير في نفسه حيث خشي أن تقع في يد بونابرت التقارير التي أرسلها الى حكومة المديرين ويحمل بونابرت كافة التبعة فيما آلت اليه حالة الفرنسيين في مصر . كما جزع من ردة الفعل التي سيحدثها اتفاق العريش في نفس بونابرت حيث أن هذا الاتفاق يهدم بنصه وروحه الصرح الذي أراد بونابرت تشييده في الشرق لمصلحة فرنسا ولمجده الشخصي غير أن رباطة الجأش لم

تفارق كليبر ولم تكن خشيته الا عابرة فقد عاد يحمل بونابرت تبعة حملة مصر ويهزأ باعتلائـه عرشـس القنصلية قائلا في رسالة وجهها الى صديقه الجنرال (DUGUA) أرى أن تغييرات جذرية قد حصلت في جهاز الحكم بفرنسا • ويظهر أن ليبيدوس وأنطونيوس قد طردا وان أغسطس الجديد يريد ان يستقل بالامر فعسى أن نتمكن من الاحتفاظ بالجمهورية الفرنسية وبكلمات حرية مساواة أخوة على الاوراق التي نكتب عليها رسائلنا ••• وكلما أمعنت النظر في الازمة التي أنهيتها بتوقيعي ـ اتفاق العريش ـ زدت يقينا بأن الاجيال القادمة ستحيط ذكراي بالتقدير والاحترام والشكر لما أظهرته من شجاعة واقدام لوضع حد معقول لمغامرة جنونية خذلت صاحبها أعصابه وتغلب فيه الجبن علىالاقدام فتهرب من نتائجها وذهب تاركا أعباءها على كاهل حلفه • واذا (الملك الجديد) نظر الى الامر وكان عادلا فلا بد له من الاعتراف بأن ما أقوله هو الحق بعينه • أما اذا كان غير عادل فالويل له • وهذا أصغر همومي وأخفها (١) كان كليبر يصرح علنا بأن اقامة مستعمرة في القطر المصري لدولة لا تملك شيئا من عناصر استقرار الحكم ولا قوة بحرية لديها ولا مال يمكنها من مواصلة الحرب ليس سوى ضرب من الجنون • ولما كان بين القادة من يخلص الود للجنرال ويعمل جاهدا في سبيل عدم حصول انشقاق بين صفوف الجيش من جراء

....

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي ـ اميل الخوري وعادل اسماعيل ص : ١٤٩ •

توسع شقة الخلاف بين الجنرال كليبر وبونابرت أمثال الجنرال (DUGUA) فقد كتب هذا الاخير رسالة الى بونابرت يشرح له الظروف السيئة التي أجبرت كليبر على توقيع اتفاق العريش وأنهى رسالته بأنه يتعهد في حمل كليبر على نقض الاتفاق اذا وصلت اليه من فرنسا المساعدات والامدادات اللازمة للوقوف بوجه العثمانيين والبريطانيين •

وقف بونابرت موقف المتردد من اتفاق العريش وقدر حراجة موقف الجنرال كليبر في مصر وأدرك في قرارة نفسه بأن الواجب كان يقضي عليه بالبقاء مع جيشه ويتحمل المسؤولية الملقاة على عاتق كليبر بدلا من مغادرته مصر في أحرج الظروف •

أما تاليران فكان من مؤيدي الجنرال كليبر ولم يتقاعس هو وعدد من أصحاب بونابرت في تقديم النصح الى بونابرت بالا يتعرض الى الجنرال كليبر ذاك الرجل العنيد الصريح المستكبر فاقتنع بونابرت وتقبل النصح برحابة صدر (١) •

٧ ـ عرقلة البريطانيين لاتفاق العريش

شاءت الاقدار ان يعتقل الاسطول البريطاني احدى السفن الفرنسية فعثر على رسائل من كليبر الى حكومته تتضمن وضعا مؤلما لحالة الجيش الفرنسي في مصر وقلة عدده وكثرة الامراض القاسية

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي ـ أميل الخوري وعادل إسماعيل ص : ١٥٣ •

التي يتعرض لها ومنها الطاعون • فرفعت هذه الرسالة الى لورد كايت أمير البحر الذي أرسلها الى وزارة البحرية البريطانية •

وكان أن وصل في تلك الاثناء الى القسطنطيدية سفير بريطانيا الجديد (لورد الجين) وبعد ان اطلع على الحالة العامة في الشرق ووقف على رغبة الاتراك في التفاهم مع الفرنسيين وجه رسالة الى وزير الخارجية البريطانية (لورد غرانفيل) يعارض فيها مبدأ جلاء الفرنسيين عن مصر وهم فيها منفيون ويعدهم أسرى حرب ويحذر من عودتهم بأسلحتهم وعتادهم الى فرنسا فيزيدون بونابرت قوة فيمعن في متابعة حروبه • وكان الاميرال نلسن يشاطر سفير بريطانيا رأيه في اعتبار ما تبقى من الحملة الفرنسية في مصر أسرى حرب وقد وجه عدة رسائل الى رؤسائه جاء فيها :

أنه من الخطأ الفادح أن يسمح للجيوش الفرنسية الأسيرة في مصر بأن تعود حرة طليقة الى فرنسا فتزيد جيوش بونابرت قوة ••• لقد جاء الفرنسيون الى مصر بملء اختيارهم وسيبقون فيها ما دامت قيادة الاسطول بيد نلسون • فنلسون لن يوافق أبدا على أن يغادر جندي فرنسي واحد مصر أو أن تخرج منها سفينة فرنسية واحدة (١) ومن المعروف عن نلسون انه يحقد على الفرنسيين وهذه النبذة من

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي — أميل الخوري وعادل اسماعيل ص : ١٥٢ •

رسائله تظهر حقده الدفين . أما سدني سميث فقد انبرى يدافع عن وجهة نظره حيال الذين عارضوا اتفاق العريش وذلك بغية دحض الاتهامات الموجهة اليه قائلا : أن نقل الجيش الفرنسي من الاسكندرية لن يتم دفعة واحدة ولن يتم انزاله في مكان واحد بل سيجري نقله على دفعات وسيتم انزاله في جميع المرافىء الايطالية والفرنسية وبذلك يصعب الاستفادة منه فضلا عن بقائه مدة أربعون يوما على ظهر البواخر وفقا لنظام الحجر الصحي . وهناك سبب هام كان سدني سميث يعلق عليه أهمية كبرى ويعمل على تحقيقه وهو أنه كان يرى في اتفاق العريش وسيلة لعودة الجنرال كليبر الى فرنسا فيقف بوجه طموح بونابرت وكان سدني سميث أكثر المطلعين على الخلاف المزمن بين بونابرت وكليبر وواقفا على العداوة المستحكمة بينهما وكان يرى في القائد الالزاسي الصريح الحاد اللسان خصما عنيدا للقائد الكورسكي وقد عارض حلفاء بريطانيا والروس في طليعتهم اتفاق العريش وقدم السفير الروسي في لندن فور نتزوف احتجاجا شديد اللهجة الى اللورد غرانفيل باسم القيصر ولم يتورع فيه عن نعت الاميرال سني سميث (بالخبل والجنون) (٢) .

لمجمل هذه الاسباب اضطرت الحكومة البريطانية الى ارسال تعليمات الى اللورد كايت تصر فيها على رفض مبدأ الجلاء وعلى استسلام الجيش الفرنسي .

(٢) ذات المصدر ص : ١٥٣ .

تلقى اللورد كايت هذه التعليمات وأحالها الى الاميرال سدني سميث الذي تقبلها بخيبة أمل وكتب الى الجنرال كليبر يطلعه على قرار الحكومة البريطانية • كما أرسل السفير البريطاني في الاستانة سكرتير سفارته جون فيليب موريز الى الصدر الاعظم في العريش ليقيم لديه كمستشار يطلعه على ما قررته وتقرره الحكومة البريطانية •

وما كاد كليبر يقف على نوايا البريطانيين حتى أوفد القائدين (DUMAS) وغلوتيه الى الصدر الاعظم لبحث موقف البريطانيين المفاجىء وليفهما الصدر الاعظم يوسف باشا بأنه لا يمكن لرجال الحملة الجلاء عن مصر الا بعد أن يعلن قائد الاسطولين الروسي والبريطاني في المتوسط قبول حكومتيها اتفاق العريش وتوقيعهما اياها وكان من صالح كليبر أن يطول وقت المفاوضات ليتمكن من تحضير قواته استعدادا لمعركة كان يرى أنه لا مفر منها • وفي تلك الاثناء حضر ضابط بريطاني الى مقر الجنرال كليبر وسلمه رسالة من أمير البحر لورد كايت مؤرخة في ٨ كانون الثاني يقول فيها : (تلقيت من صاحب الجلالة البريطاني أوامر صريحة بأن لا أتفق على شيء مع الجيش الفرنسي الذي تضطلعون (١) بقيادته في مصر وسوريا الا اذا سلم رجاله أنفسهم كأسرى حرب ووضعت قيادته بيد الدول المتحالفة جميع سفنها ومؤنها ومعداتها) •

---

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي — أميل الخوري وعادل اسماعيل ص : ١٥٤ .

اكتفى كليبر بالاطلاع على هذه الرسالة بانتظار نتيجة مباحثات موفديه مع الصدر الاعظم • ولما ورد تقرير من هذين الموفدين يطلعان كليبر على تـردد الصدر الاعظم في موقفه حيال اتفاق العريش استشاط غيظا وكتب في ١٩ آذار الى الصدر الاعظم ان المجلس الفرنسي قرر عدم تسليم القاهرة الى الجيش التركي كما فصى اتفاق العريش الى أن يتراجع البريطانيون عن موقعهم • وفي ٢٠ آذار شن كليبر هجوما على الجيش العثماني المرابط عند هليوبوليس فانهزم العثمانيون (١) الى الصحراء وفي ٥ نيسان عقد كليبر مع المملوك مراد بك حاكم مصر السابق معاهدة يعترف به فيها باسم الحكومة الفرنسية حاكما على صعيد مصر لقاء تعهده بدفع رسوم أميرية للخزينة الفرنسية وباقامة حامية فرنسية في مرفأ القصير يساعدها فريق من جيش المماليك •

٨ = نتائج موقعة هليوبوليس

لقد كان للرسالة التي وجهها سدني سميث الى الحكومة البريطانية وقع شديد فشعرت هذه الحكومة بخطأها في الاصرار على استسلام الجيش الفرنسي • ومما قاله سدني سميث (أن الشروط الاخيرة لا يمكن أن يتقبلها أي جندي يتفهم معنى الكرامة فكيف يسعى الى فرضها على قائد ككليبر مشهور بصلابة

(١) السياسية الدولية في الشرق العربي — أميل الخوري وعادل اسماعيل ص : ١٥٥ •

عوده وانفته واعتداده بنفسه وبأنه لم يقف يوما من أحد حتى من قائده الاعلى ورئيس دولته موقف الرجل المستضعف المستسلم ٠ وأن الرجل الذي لا ينحني أمام بونابرت لا ينتظر منه أن يحني رأسه أمام عدو يضمر له الكره والحقد والعداء (٢) ٠

٩ ـ تأثير رسالة سدني سميث في الحكومة البريطانية

تبين للحكومة البريطانية على ضوء الاختبار أن التعليمات التي زودت بها أمير البحر كايت غير عملية فأعادت النظر بها وأرسلت الى أمير البحر كايت في ٢٨ آذار سنة ١٨٠٠ تعليمات سرية جاء فيها : (أن صاحب الجلالة لا يوافق على شروط الاستسلام التي فرضت على الحملة الفرنسية في مصر ٠٠٠ ويريد جلالته أن نتقيد تقيدا تاما بالقانون العام وبالوفاء بالعهود ٠ ويرى أنه من الواجب الا يقوم الضباط بأي عمل لا يكون منطبقا على العهد الذي قطعه سدني سميث باسم جلالته ولو كان هذا العهد منبثقا عن خطأ في التقدير أو شطط في الحكم ٠٠٠

ان جلالته لا يعتبر نفسه ملزما بالسماح لضباطه بأن يسهموا فيه عمليا وبأن يساعدوا في تنفيذه بتقديم وسائل النقل الاخرى ٠ اما اذا طلب اليكم ضمان حرية المرور لسفن ترسل من فرنسا الى مصر لنقل الجيش الفرنسي عملا بنصوص الاتفاق ،

---

(٢) ذات المصدر ص : ١٥٦ ٠

فلسيادتكم أن تمنحوا جوازات المرور مع ابداء التحفظات الضرورية واتخاذ الاحتياطات اللازمة (١) . كتب على الفور أمير البحر الى الجنرال كليبر يعلمه بالموافقة على ترحيل الجيش الفرنسي من مصر فاحتفظ كليبر بهذه الرسالة ولم يطلع أحدا عليها .

الا أن كليبر لم يكن لينظر بعين الرضى الى اعلان موافقة البريطانيين على جلاء الحملة الفرنسية ويعتقد بأن بريطانيا تبيت له « خدعة الحرب » بعد أن وقع بين يديه وثائق سرية في أوراق المستشار البريطاني لدى الصدر الاعظم بعد معركة هليوبوليس وهي أن نية بريطانيا كانت في أن يلقى القبض على عناصر الحملة من قبل الاسطول البريطاني أثناء عودة هذه العناصر الى فرنسا .ويؤيد سوء نية البريطانيين هذه مضمون رسالة وجهها أمير البحر كايت الى الجنرال بوسييلغ الذي كان قد أرسل الى أمير البحر يستفسر فيها عن العراقيل (١) التي يقيمها البريطانيون في طريق عودة الحملة الفرنسية الى وطنها ومن المعلوم أن الجنرال بوسييلغ كان شديد التحمس لفكرة الجلاء عن مصر . فقد طالب أمير البحر كايت في رسالته : (ألا يعود الجيش الفرنسي دفعة واحدة والا يتم نقله على بوارج حربية او سفن مسلحة كما طلب الى الجنرال كليبر بالفعل أن يقطع

....

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي ج ١ ف ٣ ص : ١٦٠

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي — أميل الخوري وعادل اسماعيل ص : ١٦٠ .

له عهد الشرف بأنه وجيشه لن يقوما بأي عمل عدائي ضد الدول المتحالفة) •

اما اللورد بوكنجهام شقيق اللورد غرانفيل واحد كبار الرجال العسكريين فكان يؤيد فكرة جلاء الفرنسيين عن مصر على سفن بريطانية لنقلهم الى أحد مرافىء شبه جزيرة القرم وتسليمهم أسرى الى الروس •

الفصل السادس

مصير الحملة الفرنسية في مصر بعد مقتل كليبــــر

١ ـ مقتل كليبر

وفي أدق الظروف العسكرية والسياسيــة التــــي واجهتها الحملة : فالاسطولان البريطاني والتركــــي يسيطران على الساحل المصري في المتوسط والصـدر الاعظم يوسف باشا مرابط بجيشه اللجب عند الحدود الشمالية الشرقية ، واتفاق العريش الذي كان كليبر بسببه هدفا لانتقادات واتهامات أساءت الى كرامته العسكرية يتأرجح بين الرفض والقبول ، في هذه الاثناء اغتيل كليبر من قبل شاب يدعى سليمان الازهري وقد تعددت الآراء بصدد اقدام هذا الشاب على اغتيــال الجنرال كليبر فمن قائل أنه عميل لدولة اجنبية ومـن قائل أنه مسلم شديد الايمان أبت عليه نفســـه أن يرضى بقيام الاجانب حكاما مطلقين في بقعة من بلاد الاسلام • وقد أعدم هذا الشاب بعد أن ذاق ضــروب العـــذاب •

٢ ـ تسلم الجنرال (MENOU) قيادة الجيش الفرنسي في مصر

لما كان الجنرال (MENOU) اقدم قائد في الرتبة بين القادة الفرنسيين في مصر فقد تسلم قيادة الحملة بعد مقتل الجنرال كليبر بموجب قرار صدر عن بونابرت بتاريخ ٦ أيلول سنة ١٨٠٠ ٠ ولئن كان يعد اداريا ممتازا فلم يكن ليتمتع بالصفات العسكرية كتلك التي كان يتمتع بها بونابرت وكليبر ٠ ولم يكن محبوبا كثيرا من الضباط الكبار كما أنه لم يكن شعبيا حيال الجند لقد كان الجنرال (DAVOUT) أصلح لتسلم القيادة بعد كليبر ولكن بونابرت قد أعاده من مصر كما أعاد غيره من الضباط الاكفاء (١)

وقد كان الجنرال (MENOU) من ممثلي الفكرة الاستعمارية في مصر وممن عارضوا اتفاق العريش لانهم رأوا فيه انتقاصا من كرامة الجيش الفرنسي ٠ ولكن ميوله هذه لم تحل دون تفهمه لنفسية جنوده كما خشي ردة الفعل في صفوف الجيش اذا كشف عن رأيه وميوله فرأى بعد تسلمه القيادة أن يدلي ببيان الى الجيش يشرح له فيه أسباب الحملة على مصر وغايتها وهو بيان ٢٤ حزيران سنة ١٨٠٠ قال فيه : « لقد كان أعداء الجمهورية الفرنسية مصممين على احتلال مالطة ومصر فرأت الحكومة الفرنسية أن تفسد عليهم غايتهم وتسبقهم الى احتلال هذين البلدين

(١) ـ NAPOLEON T.I FRIEDRICH M. KIRCHEISEN P.183 - 185.

وهكذا فعلت • أن الفرنسي قد ذهب في العالم مثلا في التضحية والطاعة لرؤسائه فعليه أن يحافظ على ما له من سمعة حسنة ويحتفظ بالطاعة والتضحية أساسا لحياته وموقفه في مصر • أن الاتفاق الذي وضع في العريش لا يمكن أن يقبله هذا الجيش لان فيه ما يتنافى وكرامته • وأن تقرير قبوله أو رفضه يجاوز صلاحية كل منا وللحكومة وحدها حق قبول هذا الاتفاق أو رفضه » •

ولئن يكن MENOU قد قطع الطريق على كل محاولة تقوم من جانب تركيا أو بريطانيا لاستئناف المفاوضات في الجلاء وأحال مصيره الى الحكومة المركزية حيث أعرب عن ذلك في رسالة وجهها الى الصدر الاعظم جاء فيها : أجد لزاما علي ان أقول لسموكم أني لن أستطيع تنفيذ أي اتفاق تم عقده أو سيتم الا بعد أن توافق عليه حكومة الجمهورية الفرنسية وللباب العالي الآن سفير لدى حكومتي فلسموكم أن تأمروه بمفاوضتها (١) • ولما لم يشأ أن يتحمل تبعة قطع كل مفاوضة في مصر فقد ضمن كتابه العبارة التالية : ولكن اذا رغبتم في أن تجري المفاوضات هنا عوضا عن باريس فاني على أتم الاستعداد للنزول عند رغبتكم على أن تبقى موافقة حكومتي شرطا أساسيا للتنفيذ

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي ج ١ أميل الخوري وعادل اسماعيل ص : ١٦٥ •

٣ = موقف السلطان والصدر الاعظم
أزاء فرنسا

أيقن السلطان سليم الثالث والصدر الأعظم أن بريطانيا تهدف أولا وأخيرا الى تأمين مصالحها دون الالتفات الى مصالح الدولة العثمانية وأدركا أن موقف الحكومة البريطانية واغتيال الجنرال كليبر وتسلم الجنرال (MENOU) قيادة الحملة ، كل هذه الامور أضعفت الامل بتسوية النزاع بين فرنسا وتركيا . فبات السلطان ميالا للتفاهم مع فرنسا بعد أن لاحظ أن موقف بريطانيا أزاء اتفاق العريش دليل على الاستهتار بالباب العالي وبكرامة الصدر الاعظم وأدرك أن نوايا بريطانيا تتوجه الى ابقاء الحرب بين تركيا وفرنسا .

٤ = تكليف السلطان سليم الثالث للمعتمد السياسي البروسي بشأن حسم النزاع بين تركيا وفرنسا

عقد السلطان سليم الثالث مجلسا من أركان الدولة للاتفاق على الاساليب الواجب اتباعها للتفاهم مع حكومة باريس فتم الاجماع على أن يكتب الباب العالي الى ملك بروسيا بواسطة كنوبلسدروف معتمده السياسي في القسطنطينية يرجوه التوسط ، سرا لدى حكومة باريس للتقارب بين الباب العالي وباريس

والوصول الى حل للقضية المصرية (١) ٠

وبذات الوقت الذي أرسل فيه الباب العالي رسالة الى ملك بروسيا أرسل تعليمات الى أمير البحر العثماني حسين المرابط على السواحل المصرية بأن يتصل بالجنرال (MENOU) ويلح عليه في اتمام المفاوضات بشأن الجلاء وعقد الصلح ٠ كما أرسل تعليمات مماثلة الى الصدر الاعظم في العريش ٠

٥ = موقف بونابرت أزاء الاوضاع في مصر

وكان بونابرت لا يزال مصرا على الاعتقاد بأن احتلال مصر وبقاء جيش فرنسي قوي فيها كانا وما يزالان من الامور التي لا بد منها لصون مصالح فرنسا الاقتصادية والعسكرية وأن لهذين الامرين تأثيرا كبيرا على مجرى الحرب في أوروبا وفي حال الاضطرار للجلاء عن مصر فيجب أن يتم ذلك وفقا لصلح شريف مع بريطانيا (٢) ٠

٦ = صدى هزيمة العثمانيين في معركة هليوبوليس في باريس

على أثر وصول نبأ هزيمة العثمانيين في معركة هليوبوليس كتب وزير الحربية كارنو الى كليبر رسالة

---

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي ج ١ أميل الخوري وعادل اسماعيل ص : ١٦٦ ٠

(٢) السياسة الدولية في الشرق العربي ج ١ — أميل الخوري وعادل اسماعيل ص ؛ ١٦٨ ٠

مشجعة يقول فيها : أن القنصل الاول يرجو ويأمل أن توفق في تدعيم مركزك وأن الاتراك أميل الى فكرة بقائك في مصر كصديق ومعاون لهم منه الى فكرة جلائك عنها ليحل محلك البريطانيون) الا أن كتاب كارنو وصل الى القاهرة بعد اغتيال كليبر • فاستلم الجنرال (MENOU) الرسالة وشرع بتنظيم أمور مصر الداخلية والمالية والادارية حيث كان هذا القائد من الذين يعتمد عليهم بونابرت لتنفيذ سياسته • وأن رسالته التي بعث بها الى وزير الحربية في أول تشرين عام ١٨٠٠ أصدق دليل على شدة تحمسه لابقاء مصر بيد الفرنسيين •

وقد جاء في هذه الرسالة : ليس في العالم قوة تستطيع ان تنتزع مصر من يد الجمهورية ولن أخرج منها الا بأمر من الحكومة • ولن تقع في يد احد الا اذا قتل جنودي عن بكرة أبيهم (١) •

٧ = محاولات بونابرت في تموين حملة مصر

آثر بونابرت الاعتماد على الطرق الدبلوماسية في لندن والقسطنطينية عله يتمكن من عقد هدنة بحرية مع الاولى وصلحا مع الثانية وذلك عندما رأى أنه من المستحيل توصيل المؤن والذخائر الى مصر ومالطة • فأوفد الى لندن اوتو معتمدا سياسيا لوضع اتفاق حول تبادل الاسرى وعقد هدنة بحرية عله بذلك

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي — ج ١ ص : ١٦٩ •

يتمكن من ارسال خمسة آلاف جنديا فرنسيا الى مصر مع العتاد والمؤن اللازمة ٠

٨ = رد اللورد غرانفيل على عرض اوتو

وفي ٤ أيلول أبلغ اللورد غرانفيل قرار الحكومة البريطانية الى المعتمد الفرنسي اوتو أن اقتراحه لم يلق قبولا لدى الحكومة البريطانية ولن يسمح بتموين الجيش الفرنسي عن طريق البحر الا بالقدر الذي يضمن عدم الافادة منه لتعزيز وسائل الدفاع أي أن لا يشمل الا المواد الغذائية يحدد كمياتها مفوضون معينون وعلى أن يتم التموين مرة كل اسبوعين ٠

وفي ١١ أيلول أرسل تلليران تعليمات مشددة جديدة الى اوتو لعقد هدنة بحرية مع بريطانية فبقي اللورد غرانفيل مصرا على عناده وعلى رفض كل هدنة تسهل تموين الجيش الفرنسي في مصر ٠

٩ = استسلام حامية مالطة

وأثناء ذلك وصلت الى باريس ولندن أنباء استسلام حامية مالطة الى قائد الاسطول البريطاني الذي كان يحاصر هذه الجزيرة منذ أواخر ١٧٩٨ فاقتنع بونابرت عند ذاك أن الوصول الى حل لا يحقق مصلحة بريطانيا أمر مستحيل ٠

ز ـ آثار حملة بونابرت على الصعيد الدبلوماسي في اوروبا

١ = مساعي تلليران في اقناع بونابرت بضرورة التعاون مع روسيا

بذل تلليران وبورغوان وزير فرنسا المفوض في الاستانة جهودا قصوى في سبيل اقناع بونابرت بضرورة التعاون مع بولس الاول قيصر روسيا والسلطان سليم الثالث للحد من سيطرة بريطانيا وجبروتها وقدم ديكورش في أول تشرين الثاني سنة ١٨٠٠ الى بونابرت تقريرا أنهاه بالعبارة التالية « قد تكون الطريق الفضلى للوصول الى صلح مع الباب العالي هي الطريق التي تمر بروسيا (١) .

٢ = المفاوضات السرية بين بونابرت والباب العالي :

استدعى بونابرت السفير العثماني في باريس وسلمه رسالة كلفه بنقلها الى السلطان سليم الثالث ويطلب بونابرت فيها الى السلطان تجديد التحالف القديم بين الدولتين أو تكليف سفيره في باريس لاجراء

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي ـ ج ١ ـ اميل الخوري وعادل اسماعيل ص : ١٧١ .

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي ـ ج ١ ـ أميل الخوري وعادل اسماعيل ص : ١٧١ .

مفاوضات لعقد الصلح كما كلف بونابرت القائم بالاعمال في القسطنطينية روفن ووزيري اسبانيا وبروسيا المفوضين لدى الباب العالي باجراء مفاوضات سرية مع هذا الاخير فوعد السلطان بأن تركيا ستنهج سبيل السلم مع فرنسا ولكنه أضاف بأن ظواهر المحالفة مع بريطانيا تقضي بابقاء الصدر الاعظم على رأس الجيش في سوريا ريثما يتم توقيع صلح نهائي بين الاستانة وباريس ٠

٣ ـ موقف قيصر روسيا من عروض بونابرت

لقد أعجب قيصر بروسيا بولس الاول بعبقرية بونابرت ٠ كما انصاع هذا الاخير لنصيحة تلليران وبورغوان وعمل برأيهما فافرج عن سبعة آلاف جنديا روسيا كان قد أسرهم في سويسرا وأعادهم الى القيصر مع أسلحتهم وأعلامهم وكتب الى قيصر روسيا في ٢١ كانون الاول سنة ١٨٠٠ يقول : انه يأمل أن تتوحد جهود أكبر دولتين في أوروبا اي روسيا وفرنسا لفرض الصلح والحد من تفاقم الحالة ومن نفوذ بريطانيا ٠ فكان جواب بولس الاول أنه يؤيد السياسة الجديدة بين روسيا وفرنسا وأصدر أوامره ـ ليقرن القول بالفعل ـ بتحصين سواحل البلطيق ـ لرد الاسطول البريطاني كما طلب الى شقيق لويس السادس عشر والمطالب بعرش فرنسا أن يغادر روسيا حيث كان يقيم منذ معاهدة كامبوفورميو ٠

٤ ـ التحالف الجديد

وفي سبيل التفاهم مع فرنسا قام بولس الاول

بضم بروسيا والسويد والدانمارك تحت لوائه في تحالف جديد عقد في ١٦ كانون الاول سنة ١٨٠٠ عرف بحلف الحياد المسلح وكان لهذا الحلف غايتان :

- الغاية الظاهرة حماية حقوق الدول المحايدة ٠

- الغاية الخفية ، الحد من سياسة التوسع البريطاني ذلك أن بريطانيا كانت تقوم بتفتيش السفن المحايدة بحجة منعها من نقل بضائع الى الأعداء ٠

٥ = التقارب بين القيصر وبونابرت

تصلب بولس الاول في موقفه أزاء الحملات التفتيشية التي كانت بريطانيا تشنها على السفن المحايدة معتمدا على ما كانت قيصرة روسيا كاترين الثانية قد أعلنته عام ١٧٨٠ عن مبدأ حرية البحار وعلى معاهدة مورتفونتين التي عقدها بونابرت مع الولايات المتحدة الاميركية في ٣٠ أيلول عام ١٨٠٠ والتي يعلن فيها الطرفان تمسكهما بحرية الملاحة وتحريم تفتيش السفن التجارية المحايدة ٠ وقد تألبت دول أوروبا الشمالية حول روسيا للدفاع عن حلف الحياد المسلح وقوي التقارب بين بونابرت والقيصر فاستغل بونابرت هذا الظرف وطلب الى القيصر اقناع السلطان بأن مصلحته تقضي بابقاء فرنسا في مصر (١) ٠ وقد وجه بونابرت الى القيصر

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي — ج ١ — اميل الخوري وعادل اسماعيل ص ١٧٣ ٠

رسالة في ٢٧ شباط سنة ١٨٠١ جاء فيها : انه تم وضع تصميم القناة التي ستصل بحار الهند بالبحر المتوسط وليس حفر هذه الطريق البحرية بالامر الصعب ومتى تم فان التجارة الروسية ستفيد افادة كبيرة • وكأنما أراد بونابرت بأن تأييده لسياسة فرنسا لن يكون مجانيا بل أنه : سيجني ثمرته في امتداد تجارة بلاده الى المتوسط والهند •

٦ ـ اتفاق بونابرت والقيصر سرا على اقتسام الامبراطورية العثمانية

تطورت العلاقات بين بونابرت والقيصر الى اتفاق سري على اقتسام الامبراطورية العثمانية كما اتفقا على تحديد حصة النمسا من الغنيمة •

وقد تم الاتفاق على الصورة التالية :

- تكون حصة فرنسا ـ مصر وسوريا وفلسطين
- وحصة النمسا فلاكيا وصربيا والبوسنة والهرسك •
- وحصة روسيا مولدافيا وبلغاريا وأقليم الروملي والقسطنطينية •

كما اتفق بأن تفيد بروسيا من هذا الاتفاق وتأمينا لنجاحه تكون حصتها = هانوفر ومونستر والبادربورن من الممتلكات البريطانية •

٧ ـ مطالبة الروس للبريطانيين باخلاء جزيرة مالطة واعادتها اليهم

بعد احتلال الفرنسيين مالطة وخروج هومبش حاكمها منها سنة ١٧٩٨ انتخب بولس الاول أميرا على الفرسان الذين كانوا يحكمون الجزيرة • ولما كانت بريطانيا قد احتلت مالطة بعد انتزاعها من الفرنسيين في أيلول عام ١٨٠٠ قام وزير القيصر روستوبشين يطالب بريطانيا باخلاء الجزيرة واعادتها للفرسان أصحاب الحق فيها • ثم على أثر عقد الاتفاق السري بشأن اقتسام الامبراطورية العثمانية بين بونابرت وبولس الاول قام هذا الاخير يطالب بريطانيا باعادة الجزيرة اليه بوصفه رئيس الفرسان المنتخب (١) • كان بونابرت يبغي من وراء ذلك غرس بذور الخلاف بين روسيا وبريطانيا لعلمه أن هذه الاخيرة لن تتخلى لروسيا عن مالطة بعد أن وقفت على نيات روسيا التوسعية • فكان أن رفضت بريطانيا النزول عند رغبة القيصر الذي اعتبر هذا الرفض اهانة شخصية•

اغتنم بونابرت التباعد بين بريطانيا وبولس الاول فشجع القيصر على تحريم مرافئه في البحر الاسود على التجارة البريطانية وعلى احتلال صقلية بأسطوله الذي كان يرابط في الجزر الايونية كما نصحه بالتوسع نحو الهند •

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي ـ ج ١ ـ اميل الخوري وعادل اسماعيل ص : ١٧٤ •

قبول القيصر لنصائح بونابرت

لاقت نصائح بونابرت عند بولس الاول أذنا صاغية فأوعز القيصر الى القائد الروسي الجنرال اورولوف بالسير الى وادي الهندوس فلم يلاق القائد الروسي مصاعب تذكر في بلاد فارس ففشي القسم الشمالي منها وتقدم الى سواحل بحر الخزز والبحر الاسود واحتل باكو وباطوم وغدا يشكل خطرا على الهند وفارس وتركيا معا ٠

٨ = مصرع بولس الاول يخدم مصالح البريطانيين

قتل بولس الاول خنقا ليل ٢٣ - ٢٤ آذار سنة ١٨٠١ وفي ٢ نيسان انتصر الاميرال نلسون على الاسطول الدانمركي في كوبنهاغن ٠ وعاد أعداء فرنسا في روسيا الى وصل ما قطع بين بطرسبورغ ولندن ٠ وقام أصدقاء بريطانيا من الساسة الروس يوغرون صدر القيصر على الفرنسيين الذين يعملون للاطاحة بالملكية وتقويض العرش ٠ كما أن بونابرت لم يأل جهدا في متابعة مساعيه أزاء القيصر الجديد فأوفد اليه الجنرال دوروك لاقناعه بمتابعة سياسة سلفه فيما يتعلق بمصر والمسألة الشرقية كما تتعهد فرنسا بمساندته في تحصيل مطاليبه في ألمانيا وتقوية حلفاء روسيا في أوروبا ٠

وقد تمكنت بريطانيا من الوقوف على أسرار الاتصالات التي جرت بين بونابرت وبولس الاول كما

أن السلطان سليم وبعض رجال السياسة في روسيا كانوا ينظرون بحذر وقلق شديدين للتقارب بين روسيا وفرنسا ويعتقدون بأن تقاربا كهذا لن يكون الا على حساب تركيا • ولم يطل الوقت بالاتراك حتى وقفوا على سر الاتفاق بين روسيا وفرنسا على اقتسام امبراطوريتهم فلم يكن لهم من وسيلة سوى الاعتماد على البريطانيين • وأدركت بريطانيا في الوقت ذاته بأن تركيا هي الحليف الطبيعي الذي يمكنها الاعتماد عليه للوقوف ضد روسيا وفرنسا (١) •

٩ ـ اتفاق بريطانيا وتركيا على طرد الفرنسيين من مصر

لم يكن ما تبقى من الحملة الفرنسية في مصر آنذاك يزيد عدده عن ثمانية عشر ألفا فصممت بريطانيا وتركيا على طرد الفرنسيين نهائيا من وادي النيل وجهزتا لهذا الغرض حملة عسكرية بقيادة الصدر الاعظم تضم حوالي ثلاثون ألف جنديا عثمانيا وجيشا بريطانيا قوامه ثمانية عشر ألف جنديا من هنود وبريطانيين بقيادة السر أبركومبي • كما ضرب أمير البحر التركي حسن باشا وقائد الاسطول البريطاني في المتوسط حصارا على السواحل المصرية في البحر المتوسط والبحر الاحمر •

---

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي ـ ج ١ ـ ص : ١٧٦ •

١٠ = مهاجمة الجيوش العثمانية والبريطانية لمصر

أنزل الاسطول البريطاني في أبي قير ستة آلاف مقاتلَ من هنود وبريطانيين بتاريخ ٨ اذار سنة ١٨٠١ فتغلبوا على الدفاع الفرنسي واحتلوا تلك المنطقة • كما تحرك الصدر الأعظم من فلسطين بجيشه عبر الصحراء باتجاه القاهرة •

وفي ٢١ آذار سنة ١٨٠١ حصلت معركة عنيفة بين الفرنسيين والبريطانيين في الاسكندرية اندحر فيها الفرنسيون بقيادة الجنرال (MENOU) (١) •

١١ = الحكومة الجديدة البريطانية تخفف من صلابة موقف بريطانيا وتعلن استعدادها لوضع حد للحرب بينها وبين فرنسا

شعرت بريطانيا بتأزم الحالة وحراجة الموقف بسبب تألب دول أوروبا عليها وانحياز روسيا وبروسيا والنمسا والسويد والدانمارك واسبانيا الى سياسة بونابرت فعقد مجلس الملك في ١٠ شباط سنة ١٨٠١ اجتماعا لاستبدال الحكومة القائمة ووضع حد لسياسة بت وغرانفيل لاسترسال هذه الحكومة في الانفاق حيث بلغ عجز الخزينة البريطانية سبعمائة وخمسون مليونا

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي — ج ١ — ص : ١٧٦ •

من الجنيهات فضلا عن فقدان بريطانيا لصداقة عدد كبير من الدول الاوروبية من وراء سياسة هذه الحكومة

انتقل الحكم الى الداهية أدنجتون فخفف من صلابة موقف بريطانيا وحاول فك الحصار الروحي والسياسي المضروب عليها من قبل دول أوروبا وأعلن بلسان مساعده لورد هكسبوري عن استعداده لمفاوضة فرنسا في وضع حد للحرب بين بريطانيا وفرنسا وكان من نتيجة هذا الاعلان أن شهدت لندن في ذلك الحين أوسع نشاط دبلوماسي حول الشرق عرفته أوروبا في الثلث الاول من القرن التاسع عشر ٠

١٤ = موقف تلليران من سياسة أدنجتون الجديدة

لم يكن تلليران قد تبين بعد حقيقة نيات خليفة بت ولهذا فقد قابل هذا التحول في السياسة البريطانية بحذر كما أدرك أوتو المعتمد الفرنسي في لندن - والذي كان تلليران ضعيف الثقة بكفاءته الدبلوماسية وبمؤهلاته من التمكن من الوقوف بوجه الدبلوماسية البريطانية العريقة في هذا المضمار من اتصالاته بالمسؤولين في وزارة الخارجية البريطانية ان احتفاظ فرنسا بمصر أمر غير مقبول وقد بعث أوتو برسالة الى تلليران في ١١ آذار يقول فيها : اذا رفض البريطانيون اقتراحي الخاص ببقاء فرنسا في مصر سأقول لهم « لماذا تحتلون أنتم الهند فاذا تلقيت منهم جوابا وما هي علاقتكم بالهند لتطالبوا بجلاء

البريطانيين عنها ؟ فاجيبهم عندئذ : وما هي علاقاتكم أنتم بمصر لتطالبوا بجلاء الفرنسيين عنها ؟ (١) ·

١٣ : أسباب ابقاء تلليران معتمده السياسي أوتو في لندن وعدم توليه بنفسه هذه المهمة

ورب متساءل يقول : لماذا لم يأخذ تلليران على عاتقه أمر المفاوضة مع البريطانيين ما دام أنه ضعيف الثقة بمؤهلات معتمده السياسي أوتو ؟

والجواب على هذا أن تلليران كان ينأى بنفسه عن كل عمل لا يضمن نجاحه · كما كان في الوقت ذاته قليل الايمان بوفاء بونابرت وبعدم تأثره برأي خصم له أثناء بعده عنه وغيابه عن باريس والسبب الثالث أن تلليران كان على جانب من الشموخ فلا يجالس من الرجال الا من كان منهم عزيز الجانب رفيع المقام · وأن الاسباب التي حالت دون اضطلاعه بمهمة المفاوضة مع البريطانيين تشابه الى حد كبير تلك التي منعته من السفر الى الاستانة لمفاوضة العثمانيين عام ١٧٩٨ عقب احتلال مالطة وتوجه الحملة الفرنسية الى مصر ·

١٤ = رسالة تلليران الى أوتو في ٣٠ آذار سنة ١٨٠١

تضمنت هذه الرسالة تعليمات تلليران الى أوتو

---

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي — ج ١ ص : ١٧٧ ·

بشأن المفاوضات مع بريطانيا وقد طلب اليه فيها أن يعرض على بريطانيا اتخاذ أحد الحلين اذا كانـــت راغبة في الصلح ٠

الحل الاول : احتفاظ بريطانيا بجزيرة سيلان والاراضي التي انتزعتها من تبو صاحب في الهند وتبقى فرنسا حينذاك في مصر ٠

الحل الثاني : انسحاب بريطانيا من سيلان واعادتها الى هولندا والجلاء عن تبو صاحب وعند ذلك تنسحب فرنسا من مصر وتعود هذه الاخيرة الى السلطان ٠

ـ وقع أوتو في حبائل رجال الخارجية البريطانيـــة الذين جعلوه يعتقد بنجاح مهمته ومساعيه فكتب الى تلليران في ٣٠ آذار يقول له : أن التفاهم مع أدنجتون أمر سهل المنال وأن البريطانيين على استعداد للقبول بالامر الواقع فاذا تعهدت فرنسا بعدم التدخل في شؤون الهند تاركة لبريطانيا حرية العمل فيها فان بريطانيا تتعهد برفع يدها عن مصر وترك شؤونها لفرنسا ٠

وتبين من مضمون هذه الرسائل عـــدم الاتيـــان مطلقا على ذكر الباب العالي حول المسألة المصريـــة وتجاهل حقوقه تماما في مصر جاعلين مصيرها وقفـا على ارادة فرنسا وبريطانيا ٠

١٥ = شكوك تلليران بمضمون رسالة أوتو

لم يعتقد تلليران بصحة مضمون رسالة أوتـــو

الاخيرة ولم يطلعه على شططه في التقدير ليجعله يتحقق من هذا الخطأ بنفسه • وقد حصل ذلك على اثر اجتماع عقده أوتو مع اللورد هاكسبوري الذي صارح المعتمد الفرنسي بقوله : أن حكومة صاحب الجلالة تصر على انسحاب فرنسا من مصر وانها قد تقبل النزول عن بعض ممتلكاتها في الهند عبارة غامضة ووعد مشكوك فيه • سارع أوتو بنقل تصريح اللورد هاكسبوري الى حكومة باريس فلم يلق تأنيبا من تلليران لعدم تفهمه للحقائق والاهداف البريطانية بل شجعه على المضي في المفاوضات عله يظفر بالحصول على شروط أفضل •

١٢ ـ تصلب البريطانيين في موقفهم (١)

تصلب البريطانيون في مطاليبهم بعد أن تبينوا من أحاديث أوتو مواطن الضعف في موقف فرنسا • وفي ١٢ نيسان قدم اللورد هاكسبوري الى الحكومة الفرنسية مذكرة تتضمن شروط الصلح وتنص على انسحاب فرنسا من مصر لقاء تعهد بريطانيا بأن تعيد لها بعض المحطات التجارية التي انتزعتها منها ـ نيفابا تام ـ ورأس الرجاء الصالح وجزيرة كوارسو وغيرها من المحطات التي تعد أقل المحطات التجارية أهمية على طريق الهند • أما سيلان والمراتينيك والهند فتبقى تحت الحكم البريطاني • هذا ولم يغفل هاكسبوري عن التوضيح في مذكرته بأن جلاء بريطانيا

---

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي ـ ج ١ ـ ص : ١٧٨ •

عن هذه المحطات لن يتم الا بعد جلاء الفرنسيين عن مصر جلاء تاما .

عندما أيقنت حكومة باريس أن بريطانيا لا تتزحزح عن قواعدها السياسية مهما تغيرت وجوه الحكام فيها وسواء كان على رأس هؤلاء الحكام رجل عنيد صلب العود كوليم بت أم رجل هادىء جم التهذيب كأدنجتون

١٧ = أسباب تشدد أدنجتون وهاكسبوري في موقفهما أزاء فرنسا

تشدد أدنجتون وهاكسبوري في موقفهما بوجه فرنسا لاقتناعهما بأن الحملة الفرنسية في مصر باتت أشبه بالجيش المحاصر منه بالقوة المحاربة ناهيك عن تدهور معنويات هذه الحملة والتصدع المتزايد يومابعد يوم بين آراء قادتها فكانت حالة الجيش في مصر بعبارة وجيزة تشكل عنصر ضعف في موقف فرنسا وبالتالي في الجبهة الاوروبية المتألبة على بريطانيا .

استغلت بريطانيا هذا الظرف كما استغلت نقمة الاشراف الفرنسيين النازحين اليها والذين كانوا يصدرون صحيفة COURRIER DE LONDRES وصحيفة GAZETTE DE FRANCE) لشن حرب أعصاب على بونابرت فشرعت هذه الصحف تنشر عن مصر مقالات تظهر فيها سوء حالة الفرنسيين وانقسامهم وفتك الطاعون بهم كما تضمنت أخبارا مفادها أن ثورة تدبر ضد الجنرال (MENOU) وان هذا القائد مهدد بالاغتيال

ليخلفه قائد من المعتدلين أنصار سياسة كليبر واتفاق العريش • وقد تسربت هذه الصحف الى فرنسا فكان لها تأثير سيء في أوساط الفرنسيين (١) •

١٨ = توقف المفاوضات الدبلوماسية بين لندن وباريس

بقي كل من الفريقين ـ الفرنسي والبريطاني ـ متشبثا برأيه بانتظار نتائج المعارك الدائرة في مصر وتاركا القول الفصل لقوة السلاح • ويتضح ذلك من رسالة أوتو المؤرخة في ٢٤ نيسان سنة ١٨٠١ الى تلليران حيث ورد فيها :

أن الانظار باتت متجهة الى مصر دون سواها فكأن الناس قد نسوا بطرسبورغ وكوبنهاغن وهامبورغ وكل شيء بات معلقا بنتيجة المعركة العسكرية الدائرة الآن في القطر المصري •

الا أنه نظرا لعدم التكافؤ بين القوتين المتخاصمتين في مصر من كافة الاوجه فقد كان حظ البريطانيين والاتراك في كسب المعركة كبيرا •

كان العثمانيون يسيطرون على المنطقة البرية من سيناء الى بلبيس ويسيطر البريطانيون على الساحل الممتد من رشيد الى الاسكندرية وكان قادة الفرنسيين من جهتهم منقسمين الى فئتين :

....

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي — ج ١ — أميل الخوري وعادل اسماعيل ص : ١٨٠ •

الفئة الاولى : تؤيد الجنرال (MENOU) وتصر على مواصلة القتال ونذكر منها دونزلو وبيليار •

الفئة الثانية : تدعو بالحاح للعودة الى المفاوضة على أساس الجلاء واتفاق العريش ويتزعم هذه الفئة القادة : رينيه و (DUMAS) ودور وبوايبيه •

١٩ = حصار القاهرة

تضاءل أمل حامية القاهرة برد المهاجمين الاتراك والبريطانيين الذين شددوا الحصار عليها وقلت المؤن والذخيرة عند رجالها فاضطر قائدها الجنرال بيليار (BELLIARD) الى اجراء مفاوضات لتسليم المدينة وجلاء الفرنسيين عنها • وقد أوفد الجنرال موران والجنرال دونزلو والكومندان تارير في ٢٣ حزيران سنة ١٨٠١ لوضع اتفاق الجلاء عن القاهرة مع الجنرال هوب البريطاني والقائد التركي عثمان بك وفي ٢٧ منه تم عقد هذا الاتفاق ووافق عليه الجنرال بليار في اليوم التالي كما أقره دن الجانب البريطاني كل من الجنرال هالي هاتشنسون والجنرال ستيفنسون باسم الاميرال كايت ويوسف باشا الصدر الاعظم باسم السلطان (١) • ••

أما نص المعاهدة بين الجنرال (BELLIARD) وأخصامه فقد تضمن بندا يتعلق بالابحاث العلمية التي

---

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي — ج ١ — اميل الخوري وعادل اسماعيل ص : ١٨١ .

قام بها العلماء الفرنسيون ووجوب تسليمها الى الانكليز وفيما يلي نصه ٠

« أن المجموعات الخاصة (COLLECTIONS) والتصاميم والرسوم والمخطوطات العائدة للجنة العلوم والفنون تسلم الى أركان قيادة الجيش الانكليزي » ٠

ما كاد نبأ هذا البند يبلغ مسامع أعضاء لجنة العلوم والفنون حتى خف ثلاثة منهم الى الجنرال (HUTCHINSON) ليعلنوا له أنه في حال اصراره على اجبارهم تسليم المخطوطات والابحاث والمجموعات فانهم على استعداد لنشر هذا الاكراه المقيت في أوروبا والذي يعد بمثابة وصمة في جبين العلم ٠

تكللت هذه المساعي بالنجاح وبقيت اللجنة تحتفظ بثمرة جهودها ونتاج تفكيرها (٢) ٠

٤٠ = رفض الجنرال (MENOU) لقبول اتفاق الجلاء عن القاهرة

لم يختلف موقف الجنرال (MENOU) بشأن هذا الاتفاق عن الموقف الذي اتخذه بصدد اتفاق العريش : فقد رفض قبوله وأرسل الى الجنرال بليار (BELLIARD) قائد حامية القاهرة يأمره بمتابعة الحرب حتى النصر أو الموت ٠ الا أن الجنرال بليار

....

(٢) BONAPARTE EN EGYPTE. DESIRE LA CROIX P. 524 - 528.

أصر على تنفيذ الجلاء معتبرا أن مواصلة الحرب في تلك الظروف العصيبة نوع من الانتحار وناعتا أوامر الجنرال (MENOU) بأنها بعيدة عن المنطق وتنم عن جهل تام لحقيقة الواقع •

٤١ = عودة حامية القاهرة الى الاسكندرية

في ١٣ تموز ١٨٠١ غادرت الحامية الفرنسية القاهرة باتجاه الاسكندرية تنقل معها جثمان الجنرال كليبر واضع اتفاق العريش •

عندها لم ير الجنرال (MENOU) بدا من دعوة المجلس الحربي للمداولة في الحالة على ضوء التطورات الاخيرة • وقد قرر هذا المجلس متابعة القتال بالرغم من زوال كل أمل بوصول أية مساعدة أو نجدة من فرنسا وبالرغم من احتلال البريطانيين والعثمانيين للقاهرة ولاكثر المناطق المصرية •

٤٢ = رسالة الجنرال (MENOU) الى بونابرت يستنكر فيها استسلام حامية القاهرة

أرسل الجنرال (MENOU) الى بونابرت رسالة في ١٠ تموز ١٨٠١ يستنكر فيها استسلام حامية القاهرة ويطلعه عن قراره على مواصلة القتال في ضواحي الاسكندرية ويحمل الجنرال بليار تبعة استسلام حامية القاهرة ويشكو من أن هذا الجنرال قد وضع في اتفاق استسلام القاهرة نصا يعطيه أي الجنرال (MENOU) حق الاستسلام بدوره وأنه ـ أي الجنرال بليار قد

تجاوز صلاحيته كقائد موقع وأقدم على عمل لا يجوز له الاقدام عليه دون أخذ موافقة القائد العام •

٣٣ = تضييق البريطانيين الخناق على (MENOU)

ضيق البريطانيون الخناق على الجنرال (MENOU) وشددوا عليه الحصار في ضواحي الاسكندرية ونفد الغذاء والذخيرة من الجيش الفرنسي وأنزل البريطانيون جيوشا هندية جديدة على ساحل البحر الاحمر بقيادة الجنرال بيرد فاحتل مرفأ القصير وتوغل في الاراضي المصرية للاتصال بالقوى العاملة على سواحل المتوسط وعند ذلك أيقن الجنرال (MENOU) أن مواصلة القتال أصبحت ضربا من المحال فعقد في ٢٦ آب سنة ١٨٠١ مجلسا حربيا اقر فيه طلب الهدنة •

وبتاريخ ٢ أيلول وضع الجنرال (MENOU) مع الجنرال هاتشنسون اتفاقا ينص على أن تسلم القيادة الفرنسية للقيادة البريطانية ٣٨٩ مدفعا و ١٦ سفينة حربية و ٢٠٠ سفينة تجارية كانت ترسو في ميناء الاسكندرية (١) •

٣٤ = صدى نبأ سقوط القاهرة في لندن وباريس

لم ينفك أوتو عن متابعة محاولاته في لندن للوصول مع البريطانيين الى صلح في الوقت الذي كانت فيه الحاميات الفرنسية في مصر تستسلم تباعا • كما

....

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي — للدكتور اميل الخوري وعادل اسماعيل ص : ١٨٢ •

كان بونابرت وتلليران يسعيان سرا مع السفير التركي في باريس ـ علي أفندي ـ الى حل مرض مع السلطان العثماني الا أن الياس بدأ يغزو نفس المعتمد الفرنسي أوتو الذي بعث الى تلليران في ٨ تموز سنة ١٨٠١ رسالة يقول فيها ليس بالامكان أن ننال من البريطانيين أكثر مما عرضوا علينا وقد صرح لي اللورد هاكسبوري وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة النصر بأن بريطانيا تعتبر منذ اليوم أن المسألة المصرية قد انتهت وأن مصر بلد محتل .

وعندما سرت في لندن شائعة سقوط القاهرة بعث أوتو وقد خانته أعصابه الى تلليران برسالة ثانية في ١٤ آب سنة ١٨٠١ يسأله عن حقيقة الامر ويطلعه أنه في حال ثبوت سقوط القاهرة ينتفي كل أمل بالحصول على شيء من الجانب البريطاني فكان جواب تلليران على كتاب أوتو في ١٢ آب يستحثه على الاسراع في المفاوضة ويبلغه موافقة الحكومة الفرنسية على التخلي عن جزيرتي سيلان وترينيداد . ولما شعر أوتو بأن المفاوضات ستتعثر بسبب مالطة وتباغو اللتين اصر هاكسبوري على الاحتفاظ بهما لم ير أوتو بدا من الموافقة على مطاليب هاكسبوري وذلك بغية الاسراع في انهاء المفاوضات وعملا بتعليمات تلليران بهذا الصدد .

عندها شعر هاكسبوري بأن اسراع أوتو في وضع مقدمات الصلح لا بد وأن تخفي شيئا فراح ينتحل الاعذار للمماطلة واطالة المفاوضات بانتظار نتيجة معركة الاسكندرية وأخيرا وقع الفريقان مقدمات

الصلح في أول تشرين الاول عام ١٨٠١ • وما كاد يتم ذلك حتى وصلت سفينة من أسطول المتوسط الى لندن تحمل رسالة من أمير البحر كايت مفادها ان الجنرال كتب اليه رسالة يطلب المفاوضة في الجلاء عن الاسكندرية فندمت الحكومة البريطانية على تسرعها في توقيع الاتفاق وودت لو أنها أصرت على المماطلة والتسويف •

اما في باريس فقد حرص تلليران في مفاوضاته السرية مع علي أفندي على اظهار أخطار تحالف تركيا وروسيا وبريطانيا على مصالح الباب العالي ووحدة الامبراطورية التركية •

ولما كان السلطان سليم شديد الاقتناع بأن بقاء فرنسا في مصر أصبح أمرا مستحيلا أوعز الى سفيره في باريس بأن يوجه مفاوضاته مع المسؤولين فيها وجهة جديدة وطلب اليه مباحثة تلليران في عقد الصلح مع تركيا على الاسس التالية :

١ ـ أن ينسحب الجيش الفرنسي من مصر دون قيد أو شرط أو تعويض •

٢ ـ أن تعترف فرنسا بالتدابير التي اتخذتها الحكومة العثمانية بشأن جمهورية الجزر السبع والجزر الايونية •

٣ ـ أن ينظر في دفع تعويضات عادلة عن الأملاك التي صادرها الطرفان أثناء الحرب (١) وقد أوصى

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي ـ ج ١ ـ : ١٨٣ •

السلطان سفيره في باريس بأن يستعين في المفاوضة مع تلليران بسفير روسيا في باريس لان السلطان كان قليل الثقة بتلليران ووعوده وكان يخشى مكره ودهاءه كما كان السلطان يرى بهذه الطريقة سبيلا لحمل فرنسا على قبول كافة شروطه • وربما كان السلطان يبغي من وراء ذلك أن يرد لبونابرت الكيل كيلين بصدد موقفه الودي من بولس الاول واسكندر الاول وعقده مع روسيا في نيسان سنة ١٨٠١ معاهدة سرية يعترف لها فيها بحق الاسهام في وضع شروط الصلح بينه وبين الباب العالي • وبالرغم من أن بونابرت كان يعتقد ببقاء هذه المعاهدة سرا لا يعلمه الاتراك غير ان الروس قد فضحوا أمرها عندما علموا أن بونابرت شرع بمفاوضاته مع العثمانيين دون اشراك الروس بها • غير أن دهاء تلليران ومراوغته والاستعانة بأمين سر السفير التركي وترجمانه كودريكا واغداق المال عليه كل هذه العوامل أدت الى اقناع السفير علي أفندي بالشروع في المفاوضة مع الفرنسيين دون اشراك الروس فيها • فوضعت مقدمات هذا الصلح في ٦ تشرين الاول عام ١٨٠١ • ووقعها تلليران وعلي أفندي في ٩ منه •

٢٥ ـ اغتباط بونابرت بعودة العلاقات الفرنسية العثمانية

أوفد بونابرت الى السلطان سليم رجلا من أقرب المقربين اليه الكولونيل سيبستياني وحمله مع وثيقة مقدمات الصلح كتابا خاصا للسلطان ضمنه شعور

بونابرت واغتباطه بعودة العلاقات بين فرنسا والباب العالي • وقد جاء في هذه الرسالة :

أن الحملة المصرية كانت بريئة من كل روح أو فكرة عدائية ولم يكن القصد منها الحاق الاذى والضرر بالامبراطورية العثمانية ولكن الله شاء اذ جعلها سببا لقطع العلاقات بين الامتين أن يقنعهما معا بأن مصلحتهما الحقيقية في السلم والاتحاد والتعاون (١) • استقبلت السلطات العثمانية الكولونيل سبستياني بحفاوة بالغة كما تلقى الشعب خبر الاتفاق بالغبطة والفرح •

٣٦ = موقف سفراء الدول الاوروبية في القسطنطينية حيال مجيء الكولونيل سبستياني

يستدل من التقرير الذي رفعه سبستياني الى بونابرت عقب وصوله الى القسطنطينية أن سفراء الدول الاوروبية كانوا على بعض الامتعاض وكانت تحرقهم الرغبة في الوقوف على غاية مهمة هذا الكولونيل وخاصة السفير الروسي الذي الح عليه ليطلعه على سبب قدومه فما كان من الكولونيل الا أن أجابه •

أن مهمتي لمن أبسط المهمات وأسهلها فهي تنحصر اني ضابط تلقى أمرا بحمل رسالة من القنصل الاول الى السلطان •

....

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي — ج ١ — ص : ١٨٥ •

كما أقدم ـ تمارا ـ سفير روسيا بمعاونة سفير بريطانيا وسفير نابولي على لفت نظر الباب العالي الى الخطر الذي ينطوي عليه قبول مبعوث فرنسي على وجه مخالف للعادات والتقاليد التي تعتبر جزءا أساسيا من نظام الامبراطورية العثمانية ٠

أما سفير بروسيا فقد ألح على الباب العالي في استجابة طلب سيبستياني وحذا حذوه سفير اسبانيا ولما أدرك السفير الروسي أن الفشل لمعارضته بالمرصاد اقترح على سيبستياني أن يتم تقديمه الى السلطان بواسطته فلم يوافقه سيبستياني على ذلك٠

عندها عمد السفير الروسي الى محاولة نقل المفاوضة من باريس الى القسطنطينية لتكون له الكلمة فيها ولما لم يوفق الى ذلك عاد الى معارضته السافرة معلنا أن تفرد علي أفندي وتلليران في باريس في شؤون الصلح يتناقض والاتفاق السابق بين الباب العالي وحلفائه ٠

٢٧ ـ موقف السلطان العثماني سليم الثالث من نشاط سفراء الدول الاوروبية بمناسبة قدوم الكولونيل سيبستياني الى الاستانة

كان الباب العالي ميالا الى ابرام مقدمات الصلح ـ التي تمت بين سفير تركيا علي أفندي وتلليران في باريس ـ ولكن سفير بريطانيا وروسيا احتجا على قبولها لانها وضعت بمعزل عن حكومتيهما خلافا لما تم الاتفاق عليه في معاهدة لندن حيث أن روح المقدمات

يتعارض ونصوص المادة ١٥ من مقدمات صلح لندن التي تنص على اشتراك تركيا في مؤتمر أميان لوضع معاهدة الصلح النهائية بين فرنسا وبريطانيا فتراجع السلطان عن موقفه السابق وعين سفيره في باريس علي أفندي مندوبا عنه في هذا المؤتمر وخوله صلاحيات توقيع الاتفاق عنه •

كما أجاب السلطان على رسالة بونابرت برسالة ودية سلمها الى الكولونيل سيبستياني لنقلها عند عودته الى بونابرت وقد جاء فيها : لقد أقام الباب العالي الدليل بعد الدليل على وفائه للصداقة بينه وبين فرنسا • وان علينا بعد اليوم أن نكون متفاهمين ومتعاونين تعاونا وثيقا لتأمين رخاء وازدهار أمتينا • (١)

٣٨ ـ عدم اشراك ممثل تركيا في مفاوضات صلح أميان تحمل الباب العالي على عقد صلح منفرد مع فرنسا دعي « صلح باريس »

كان هدف فرنسا عدم الاخذ بعين الاعتبار لما جاء في المادة ١٥ من مقدمات اتفاق لندن بشأن اشراك تركيا في مؤتمر أميان وذلك بغية عقد صلح منفرد معها •

وقد بذل بونابرت وتلليران جهودا كبيرة لعدم تمكين علي أفندي من تمثيل تركيا في هذا المؤتمر لقد كان يمثل الجانب البريطاني في مؤتمر أميان المنعقد في

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي — ج ١ — اميل الخوري وعادل اسماعيل ص : ١٩١ •

آذار عام ١٨٠١ اللورد كورنواليس ويمثل الجانب الفرنسي جوزيف بونابرت ٠

ولقد أصر الاول على عدم الشروع في المفاوضات قبل حضور الممثل التركي كما سعى الجانب الفرنسي بشتى الطرق الى عدم تمكين ممثل تركيا من حضور المؤتمر ولم يتورع عن اظهار تساهل مع بريطانيا في عدة شؤون حتى تمكن من اقناع الجانب البريطاني بعدم الالحاح في مطالبه السابقة بشأن حضور ممثل الباب العالي ٠

وبناء لما تقدم عقدت معاهدة صلح أميان في ٢٧ آذار عام ١٨٠١ بين فرنسا وبريطانيا واسبانيا وهولندا بمعزل عن الباب العالي ٠ وقد وصفت هذه المعاهدة بأنها معاهدة تنازلت فيها فرنسا لبريطانيا عن نفوذها في المتوسط ٠

لقد امتعض السلطان سليم لدى سماعه أن معاهدة أميان قد تمت بمنأى عن ممثله وعد هذا العمل اهمالا من قبل بريطانيا ازاءه وأدرك أن احترام الدول الاوروبية للباب العالي أقل كثيرا مما كان يظن ولهذا فقد قرر عقد صلح منفرد معفرنسا فأوفد الامين العام لوزارة الخارجية العثمانية المدعو محمد سعيد غالب أفندي الى باريس للمفاوضة حيث تم عقد صلح باريس بينه وبين تلليران في ٢٥ حزيران سنة ١٨٠٢ كان من شأنه ان أنهى الحرب بين فرنسا والباب العالي ٠ وقد عين بونابرت بعد ذلك الجنرال بـرون

سفيرا لفرنسا في القسطنطينية (١) ٠

لم تكن آثار الحملة الفرنسية على مصر رهنا ببقاء الفرنسيين في الديار المصرية حتى اذا ما تم جلاؤهم عنها تلاشى ما أحدثه وجودهم من آثار ذلك أن الفرنسيين قد شرعوا بأعمال في مصر لم يسمح لهم جلاؤهم باتمامها فبقيت فكرة انجازها بانتظار من سيأخذ على عاتقه أمر ابرازها الى حيز الوجود ٠ وسرعان ما ظهرت يقظة النفوذ الفرنسي لتلعب دورها الحاسم على مسرح الاحداث في مصر في عهد محمد علي الكبير ٠ ولما كانت هذه اليقظة للنفوذ الفرنسي في مصر تعد بمثابة تتمة لآثار الحملة الفرنسية وتؤلف صفحة ملحقة من صفحات آثارها فلا بد والحالة هذه من القاء نظرة عليها ودرسها تحت عنوان :

« امتداد آثار الحملة الفرنسية على الاوضاع في مصر » ٠

....

(١) السياسة الدولية في الشرق العربي — اميل الخوري وعادل اسماعيل — الفصل الثالث ص : ١٩٣ — ١٩٤ ٠

الفصل السابع

امتداد آثار الحملة الفرنسية على الاوضاع في مصر

١ = وضع مصر عندما أخلاها الفرنسيون

عندما أخلى الفرنسيون مصر كانت ثلاث قوات تتمركز في هذه البلاد :

١) الاتراك في القاهرة والاسكندرية ٠
٢) الانكليز في أمبابة والاسكندرية (حيث أن صلح أميان لم يكن قد وقع بعد) ٠ ٠
٣) المماليك الذين ساعدوا الانكليز والاتراك والذين كانوا القوة الاكثر أهمية نظرا لكونهم من ذات البلاد فقد اغتنموا فرصة ذهاب الفرنسيين ليعودوا الى سيرتهم الاولى من النهب وسوء معاملة الاهلين كذلك الاتراك فقد اتبعوا ذات الطرق وبعبارة وجيزة كانت البلاد تغرق في الفوضى وخزائنها فارغة لعزوف السكان عن دفع الضرائب ٠

عندها كان الانكليز قد فرغوا من رسم خطتهم وهي : الاحتفاظ بالشواطيء المصرية الشمالية بالاتفاق مع الاتراك والمماليك ٠ أما بعد صلح أميان الذي حتم

على الانكليز الجلاء عن مصر فقد رأت بريطانيا انها لن تجدي من الاتراك فتيلا وذلك أن سيبستياني قد أحيا العلاقات الطيبة بين فرنسا وتركيا بفضل مهارته السياسية عندها عمد الانكليز الى التعلق بالمماليك ووجهوا دعوة الى الفي بك لزيارة بريطانيا ·

٢ = ظهور محمد علي

كانت الحملة الثانية التي وجهتها تركيا ضد الفرنسيين تضم في عدادها المدعو محمد علي والذي هو من عداد فرقة يعود أصلها الى كافالا (CAVALLA) وكان محمد علي قد أبلى بلاء حسنا في معركة الرحمانية فقد اجتاز شوطا بعيدا في سلم الرتب ولما كان محمد علي ذا ذكاء حاد ومنطق سليم وشجاعة نادرة فقد توصل بسرعة ومهارة الى أن يصبح قائد الالبانيين بعد وفاة أحمد ظاهر باشا وأن يحوز على سلطة فائقة في القاهرة وأن يستميل اليه قلوب السكان ويظفر باحترامهم له ·

وفضلا عن ذلك فان الحروب الداخلية والاشتباكات التي حصلت بين الشعب والمماليك مع الوالي العثماني كوسراف باشا ومن أتى بعده من الولاة كل ذلك كان لصالح محمد علي ·

٣ = الشعب ينادي بمحمد علي باشا مصر

نادى الشعب وفي طليعته العلماء والاعيان والتجار بمحمد علي باشا مصر في الاجتماع الكبير الذي عقد في

القاهرة في شهر ايار عام ١٨٠٥ وذلك بغية انهاء النزاعات المتواصلة التي كان يخوضها الشعب تارة ضد المماليك وطورا ضد الاتراك وبالاختصار بغية وضع حد لتلك الحالة المؤسفة التي وصلت اليها البلاد

كذلك الجيش فقد انحاز الى محمد علي بسبب ضآلة الرواتب • أزاء هذه التظاهرة الشعبية أجبر الباب العالي على الاعتراف بمحمد علي بهذه الصفة التي أرادها الشعب • وكانت هذه البادرة الاولى من نوعها في تاريخ مصر الحديث وأول مرة يتمكن الشعب من استعمال حقه الشرعي واختياره بحرية سيد مقدراته وقد شرعت مصر بفضل هذا الاختيار بالسير ببطء ولكن بأمان في طريق التقدم والمدنية •

وكان أن لعبت مصر بفضل هذا الرجل دورا هاما على مسرح السياسة الخارجية •

٤ = محاولات بريطانيا

ما ان شعر المماليك بطلائع الفشل تزعزع مكانتهم حتى ناصبوا الالباني الكبير العداء وقادهم الحسد الى عدم الرضوخ لسيطرته واللجوء الى مصر العليا ووجهوا دعوة الى الانكليز تتضمن السماح لهم باحتلال القسم الشمالي من مصر في حال مدهم يد المساعدة الى المماليك •

حسب الانكليز أن الفرصة مؤاتية فأرسلوا (FRASER) الذي أنزل جنده في الاسكندرية و (ROSETTE) في شهر آذار عام ١٨٠٧ • ما أن علم

السلطان بهذه المناورة حتى أعلن الحرب على بريطانيا وسارع محمد علي الى (ROSETTE) فألحق بالانكليز الهزيمة وأجبرهم على مغادرة الاراضي المصرية في ١٤ أيلول من ذات العام ·

محمد علي والمماليك

ما كاد محمد علي يتخلص من أعدائه الخارجين حتى أدار وجهه شطر المماليك وصادف أن كان السلطان في هذه الاثناء في خصام مع الوهابيين الذين انتزعوا منه الاماكن المقدسة فكلف السلطان محمد علي لاخضاعهم فرضي بهذه المهمة السامية ··· وكان ذلك فرصة سانحة للاستيلاء على مرفأ جدة الهام · وكان يتوجب على محمد علي أن يرفع الى السلطان ضريبة سنوية وأن يؤمن حماية الحجاج مقابل توليته حاكما على مصر ·

٥ = مذبحة المماليك

لم يتمكن محمد علي من المجازفة بالقيام بهذا المشروع تاركا المماليك وراءه تتابع الثورات والمكايد فقد كانت القضية حياله مسألة حياة أو موت · وبعد أن أطال التفكير أصدر قرارا يقضي بتسليم قيادة الجيش الى ابنه توسون ليسبقه ثم تذرع بعذر احتفال بمناسبة توليته ـ دعا المماليك لحضوره في قلعة القاهرة وكان ذلك في أول آذار عام ١٨١١ ·

وما كاد الخيالة المماليك يدخلون القلعة حتى أقفلت الابواب وعلى اشارة أعطيت فتك بالمماليك

كافة ومنذ ذلك الوقت ساد الهدوء في مصر بعد زوال شبح المماليك عنها ·

وفي عام ١٨١٤ أصيب توسون بانكسار ولما كان قد تخلص محمد علي من القسم الاكبر من المماليك فقد تمكن من نجدة توسون واللحاق به فكسر الوهابيين عام ١٨١٥ وعاد الى القاهرة لتصفية الحساب مع من بقي من المماليك الذين اغتنموا فرصة غياب محمد علي فعمدوا الى اثارة الشعب في أنحاء البلاد · ولدى عودة محمد علي الى القاهرة تولى قيادة الجيش المكلف باخضاع الوهابيين ابنه ابراهيم الذي ضرب الحصار على الدارية في نيسان عام ١٨١٨ فأعلن زعيم الوهابيين عبد الله سعود خضوعه حيث اقتيد الى القاهرة ومنها أرسل الى القسطنطينية ·

أخليت بلاد الحجاز والمدينة ومكة وكل ما تبقى من شبه الجزيرة العربية من الوهابيين وأرسل محمد علي الى السلطان مفتاح الكعبة ·

٦ = تنظيم مصر

توطدت دعائم سلطة محمد علي في الداخل والخارج وقد باشر فور عودته الى القاهرة بتنظيم البلاد فاختار بعض الفرنسيين لهذه المهمة ولم يكن مرد ذلك احترامه للفرنسيين وثقته بهم بفضل ما باشروا به من مشاريع في البلاد ولم ينجزوها فحسب بل بسبب انتعاش الصداقة بين الباب العالي وفرنسا

٧ ـ يقظة النفوذ الفرنسي

استفاق النفوذ الفرنسي حينذاك من سباته العميق وقام الفرنسيون بهذه المهمة بكل اخلاص وكما يحتمه الشرف ردا على نظرة محمد علي المفضلة لهم وحصر ثقته بهم فعملوا بنشاط على انهاض البلاد على الصعيدين الروحي والمادي ٠

تنظيم الجيش

سليمان باشا الفرنساوي منظم جيش محمد علي

لما كان من المتوجب في البدء تنظيم الجيش فقد عهد محمد علي الى الفرنسي الملقب سليمان باشا بهذه المهمة ٠ فمن هو سليمان باشا هذا ؟ هو الكولونيل سيف (SEVES) فرنسي الاصل امتهن البحرية وحضر معركة الطرف الاغر ثم انتظم في الجيش البري وقاتل في حروب نابليون وتدرج في المراتب العسكرية حتى بلغ رتبة كولونيل وبعد زوال عهد نابليون انقطع سيف للزراعة والتجارة ثم حضر الى مصر مزودا بتوصية الى محمد علي الذي رأى فيه الكفاءة وأعجب به وعهد اليه بتنظيم الجيش المصري على الاساليب الحديثة وقد اعتنق الكولونيل سيف الاسلام أثناء اقامته في مصر واختار لقب سليمان وعرف بلقب سليمان بك ٠

اشترك سليمان بك في حروب المورة وحرب سوريا والاناضول وانعم عليه محمد علي سنة ١٨٣٤ بالباشوية

عقب الحرب السورية الاولى وعرف بعد ذلك الحين سليمان الباشا الفرنساوي • ألف سليمان باشا الجيش المصري من المتطوعين من الشعب وقد زاد عدد هذا الجيش من (٢٠ عشرين الفا الى ثلاثمائة ألفا) •

أ ـ سليمان باشا يقوم بتنشئة ضباط الجيش المصري في المدرسة الحربية بأسوان

كان عدد الذين عهد الى سليمان باشا بتدريبهم في المدرسة الحربية بأسوان ألف رجل من المماليك • واستغرقت مدة تدريبهم ثلاث سنوات يتلقنون خلالها فنون وأساليب الحرب الحديثة وأصبح هؤلاء الرجال فيما بعد نواة الجيش النظامي • وقد لقي الكولونيل سيف صعوبات جمة في تدريب هؤلاء الشبان على الاساليب الحديثة التي تقوم على النظام والطاعة المطلقة للرؤساء والمعروف عن المماليك أنهم ينزعون الى الفوضى والاخلال بالنظام فضلا عما فطروا عليه من حب للتمرد والعصيان ورغم كل هذه العقبات فقد استطاع سليمان باشا من اتمام تعليمهم في مدى ثلاث سنوات فتكون أول دفعة من الضباط المصريين قد تخرجت على يد الكولونيل سيف وتكون أول مدرسة حربية للجيش النظامي المصري هي مدرسة أسوان •

ب ـ مدرسة الفرسان بالجيزة

أعجب ابراهيم باشا بحسن نظام الخيالة الفرنسيين خلال حرب المورة وأدرك أهمية تنظيم

الفرسان ولهذا فقد بدأ لدى عودته من هذه الحـرب بتشكيل فرق الفرسان في الجيش المصري • وأنشئت لهذا الغرض المدرسة الحربية للفرسان بالجيزة وتولى تنظيـم المدرسة المسيـو (VARIN) مـن ضبـاط الامبراطورية النابليونية والمارشال (GOUVOIN) SAINTCYR وكان نظام هذه المدرسة يشابـه نظام مدرسة (SAUMUR) الحربية في فرنسا مع تعديـلات طفيفة استلزمتها الظروف المحلية • وقد كان عـدد تلاميذ هذه المدرسة ٣٦٠ تلميذا عام ١٨٣٤ وهم خليط من الشبان المصريين والترك (١) •

ج ـ مدرسة المدفعية بطرة

ألفت المدفعية النظامية في مصر بذات الوقـت التي نظمت فيه المشاة على الاساليب الحديثة • وقد عهد بتنظيمها الى جماعة من الضباط الفرنسييـن وعاونهم في العمل ضباط مصريون وفي مقدمتهم أدهم بك •

د ـ انشاء وتنظيم الاسطول

اعتزم محمد علي انشاء اسطول مصري جديـد وقرر تأسيس دار صناعة في الاسكندرية لبناء السفن الحربية وقد استعان للقيام بهذا المشروع بمهندس فرنسي يدعى المسيو سريزي (   ) وهو

(١) تاريخ الحركة القومية في مصر الجزء الثالث ــ عبد الرحمن الرافعـي بـك ص : ٣٦٨ •

مهندس بحري على جانب كبير من المهارة والخبرة في فنون البحرية • (٢) وقد أصبح لمحمد علي اعتبارا من عام ١٨٢٠ بين ستين وثمانين عمارة حربية تمتاز بجودة تسليحها ومتانة صنعها •

وكانت هذه العمارات تؤلف أسطولين أحدهما للعمل في البحر المتوسط والثاني للعمل في البحر الاحمر مع أربعين ألف بحار و ١٢٣٠ مدفع •

هـ ـ مدرسة الطب

ان النهضة الطبية الحديثة في مصر مدينة الى الطبيب الفرنسي كلوت بك وقد حضر هذا الطبيب الى مصر بدافع الرغبة الى أن يكون طبيب الجيش المصري ونزولا عند رغبة أحد أصدقائه في ذلك • وبالنظر الى صفات هذا الطبيب وعزيمته الصادقة عهد اليه محمد علي بتنظيم الادارة الصحية للجيش المصري وجعله رئيس أطباء الجيش فقام بما عهد اليه خير قيام وكانت باكورة أعماله أن أشار على محمد علي بانشاء مستشفى عسكري بجوار المعسكر العام فنفذ محمد علي اقتراحه ثم اقترح ثانية على محمد علي انشاء مدرسة التخريج الاطباء من أبناء البلاد فعمل باقتراحه • وأنشئت عام ١٨٢٧ مدرسة الطب بأبي زعبل وقد أصبحت هذه المدرسة مبعث النهضة الطبية في مصر • وقد تولى كلوت بك ادارتها•

(٢) تاريخ الحركة القومية في مصر الجزء الثالث — عبد الرحمن الرافعي بك ص : ٣٦٨ •

كما أنشأ مجلسا للصحة على النظام الفرنسي كان له فضل كبير في النهوض بالحالة الصحية للبلاد ٠

كما أشار هذا الطبيب باستعمال تطعيم الجدري لمقاومة انتشار هذا المرض وعمل هو وتلاميذه على مكافحة داء الكوليرا الذي اجتاح مصر عام ١٨٣٠ وعلى أثر ذلك أنعم عليه محمد علي بالبكوية فصار يعرف بكلوت بك وفي عام ١٨٣٥ حل الطاعون بمصر فبذل كلوت بك جهودا كبيرة في مقاومة هذا الداء وأنعم عليه محمد علي تقديرا لجهوده برتبة أمير لواء ٠

ولقد كان الغرض من انشاء مدرسة الطب اجابة لاقتراح الطبيب كلوت بك تخريج الاطباء المصريين للجيش ٠ وقد اختارت الحكومة لهذه المدرسة مائة تلميذ من طلبة الازهر واختار كلوت بك لها طائفة من خيرة الاساتذة الاوروبيين وأكثرهم من الفرنسيين لتدريس علم التشريح والجراحة والامراض الباطنية والصيدلة والطب الشرعي والكيمياء (١) ٠

كيف جابه محمد علي جميع هذه المصاريف دون اللجوء الى الاقتراضات

الزراعة والصناعة

لقد كان محمد علي يدرك بأن الاستقلال الحقيقي لبلد ما هو في استقلالها الاقتصادي فعمل على زيادة

(١) تاريخ الحركة القومية في مصر — الجزء الثالث — عبد الرحمن الرافعي بك ص : ٤٤٤ — ٤٤٦ ٠

الموارد في مصر ٠

فقد اتسعت الثروة الزراعية التي كانت مهملة حتى ذلك الحين اتساعا كبيرا بفضل تشجيعه ومراقبته ٠ وقد أناط بمهندسين لامعين MOUGEL LINANT DE BELLE-FOND ادارة أعمال الجسور والطرقات والاقنية بحيث أن عدد الافدنة الذي كان عندما تسلم محمد علي للحكم مليونا فقد ازداد هذا العدد كثيرا عن السابق كما أدخل الى البلاد أغراس جديدة كالعظلم (INDIGO) وقصب السكر وأجود أصناف القطن الهندي كما أنشئت معامل صنع ملح البارود (SALPETRE) كما أقيمت معامل لصناعات مختلفة تحت ادارة مهندسين فرنسيين ويشير (CLOT BEY) في كتاب له عن مصر بأن عدد المصانع التي أنشأها محمد علي كان ثمانية عشر مصنعا للغزل والنسيج مع آلاف المهن بحيث كانت تصنع سنويا مليونين من الملابس القطنية كما أنشأ عدة مصانع للكتان والقنب كانت تصدر بضائعها الى TRIESTE , LIVOURNE في ايطاليا ٠

وقد أنشىء معمل للاجواخ في (BOULAC) حيث كان يقدم الالبسة للجيش والبحرية كما أنشئت معامل لصنع الحبال لصالح الأسطول من القنب المستورد وأنشئت معامل صنع الطربوش والصابون والسكاكين والزجاج وسنتوقف قليلا عند نوعين من الصناعات ٠

١ = الصناعات التحويلية

صناعة الغزل والنسيج

لقد أنشأ محمد علي مصنعين كبيرين للغزل

والنسيج :
الاول : في بولاق تحت اشراف المهندس الفرنسي جومل (JUMEL) وبعد أن كان هذا المصنع مخصصا لانتاج الصوف فقد تحول الى الصناعات القطنية نظرا لرداءة الصوف المحلي وفشل التجارب الناتج عن عجز المديرين
الثاني : في الخرنفش تحت اشراف المهندس الفرنسي موريل (MOREL) (١) وكان عدد العمال في هذين المصنعين يناهز الثمانمائة · وقد نجح محمد علي بعد محاولات عديدة في انشاء مصنع لغزل الصوف ونسجه وصباغته وقد أوكل ادارته الى عدد من المهندسين الفرنسيين · كان المصنع يحتوي على ١٩٠ نولا ويقارب انتاجه الشهري العشرين ألف ذراعا حيث كانت القوات المحاربة تستهلك الجزء الاكبر من هذا الانتاج (١) وقد توطدت دعائم هذه الصناعات واستطاعت الصمود أمام المنافسة الاجنبية ·

ب ـ الصناعات الحربية

بعد أن أنهى محمد علي الحرب مع الوهابيين شرع في انشاء المصانع الحربية بغية استجماع مقومات السلطان بين يديه وكي لا يحرم من الذخائر والعتاداذا ما ضرب عليه الحصار البحري · ولهذا فقد أنشأ عام ١٨٢٠ مصنعا في القلعة لصنع المدافع ضم ستمائة عاملا وقد ذكر البارون DE BOIS LE COMTE عند زيارته لهذا المصنع عام ١٨٣٣ أن عدد عماله ناهز الـ ١٥٠٠ عاملا

(١) تاريخ الصناعة في مصر ــ تاليف الدكتور علي الجرتلي ص : ٥٤ ·
(١) تاريخ الصناعة في مصر ــ تاليف الدكتور علي الجرتلي ص : ٥٨ ·

كان يعمل تحت اشراف المهندس الفرنسي أدهم بك (٣) ٠

ورغم التكاليف الباهظة لهذه المنشآت المتعددة فقد بقيت مالية الحكومة المصرية مزدهرة بحيث مكنتها من انماء الجيش والبحرية ٠ أدهشت نهضة مصر أوروبا بأجمعها وهنأت فرنسا نفسها بفضل مساهمتها بهذا النجاح الذي أحرزته مصر فقد بذلت ما بوسعها لمساعدة محمد علي وتلقت كمكافأة على خدماتها احدى المسلتين (OBELISQUE) اللتين كانتا على مدخل معبد (LOUQSOR) حيث قدم مائة وأربعون عالما فرنسيا لنقلها من مصر عام ١٨٣٦ وقد أقيمت في ساحة الـ (CONCORDE) في باريس ٠

١٠ = الادارة

لم تكن الاراضي المصرية ممسوحة في عهد المماليك مما كان يثير النزاعات بين الملاكين ومن ناحية ثانية فقد أراد محمد علي أن يسجل بالضبط الاراضي العائدة للدولة ولهذا فقد أمر باجراء مسح الأراضي المصرية بأجمعها وقسمها الى سبعة أقاليم : أربعة في مصر السفلى وثلاثة في العليا ـ وعين على رأس كل اقليم مديرا وقسم كل اقليم الى عدة مقاطعات (٢) ٠

....

(١) تاريخ الصناعة في مصر ـ الدكتور علي الجرتلي ص : ٦٠ ٠

(٢) L'EGYPTE MODERNE ET LES INFLUENCES ETRANGERES CHAPITRE II.

١١ = فتوحات محمد علي تحمل البعض على تشبيهه بنابليون بونابرت

اعترى أوروبا الذعر من التوسع الذي أحرزه محمد علي فقد امتدت فتوحاته من السودان حتى جزيرة (CRETE) ومن النيل الازرق حتى الفرات وأصبح البحر الاحمر بحيرة مصرية فمن يدري ان هذا الرجل لا يذهب حتى بلاد الهند ٠

لقد كانت هذه الفكرة كافية لاثارة الرعب في قلب بريطانيا ٠ وأن النشاط الذي بذلته الدول الاوروبية الكبرى لابقاء مصر ضمن حدود معقولة لدليل واضح بأن محمد علي كان يعد منافسا عنيدا ٠

لقد قيل ، وليس بدون صحة ـ أن محمد علي هو نابليون الشرق ٠ فكما أن الظروف ساعدت بونابرت فقد ساعدت بالمثل محمد علي ٠

فلولا حملة الفرنسيين على مصر من يدري اذا كان محمد علي يتوصل الى هذا السلطان العظيم ٠ وكما أن بونابرت كان من مواليد كورسكا وأصبح في غضون وقت قصير سيد مقدرات فرنسا فمحمد علي الالباني الاصل أصبح سيد مصر وكل ذلك بارادة الشعب ويتبين من مراجعة الوثائق الدبلوماسية المتبادلة بين الدول الاوروبية الكبرى ومحمد علي خلال الازمات بين عام ١٨٣٣ ـ ١٨٣٩ بأن عددا لا يستهان به من الدبلوماسيين لم يترددوا في تنبيه محمد علي عن النتائج الوخيمة التي يمكن أن يتوصل اليها كما توصل اليه قبله نابليون بصدد معارضته للدول الكبرى ٠

المسألة المصرية أثر من آثار الحملة الفرنسية على مصر

ظهرت المسألة المصرية للوجود منذ الحملة الفرنسية التي يمكن اعتبارها أول مثار للقضية المصرية اذا انها كانت صراعا بين فرنسا وانكلترا على الاستئثار بمصر وقد كان التنافس بين هاتين الدولتين الأوروبيتين قبل ذلك تنافسا اقتصاديا فلما جرد بونابرت حملته على مصر تحول هذا التنافس الى صراع سياسي وأخذت أعين انكلترا ترنو منذ ذلك الحين باتجاه مصر وتطمع في السيطرة عليها . وقد استمر هذا الصراع طيلة مدة بقاء ـ الحملة الفرنسية في أرض الكنانة وأدى الى جلاء الفرنسيين عنها . وقد ظهر فيما بعد ان انكلترا لم تكن تواصل حروبها ضد فرنسا لجلائها عن مصر فحسب بل لتحل فيها محلها وتحقق مطامعها السياسية والاستعمارية في وادي النيل وعندما قام محمد علي باشا بازاحة النير العثماني عن مصر واشتبك مع تركيا في الحرب السورية تلاقت حينذاك المسألة المصرية بالقضية الشرقية وبلغت المنازعات الدولية أشدها واستفاقت مطامع الدول حيال ممتلكات الرجل المريض . (١) أوجست روسيا خيفة من انتصارات الجيش المصري وأدركت أن متابعة انتصارات محمد علي ستفضي الى استيلائه على عرش السلطنة العثمانية واحتلاله

....

(١) تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر الجزء الثالث ــ عبد الرحمن الرافعي بك ص : ٢٧١ ــ ٢٧٢ .

المضائق التركية وخشيت قيام دولة قوية فتية على تخومها على أنقاض الدولة العثمانية المتداعية الاركان وحينذاك يعسر بل يستحيل تحقيق حلمها المزمن وهو التمكن من الوصول الى البحر المتوسط عبر البوسفور والدردنيل • وسعيا وراء تحقيق أمانيها أوفدت روسيا الجنرال مورافييف (MOURAWIEF) الى السلطان محمود ليعرض عليه استعداد بلاده لحشد جميع قواتها البرية والبحرية للدفاع عن الامبراطورية العثمانية فكان لهذا العرض وقع الصاعقة في فرنسا وانكلترا وخشيتا امتداد النفوذ الروسي في الشؤون التركية فبذلتا الجهود لوقف تقدم الجيش المصري لكي لا تدع مجالا لروسيا لخوض الحرب الى جانب جارتها تركيا •

وسعت فرنسا لما لها من علاقات ودية مع مصر لاقناع محمد علي على تسوية الخلاف بينه وبين العثمانيين وأوفدت الى القسطنطينية الاميرال روسان (ROUSSIN) سفيرا لها لوضع حد للخلاف بين السلطان ومحمد علي وللحيلولة دون تدخل روسيا •

أصبحت مصر في ذلك الحين قبلة أنظار الدول الاوروبية وتوافد رسل هذه الاخيرة الى محمد علي من كل حدب وصوب : فحضر الجنرال مورافييف الى الاسكندرية وعرض على محمد علي الوساطة بينه وبين السلطان فتمسك محمد علي بوجهة نظره •

كما أرسل السلطان مندوبا عنه بايعاز من السفارة الفرنسية الى محمد علي ليفاوضه في حسم

الخلاف وديا وأوفد الاميرال روسان الى محمد علي يطلب اليه الاكتفاء بولايات صيدا وطرابلس والقدس ونابلس فرفض محمد علي كافة الاقتراحات واصر على ضم سوريا وولاية أدنة الى مصر • عندها رضيت تركيا بحماية روسيا فأنزلت هذه الاخيرة قواتها على الشواطىء التركية الآسيوية ورسا أسطولها في مياه البوسفور • (١) •

عند ذلك لم ير ابراهيم باشا بدا من متابعة الزحف فتقدم بجيوشه واحتل كوتاهية كما هدد السلطان بالزحف على الاستانة اذا لم تجب مطالبه فاضطر الباب العالي الى الاذعان وارسل الى ابراهيم باشا مندوبا عنه للمفاوضة وتم الاتفاق على الصلح في ٨ نيسان سنة ١٨٣٣ وهو المعروف باتفاق كوتاهية وبموجبه تخلى السلطان لمحمد علي عن سوريا وأقليم أدنة المشهور بكثرة مناجمه ووفرة أخشابه مع تثبيته على مصر وجزيرة كريت وبلاد الحجاز مقابل جلاء الجيش المصري عن بقية بلاد الاناضول • غير أن رداء الخذلان الذي ألقاه السلطان مكرها على غاربيه بعد صلح كوتاهية حمل الباب العالي لتحين الفرص في سبيل نقضه وازالة وصمة العار عنه من جرائه •

ولم يتورع السلطان حينذاك من عقد معاهدة سرية مع روسيا دعيت بمعاهدة هنكار أسله سي وهي عبارة عن معاهدة دفاعية هجومية التزمت كل دولة

(١) تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر الجزء الثالث — عبد الرحمن الرافعي بك ص : ٢٧٣ .

فيها أن تساعد الدولة الاخرى اذا استهدفت لخطر داخلي أو خارجي كما تعهدت تركيا لروسيا بالسماح لاسطولها بالمرور عبر المضايق من البحر الاسود الى البحر الابيض المتوسط ، كما خولت هذه المعاهدة روسيا أن تتدخل في شؤون تركيا وتبسط وشاح حمايتها عليها • كما أدركت تركيا أن الخطر الوحيد الذي يهب عليها هو ذلك المنبعث من مصر وابرامها المعاهدة مع روسيا كان يعني عدم صفاء نيتها في صلح كوتاهية •

أصبح ابراهيم باشا حاكما عاما للبلاد السورية وقائدا عاما للجيش المصري وجعل سليمان باشا الفرنساوي على أيالة صيدا (عكا) • غير أن تركيا ما فتئت بعد ابرامها اتفاقية كوتاهية تعد العدة لاستعادة اقليم أدنة واسترجاع سوريا وتجددت على أثر ذلك الحرب بينها وبين محمد علي وأسفرت عن انتصار المصريين على الاتراك في معركة نصيبين في ٢٤ تموز سنة ١٨٣٩ وأدت الى زعزعة التوازن الاوروبي فوقفت الدول الاوروبية حيال هذا النزاع مواقف مختلفة ففرنسا كانت تميل الى اقرار محمد علي باشا على سوريا وجزيرة العرب طبقا لاتفاق كوتاهية ولما أدت اليه نتيجة معركة نصيبين •

اما روسيا فقد اغتنمت هذه الفرصة لبسط حمايتها الفعلية على تركيا متظاهرة في الدفاع عنها • وأما رأي انكلترا فقد كان يلخص في وجوب المحافظة على كيان الرجل المريض ووجوب اعادة سوريا الى تركيا وقد ناصبت محمد علي العداء وقررت اخضاعه

بالقوة عاملة على تأليب الدول الاخرى عليه . لم تقف بريطانيا هذا الموقف حيال السلطنة العثمانية مدفوعة بعامل المحبة والاخلاص لها بل كانت مصلحتها تقضي بذلك وغايتها خنق الدولة المصرية الفتية في المهد حيث كانت ترى في بقاء محمد علي في سوريا خطرا على طريق الهند من ناحية الفرات والعراق وكذلك كانت ترى أن امتداد رقعة الدولة المصرية على الاراضي السورية يجعل منها دولة مرهوبة الجانب ودولة بحرية قوية من دول البحر المتوسط . أن عداء انكلترا لمحمد علي تعود أسبابه الى عام ١٨٠٧ حيث حاولت بريطانيا اخضاع مصر يومذاك وجعلها مستعمرة بريطانية فاعترض طريقها محمد علي وأقام في مصر دولة حديثة قوية أرجف بها قلب البريطانيين وغيرهم على السواء .

أن سياسة بريطانيا الاستعمارية كانت ترتكز على عدائها لمصر وقد سعت السنين الطوال لتقليم أظافر محمد علي واحباط مشاريعه التوسعية والهدف الثاني التي كانت تصبو اليه بريطانيا هو اضعاف مصر ليتسنى لها استعمارها فيما بعد .

أما مترنيخ وزير النمسا فقد كان ميالا الى تعزيز موقف تركيا لكي لا يدع لروسيا مجالا للتدخل في شؤون السلطنة العثمانية ولانه من ناحية ثانية كان ينادي بمبدأ الشرعية ويرى في محمد علي ذاك الثائر على الحاكم الشرعي الذي هو السلطان . (١) .

(١) تاريخ الحركة القومية في مصر ــ عبد الرحمن الرافعي بك ــ الجزء الثالث ــ ص : ٣١٤ .

أما بروسيا فقد كانت مصلحتها تقضي باتخاذ موقف مناقض لسياسة فرنسا مدفوعة بعامل الحقد والكره أزاءها ٠

وأما تركيا فقد كانت يومذاك متداعية الاركان تسلم زمامها فتى لا يتجاوز السابعة عشر من العمر هو السلطان عبد المجيد فرأى من الحكمة أن يفاوض محمد علي بالحسنى لحسم الخلاف بينهما ٠ وقد أوفد السلطان عبد المجيد الى محمد علي وزيره خسرو باشا المشهور بعدائه وكرهه لمحمد علي لمفاوضة هذا الاخير على أساس تخويله ملك مصر الوراثي ٠

الا أن سفراء الدول الخمس : النمسا وروسيا وبروسيا وانكلترا وفرنسا قدموا مذكرة الى الباب العالي بوحي من مترنيخ يعارضون فيها كل حل للمسألة المصرية يتم على انفراد بين تركيا ومصر ٠ وقد كان مترنيخ يبغي من وراء ذلك الحؤول دون انفراد روسيا بالتدخل في المسألة الشرقية ومن الغرابة أن تشترك فرنسا في هذه المذكرة في الوقت الذي كانت تنادي وتجاهر بتأييد محمد علي ٠ الا أنه كان يعوز السياسة الفرنسية الحزم والاستقرار وبعد النظر وستكون هذه النقائص في السياسة الفرنسية وبالا على الدولة المصرية الفتية ٠

وبالاختصار كان لكلّ دولة من الدول الاوروبية بصدد انهاء الازمة بين مصر وتركيا رأي يختلف عن آراء الدول الاخرى ٠

فكان رأي فرنسا المعلن بواسطة تيارس (THIERS) رئيس الوزارة ووزير الخارجية هو ضم سوريا الى مصر وأن يتم الاتفاق على ذلك رأسا بين محمد علي والسلطان ٠

أما بلمرستون رئيس وزراء انكلترا فقد عارض هذا الرأي واقترح حلا وسطا هو أن يعطى محمد علي الحكم الوراثي لمصر وولاية عكا ما عدا مدينة عكا فرفضت فرنسا هذا العرض كما رفضته مصر التي كانت تساند حينذاك من قبل فرنسا ٠ وأزاء هذا الرفض لم ير بلمرستون بدا من مفاوضة الدول الاخرى روسيا والنمسا وبروسيا وتركيا ودعوتها لوضع حل نهائي تضع بهمصر وفرنسا أمام الامر الواقع فكانأن وضع بلمرستون هذا الحل أثناء عقد معاهدة لندن الشهيرة في ١٥ تموز ١٨٤٠ وهو المعاهدة التي عقدت بين انكلترا وروسيا والنمسا وبروسيا وتركيا ٠ وقد نصت هذه المعاهدة على :

١ = أن يخول محمد علي وخلفاؤه حكم مصر الوراثي ويكون له مدة حياته حكم المنطقة الجنوبية من سوريا المعروفة بولاية عكا بشرط أن يقبل ذلك بمدة لا تتجاوز عشرة أيام وأن يتخلى عن كافة الاراضي التي احتلتها الجيوش المصرية ٠

٢ = اذا لم يقبل هذا القرار في مدة عشرة أيامبحرم من ولاية عكا ويمهل عشرة أيام أخرى لقبول الحكم الوراثي لمصر وسحب جيوشه من جميع البلاد العثمانية واذا انقضت هذه المهلة دون قبول تلك الشروط كان

السلطان في حل من حرمانه ولاية مصر (١) • وقد تضمنت هذه المعاهدة بنودا مجحفة بحق محمد علي لم يرض بها معتمدا على تأييد فرنسا له ولمعاضدته في موقفه • وسرعان ما خاب ظن محمد علي بحصول ما لم يكن في الحسبان وهو تغير مسلك فرنسا حيال مصر تغييرا عظيما فبعد أن كان تييرس يشجع محمد علي ويمده بمساعدة فرنسا له تراجع ونكص على عقيبة وعمد الى سياسة التسويف ومضى يتخبط من فشل الى فشل بعد أن أوقع مصر في ورطة جعل الدول الاوروبية تتألب ضدها فلم ير تييرس بدا من تقديم استقالة وزارته • وقد ألف المارشال سولت الوزارة الجديدة فنفضت يدها من المسألة المصرية •

بامرستون عقبة كأداء في وجه محمد علي :

ولما كان بلمرستون يرى أن الخطر لا يهب من ناحية روسيا بقدر مايهب من جهة فرنسا التي كانت تعمل على مساندة محمد علي وعلى انشاء دولة شرقية قوية تكون تحت رعايتها وتستوحي سياستها من توجيه فرنسا لذلك وجه عنايته نحو تدعيم موقف انكلترا في شرق البحر المتوسط كما حمل السلطان على منح انكلترا محمية عدن وعمد الى تقليم أظافر محمد علي باقصائه عن ديار بكر اذ كان بلمرستون يعتقد أن سيطرة محمد علي على ديار بكر معناه سيطرته على طريق الهند البرية كما عمد الى تحريض أهالي سوريا للثورة على الفاتح المصري •

(١) تاريخ الحركة القومية في مصر ج ٣ — عبد الرحمن الرافعي بك ص : ٣١٧ •

وقد كان في موقف فرنسا المتخاذل خير معـــوان على تنفيذ مآربه واعلان كوامن ضغينته وقد بلغ من حقد بلمرستون على محمد علي أن أشار على السلطان عبد المجيد بعزله ففعل ٠

وأشفع بلمرستون عمله هذا بتجريد حملة بحرية عنيفة وجهها الى سوريا بالاشتراك مـع أساطيـــل النمسا وتركيا وأطلقت الوحدات البحرية قنابلها على بيروت وأنزلت بعض الجيوش في ساحـل صيـــدا ٠ فأسقط حينذاك في يد محمد علي سيما بعد وصـــول الاسطول الانكليزي الى مياه الاسكندرية عندها أعلن محمد علي خضوعه دون قيد أو شرط كما كان يروم بلمرستون ٠

وقد شاءت الاحداث الدولية والتي لا مجال لبحثها الآن بأن أفضت الى الاعتراف بمحمد علي في مصـــر بصورة وراثية ٠

بعد هذه النظرة الى امتداد آثار الحملة الفرنسية على الاوضاع في الشرق والوقوف على صداها ومداهـا نرى من المفيد انهاء هذه الرسالة بالخلاصة التالية :

الخلاصة

لم يبق بعد عقد معاهدة كامبورفورميو من أعداء لفرنسا سوى انكلترا (١) تلك الدولة التي ظلت لآخر لحظة معادية لنابليون • وقد كانـــت انكلترا في رأي بونابرت أصلب أعدائه عودا لما هي عليه من الثـروة واتساع المستعمرات والقوة البحرية وفضلا عن أنهـا كانت تبث الفتنة في فرنسا فقد كانت بذات الوقت ملاذا للاجئين الفرنسيين من دعاة الملكيـة ومحـــور التحالف الاوروبي ضد الجمهورية الفرنسية وصاحبـة السيطرة على البحار • ولم يخف هذا الامـــر علـــى بونابرت الذي كتـــب في ١٨ تشرين أول سنـــة ١٧٩٧ « يجب علينا سحق انكلترا والا سحقتنا وللقضـــاء عليها يجب توجيه كل قوانا نحو البحر فاذا نجحنـــا أصبحت أوروبا تحت أقدامنا • » •

لهذا فقد كان على فرنسا تنظيم بحرية قويـــة لمناوأة انكلترا وانتزاعها سيادة البحار منها غير أن مصادفات التاريخ شاءت أن تبقى فرنسا ضعيفة في

(١) — HISTOIRE DIPLOMATIQUE DE 1648 à 1919 JACQUES DROZE P. 217.

بحريتها بالرغم من أنه لم يظهر لقوتها الحربية البرية مثيل في أوروبا ٠

ويعود السبب في ذلك الى أنه وان تكن الثورة قد بعثت في جيوشها البرية روحا جديدا فقد أحدثت روحا سيئا في قواها البحرية التي غشيها الفساد لسوء فهمها لمبادىء الثورة فضربت بالنظام عرض الحائط وباتت لا تعرف لاختلاف درجات الرجال معنى مما أدى الى قيام الفتن في أحواض السفن واضطر العدد الكبير من الضباط أبناء الاسر العريقة الى ترك الخدمة وأصبح العبث بالنظام في القوى البحرية الفرنسية تلك القوى التي أبلت بلاء حسنا أثناء الحرب الاميركية علة مزمنة رافقتها حتى في أوج مجد نابليون

لقد كان على فرنسا أن تزيل تلك العقبة الكأداء من طريق تقدمها :وهي انكلترا فرأت في القائد الشاب بونابرت ضالتها المنشودة فعينته على رأس الجيوش التي ستوجه ضد الجزيرة الانكليزية ٠

ولما أدرك بونابرت بثاقب نظره ، استحالة غزو بريطانيا قبل تأمين المعدات اللازمة والتي يستغرق تحضيرها وقتا طويلا وكان يعتقد بأن انكلترا تستمد معظم قوتها من تجارتها الواسعة وممتلكاتها في الهند صمم على سلك طريق آخر لتقليم أظافر بريطانيا بقطع موارد مستعمراتها عنها وكان ذلك بتوجيه الحملة الى مصر (١) ٠

---

(١) HISTOIRE DIPLOMATIQUE DE 1648 à 1919

ولما كان الوضع السياسي الداخلي في فرنسا يحدو بمن بيدهم زمام الامور الى ابعاد بونابرت عن جوهذه السياسة وحيث كانت طلائع خطره على النظم الديموقراطية تبرز للوجود سهلت للقائد الشاب سبل القيام بالحملة ٠

ولما كانت هذه الحملة باهظة التكاليف وتتطلب أموالاً طائلة فقد ذللت هذه العقبة المالية بتذرع الجمهورية الفرنسية بسبب واه لغزو سويسرا فاستولت في برن (BERNE) على كنوز خصصت ثلاثة ملايين فرنك منها لحملة مصر ٠

أما ALBERT VANDAL فيقول (١) ليس بصحيح أن مديري السنة السادسة وهم الذين امتعضوا لدى رؤيتهم بونابرت يبتعد عنهم أن يكونوا قد دفعوا ليبعدوه الى مصر ٠ ان حملة مصر لهي من نسج مخيلة بونابرت الشخصية وأن مشروع الحملة هو أحد الاعمال التي تعود بالكلية الى انتاج قريحة نابليون ـ كذلك من الخطل الاعتقاد بأن تلليران قد دفع ببونابرت الى اتخاذ ذاك القرار وعلى الاقل بالصورة التي نفذ فيها ٠

ـ لقد راودت بونابرت فكرة القيام بحملة على مصر وهو في (VENISE) ٠ هناك داعبت مخيلته فكرة الحلم الشرقي فرأى فيه سانحة للقيام بالاعمال العظيمة ٠

ولما كانت فرنسا لا تحرز سيادةِ البحر فبات

---

(١) L'AVENEMENT DE BONAPARTE I, P.178.

من الجنون الذهاب الى أيرلندا • وبالعكس ففي حال تحريره اليونان ومسيحي الشرق بجيوش الجمهورية الفرنسية من النير التركي فيجد بينهم وبين العرب عددا كبيرا من المتطوعين لاهداف لا حصر لها ولا حد•
ونجد بونابرت يقول فيما بعد بهذا الصدد :

لم أكن أعلم عندما أبحرت ما اذا كنت اودع فرنسا الوداع الاخير • وكنت أتخيل نفسي على طريق آسيا ممتطيا فيلا والعمامة على رأسي وبين يدي قرآن جديد

ويقول (GOURGAUD) : في معرض حديثه عن بونابرت : أن هذا الاخير بعد أن غلب على أمره في الغرب كان يتحرق ندما لعدم ثباته في الشرق ففي ١٥ آب عام ١٨١٥ بينما كان بونابرت و (GOURGAUD) على ظهر الباخرة NORTHUMBERLAND لم يكن جلالته يفارق غرفته وقد استدعى (GOURGAUD) وقال له لقد كان من الاوفق الا أغادر مصر فقد كان بامكاني البقاء فيها فالعرب كانت بانتظار رجل وبابقاء الفرنسيين كاحتياط واتخاذ العرب كمساعدين كنت أصبحت سيد الشرق واستوليت على أرض فلسطين •

وفي حال الفشل ففرنسا باقية له حيث أن شهرته المتزايدة وأخطاء المديرين المتكررة من شأنها أن تستدعيه وتفتح له طريق المجد والسلطان (١) •
لقد كانت فكرة التمتع بجمال الشرق حلما من

---

(١) NAPOLEON ET TAI
- EMILE DARD P. 27.

أحلام صبا بونابرت لازمه ملازمة الظل كما كانت ذكرى الاسكندر الكبير ماثلة أمام عينيه فقرر الاقتداء بالفاتح الاغريقي واقتفاء أثره وقد عبر عن فكرته بتاريخ ٢٩ كانون الثاني عام ١٧٩٨ بقوله : « لا أريد المكث هنا فليس من عمل أقوم به • ان آذان القوم صمت وان هذا البلد مقبرة النبوغ • بليت شهرتي على جدتها وليست أوروبا بالميدان الواسع اتساعا كافيا أما الشرق فمجال نيل الشهرة الواسعة •

كما كان بونابرت على يقين بأن الشهرة مهما تبلغ فأن جذوتها لا تلبث أن تنطفي اذا هي لم تذكها جلائل الاعمال •

عصفت في ذهن بونابرت فكرة اخضاع بلاد الشرق وتنظيمها حسب ارادته تلك البلاد المترامية الاطراف والراسخة التقاليد فلاقى من حكومة المديرين الموافقة على المشروع ولا عجب فان فرنسا كانت تعتبر أرض الكنانة مطمح آمالها منذ أيام سان لويس وحملته الصليبية الشهيرة •

وبالرغم من أن طريق الحملة الفرنسية الى مصر كان محفوفا بالمخاطر فقد صادف نابليون الحظ في البدء بوصول أسطوله سالما الى المياه المصرية وعدم وقوعه تحت نيران أسطول أمير البحر الانكليزي نلسن الذي كان له بالمرصاد • غير أنه لم يمض وقت طويل حتى حصل ما كان يتوقعه بونابرت ودمر القسم الكبير من الاسطول الفرنسي في معركة أبي قير البحرية في أول آب عام ١٧٩٨ وحينذاك لم تعد الحملة سوى مجازفة

بعد أن كانت بداية لحدث خطير ٠

حادثتان فجائيتان أفسدتا على نابليـــون كـل خططه وهما :

١ = انتصار الانكليز على الفرنسيين في البحر ٠
٢ = قطع العلاقات بين فرنسا وتركيا ٠

فالحادثة الاولى التي جرت في أول آب قطعـــت المواصلات بين الجيش الفرنسي ووطنه الام وخيبـت آمال الجند ٠ فبعد أن كانوا يمنون أنفسهم بالقصور الفخمة وجدوا أمامهم أكواخا من الطين ٠

ـ وبعد حلمهم بالنبيذ المعتق لم تبتل شفاههـم بغير الماء الآسن ٠

ـ وبعد أملهم بترحيـــب السكان بهم وجـــدوا أنفسهم عرضة للقتل والتنكيل ٠

وأسفرت الحادثة الثانية عن اعلان الباب العالي الحرب على فرنسا وانضمامه الى التكتـــل الثانـــي ومواصلته مع حلفائه الحرب ضد الجمهورية الفرنسية حتى تم جلاء الجيش الفرنسي عن كافة الاراضـــي المصرية ٠

بدأت الحملة الفرنسية على مصر يحفها الجـلال وانتهت بتسلل صاحبها في الخفاء ٠

وكان لتفوق الانكليز في البحر على الفرنسييـــن صدى بعيد الاثر على فشل الحملة الفرنسية ٠ أن عدم وجود بحرية قوية لدى الفرنسيين كان نقطة الضعف في هذه الحملة كما كان في كل قتال خاضته فرنسا ضد

بريطانيا • لقد كان مشروعا بونابرت المرتكزان على حملة مصر وهما : •

مشروع احتلال الهند والاستيلاء على القسطنطينية يعوزهما التحضير ويشوبهما الخطأ في التقدير فلم تقدر الجمهورية الفرنسية ولا بونابرت عظم الخطوة التي أقدمت عليها فزلقت وقديما قال الشاعر :

قدر لرجلك قبل الخطو موضعها
فمن علا زلقا عن غرة زلجا

لقد جرت الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ وربما كان حدوثها حتميا فقد كان لا بد من أن تصطدم الدولتان الفرنسية والانكليزية في تنافسهما الاستعماري على امتلاك مصر التي وصفها المؤرخ جورج يونغ بأنها : دهليز الى غرفة العرش الآسيوي •

لقد هزت الحملة النابليونية مصر من سباتها العميق ولكن أحدا ما في مصر لم يرحب بهذه اليقظة • ورغم اعلان نابليون بأنه صديق للسلطان العثماني وانه جاء لينهي حكم المماليك الفاسد ويعيد الى الشعب حقوقه وينهي آلامه وأنه كصديق للاسلام قد جاء ليدعم الدين فان المصريين أحجموا عن تلقي ذراعيه اللتين فتحهما لمعانقتهم • وكان ذلك متوقعا منهم اذان تجربتهم التاريخية قد عززت الشك في نفوسهم بكل قادم أجنبي •

وهكذا فان الاسكندرية أغلقت ميناءها في وجه بونابرت

فاضطر الى انزال قواته في جوردىء في ميناء أبي قير لقد التف المصريون حول لواء المماليك المتعبين الذين أعدوا عدتهم للحرب ولكن بعد أن أفرغوا خزانة الدولة كما أن الوالي التركي أعلن عداءه لبونابرت وهرب الى سوريا رغم أن نابليون أعلن أنه صديق للسلطان العثماني وأنه جاء لانقاذ حقوقه . واذ أخذ نابليون يطارده من دون جدوى أبحر نلسون بأسطوله الى ميناء أبي قير وحطم الاسطول الفرنسي وهكذا فقد تحولت مصر الى فخ وقع فيه الفاتح المفلس الذي وجد نفسه بين شعب استسلم له ولكنه لم يخضع كما وجد نفسه صاحب جيش يكاد يكون غير قادر على اطعامه والواقع ان حاجته الملحة الى المال قد خربت جهوده الصبورة من أجل كسب ود المصريين وولائهم . فقد فرض في بادىء الامر جزية اجبارية على الجميع .فلما استنفد المال المجموع بدأ يصادر أراضي الذين لا يستطيعون أن يبرزوا حجة ملكيتهم لها .

ولما أخذ يطبق هذا المنهج في القاهرة هبت ثائرة في وجهه . ولما حل فصل الشتاء حيث لا محاصيل ولا ضرائب عاد جباة بونابرت يستخدمون في جبايتهم السوط والمصادرة وهكذا لم تمض ستة أشهر على وصول نابليون في مهمته التمدينية حتى كانت هذه المهمة قد انهارت تماما أمام الحقائق القاسية : حقائق العوز وعداء الشعب المصري الذي أخفق في كسب وده .

كما أن السلطان العثماني لم يرض بهذا المتطوع الذي جاء لانتزاع حقوقه من أيدي المماليك فأعلن الحرب

على نابليون وجرد عليه حملة جابهها بوتابرت بعنف وهزم القوات التركية في عدة مواقع الا ان انتصاراته لم تكن حاسمة •

لم يتح الشعب المصري لنابليون أية فرصة لقضاء أهدافه • وهكذا فقد أخفقت كل خططه الرامية الـى التغلب على العنعنات الدينية التي تثير الشعب عليه كفاتح أجنبي والرامية الى اعادة تنظيم الادارة الحكومية وتعليم المصريين وسائل الحكم الحديثة •

لقد أخفقت خططه بسبب المعارضة القوية المستمرة التي جابهها من السكان الذين تكشفوا بمقاومتهم السلبية الشكل للغزاة « الكفار الاجانب » عن قوة شعورهم الوطني على الرغم من افتقارهم لكل شيء من أشكال الوحدة القومية الصحيحة •

ومع ذلك فان حملة نابليون في بعث مصر كامنة وان أعمال المائة والعشرين خبيرا الذين جاء بهم لدراسة أحوال مصر بالاضافة الى المعهد الفرنسي الممتاز الذي أنشأه للقيام بالدراسات والابحاث قد سارعت في تعريف مصر الى العالم الخارجي كما أمدت مصر بلمحة عن علوم أوروبا ونهضتها الصناعية •

وقد كان للحملة الفرنسية تأثير كبير على تقدم الصناعة في مصر والدليل على ذلك أنه لم يعثر في كتابات العلماء الذين رافقوا الحملة الفرنسية سوى على وصف لصناعات وحرف بدائية يقوم بها عدد قليل من العمال لتزويد السكان بالضرورات الاولية

(١) تاريخ الصناعة في مصر — الدكتور علي الجرتلي ص : ١٦

من الغذاء والكساء والادوات المنزلية (١) وكان استعمال الطواحين الهوائية قاصرا على الاسكندرية.

وكانت مصر حتى وصول الحملة الفرنسية اليها تجهل التغيرات الفنية التي طرأت على الانتاج في أوروبا • أن احضار الفرنسيين لبعض الآلات الجديدة واستعمالها في المصانع التي أنشئت لتزويد الجيوش ببعض الحاجيات ولتصليح الأسلحة دفع بعض المنتجين المحليين الى تقليد هذه الآلات •

ويذكر الجبرتي في تاريخه أن أحد أرباب الصناعة المدعو محمد الودنلي اقتنى كتبا كثيرة تمكن بفضلها من صنع الجوخ الملون الذي كان يلبسه الناس للتجميل (١) • وقد كان من آثار الحملة الفرنسية على مصر أن أفنت عددا كبيرا من سكان وادي النيل وأنقصت نسلهم وذلك نتيجة للثورات والمعارك •

ولقد تعلم المصريون بصورة خاصة من نابليون : وسيلة اذاعية أصبحت عنصرا حيويا في حركتهم القومية فيما بعد وهذه الوسيلة تكمن في استخدام الطباعة : فقد جاء نابليون الى مصر بمطبعة عربية صادرها من الفاتيكان واستخدم النشرات المطبوعة لترويج دعايته (٢) •

أن تدمير الاسطول الفرنسي في معركة أبي قير

(١) تاريخ الصناعة في مصر — الدكتور علي الجرتلي ص : ٨٨

(٢) جمال عبد الناصر رائد القومية العربية : توم ليتل

الفصل الخامس •

البحرية أحدث تغييرات هامة في مشاريع الجنرال بونابرت : لقد كان على الاسطول الفرنسي أن يعود من مصر الى أوروبا ليقل قافلة ثانية من الجند فكان تدمير الاسطول قضاء على ما كان بونابرت قد أزمع على انجازه من مشاريع لاحقة ·

كما خفف تدمير الأسطول من حدة تذمر الجند وسكن من جذوة عاطفة الحنين للعودة الىالوطن وجعل وضع جنود الحملة الفرنسية في مصر أشبه بوضع الجيش العربي الذي أرسل لفتح بلاد الاندلس بقيادة طارق بن زياد الذي استهل خطابه الشهير بعبارة أيها الناس أين المفر ··· مع فارق مهم أن طارق بن زياد هو الذي أمر باحراق السفن في حين أن تدمير الاسطول الفرنسي قد حصل يالرغم عن ارادة الجنرال بونابرت·

لقد كانت الشهور الاولى من اقامة الحملة الفرنسية في مصر خصبة بالاعمال المنشئة والبناءة · فقد استدعى بونابرت لجنة العلماء من الاسكندرية الى القاهرة وعهد الى كل فرد من أعضائها بادارة مؤسسة كلف بانشائها وادارتها :

فقد أنشئت في الاسكندرية DAMIETTE ROSETTE والقاهرة مطاحن بحيث تصنع دقيقا يضاهي في جودته ذاك الذي كان الفرنسيون يصنعونه في باريس · وأنشئت أفران أصبح صنع الخبز بواسطتها عادة مألوفة بعد أن كان نادرا في السابق · وأنشئت مستشفيات بحيث كان فيها لكلّ مريض سريره بفضل

جهود الطبيبين LARREY و DESGENETTE اللذين كانا موضوع تقدير الجنرال بونابرت واعتراف الجيش بفضلهما .

وأسست مصانع لصنع ملح البارود ومطاحن لهذه المادة . كما انشىء مصب وفرن ذات مرآة عاكسة كانت تصب بواسطته القذائف الضخمة العيار والتي كانت موفورة جدا ليجري تحويلها الى عيارات أصغر لاستعمالها من قبل مدفعية الجيش .

وقد أقيمت مشاغل واسعة لصناعة القفال والاسلحة والعربات والاخشاب والنجارة والحبال . وقد استخدم الملاحون المسنون ـ الذين لم يسمح لهم سنهم بتغيير المهنة ـ في صناعة أسطول على النيل مؤلف من مختلف أنواع القوارب مجهز ومسلح أنيطت قيادته بضباط البحرية وقد أدى هذا الاسطول خدمات جمة في نقل الجند والمعدات .

وقد جهز الجيش بملابس قطنية زرقاء وقبعات من السختيان الاسود (جلد المعز المدبوغ والملون) (MAROQUIN) كما جهز الجند بمعاطف صنعت من الصوف المصري لارتدائها ليلا . ولم يسبق ان كان الجيش الفرنسي مجهزا في أي عهد من العهود بأحسن من هذا التجهيز وكان يحتوي غذاء الجندي على الخبز المفتخر واللحم والارز والبقول الناشفة والسكر والبن ليعوضا عن المشروبات الروحية التي لم تكن معروفة في مصر قبل وصول الحملة الفرنسية . كما لوحظ تقدم

محسوس في صناعة الطاولات والكراسي والنسيج القطني والاحذية المصبوغة من السختيان • وما كادت عبقرية علماء الحملة الخلاقة تفرغ من سد الحاجات الاولى للجيش حتى أدخلت صناعة معدات البذخ والفخفخة • فقد راجت صناعة الآنية الخفيفة والسهلة النقل كما كثر استعمال الطاسات الفضية ولم يبق الا القليل من الجند الذي لم يكن حائزا على ملعقة من هذا المعدن •

وقد لاقى صانعوا الحلوى والمقطرون نجاحا كبيرا كما أنشئت فيما بعد صناعة الخياطين والطرازة • ولم يمض سوى أشهر قليلة على وجود الفرنسيين في مصر حتى شوهد ورق اللعب والبليار وطاولات اللعب كانت تصنع في القاهرة • كما استخدمت الطباعة بالفرنسية والعربية •

وقد بذل علماء الحملة الفرنسية في وقت قصير من الجهود حتى أمكن القول أن كل ما كان لازما للفرنسيين للاقامة على الطريقة الاوروبية كان قد تم انجازه أو كان قيد الصنع (١) •

وختاما يمكن القول : لا عجب اذا كان الفشل بالمرصاد لحملة كالحملة الفرنسية على مصر لاسباب متعددة •

فالنفور والبغض كانا مستحوذين على عقلية

(1) MEMOIRE DU DUÇ DE ROVIGO T.I P.100-105

القائمين بادارة دفة الحكم في الجمهورية الفرنسية الفتية عقب الثورة الكبرى .

وعدم الثقة يهيمن على أغلبية المشاريع والاعمال المزمع تنفيذها والمنافسة على المراكز مندفعة كالسيل الجارف ومسيرة بوحي الفكرة القائلة : الغاية تبرر الواسطة .

وبذات الوقت الذي كان فيه تلليران يؤيد بونابرت في مشاريعه التوسعية ويشجعه على المضي قدما ويدله على طريق المجد كان بذات الوقت يرسم له طريق الفناء . ولئن تكن الثورة الفرنسية الكبرى ثورة على القديم وتقويضا لصرح الملكية في فرنسا فقد بقي للملكية فيها أنصار ومؤيدون يعملون في الخفاء لاعادة ذاك الصرح بمساندة بقية الملكيات التي تألبت لمقاومة الجمهورية الفتية .

ومن العجب أن تكتب الحياة لجمهورية يتآكل الحقد والتسابق على النفوذ نفوس القائمين على ادارة دفتها وجمر مؤيدي الملكية الرجعيين تحت الرماد والملكيات المعاصرة تتنادى لخنقها في المهد . ان العبارة التي أطلقها رولان (ROLAND) عقب معركة « فالمي » أن الواجب يقضي بأن ندع الالوف ممن هم تحت السلاح يسيرون الى أبعد ما تحملهم الركاب والا انقلبوا فقطعوا رقابنا (١) لهي مرآة تنعكس عليها نفسية ذوي الشأن في الجمهورية الفرنسية الفتية وتعبر أصدق تعبير عن الوضع القائم كما كانت

(١) التاريخ الدبلوماسي العام — الدكتور عبد الرزاق الحفار ص : ٣٠

تجيش في صدور ذوي النفوذ والسلطان عاطفة الاستئثار والانانية

وما حملة بونابرت على مصر الا عملا مستوحى من فكرة رولان فيما يتعلق بمشجعي نابليون على القيام بها وان تكن في الاساس كما ظن البعض من وحيه ·

لقد كانت حملة مصر خسارة على فرنسا فقد كلفتها تضحيات باهظة · ومن الخطل القاء مسؤولية هذه الخسارة على بونابرت وتلليران فقط ذلك أن عددا من الرجال قد ساهم في تقديم فكرة القيام بهذه الحملة

غير أن الشيء الوحيد الذي يستوجب اللوم هو حملة بونابرت العقيمة على سوريا لان الخسارة كانت له بالمرصاد نظرا لقلة عدده · لقد كان أولى به أن يبقي في مصر ويعمل على حسن ادارة البلاد دون التفريط في مواردها · وقد كانت انتقادات كليبر لبونابرت في أكثر من مناسبة في محلها ·

ومع أن بونابرت قد أحرز عدة انتصارات على المماليك واحتل القاهرة فلم يبق من كل ذلك سوى صدى لبعض عبارات أطلقها أيها الجنود من أعالي هذه الاهرام أربعون جيلا ترنو اليكم كما بقي صدى للاعمال التي قامت بها لجنة الابحاث عن الآثار في مصر وانتشار اللغة الفرنسية في وادي النيل ·

تابع الزحف على سوريا سعيا في تحقيق حلمه الكبير ففشل أمام أسوار عكا التي حصنها الأميرال سدني سميث وقد قال بونابرت في معرض الحديث عن

هذا الاميرال لقد تعثر حظي بسبب هذا الرجل (١) وكما ألمح الى عكا في احدى الاقوال المأثورة عنه (لقد أوقفت عجلة حظي حبة من الرمل) لقد كان بونابرت فاتحا ولم يكن مستعمرا فما يكاد يصل الى بغيته كفاتح ومؤسس للدول حتى تلوح له آمال ومفاخر جديدة من شانها أن تدفعه قدما في طريق المجد فيندفع اليها اندفاع الاتي • ويعتقد البعض أن كليبر أكثر جدارة من بونابرت في مضمار الاستعمار كما كان أكثر مهارة منه في تعامله مع المسلمين • ومن الخطأ الاعتقاد أن بونابرت قد نفذ الى الشخصية الاسلامية فلقد أفرط في تقديره في هذا الحقل كما في غيره من الحقول لقد كان ماهرا في الحقيقة في تأليف خطابات وبيانات يوجهها الى المسلمين ولكن فعله لم يكن يوازي قوله • وبالاجمال فقد كانت مصر على طريق صيروتها مستعمرة فرنسية تحت سلطة كليبر لو تمكن المسؤولون يومذاك من تأمين الاتصال بينها وبين فرنسا (٢) •

ان جلاء الفرنسيين عن مصر لم يضع حدا للمشاريع التي باشروا بها في أرض الكنانة ولم ينجزوها حيث كان لها دوي في آذان محمد علي الكبير استفاق على صداها النفوذ الفرنسي في وادي النيل حيث كان للفرنسيين يد طولى في دعم الصرح الذي أقامه محمد علي وتشييده وتدعيمه •

(١) VIE DE BONAPARTE . JACQUES BAINVILLE P.15-16

(٢) NAPOLEON TOME I. FRIEDRICH M. KIRCHEISEN P. 184-185-186.

ولئن كان هذا الصرح لم يثبت طويلا أمام العواصف الهوجاء فذلك عائد الى أن تلك العواصف كانت على جانب من الشدة من شأنها أن تزعزع أركان هذا الصرح الحديث البناء ٠

وقد كان للثورات المتنوعة التي عصفت بأوروبا آنذاك نوع من رد الفعل فالحكومات التي ألفت كانت تتخوف من الرجال البعيدي الهمة وتتنادى للتعاون بغية الابقاء على مبدأ الشرعية ٠ ولهذا فلم تنظر أية دولة من دول أوروبا بعين الارتياح الى التوسع الهائل الذي أحرزه محمد علي فقد صرح (GUIZOT) بما يلي:

ان لفرنسا عطفا صريحا على محمد علي ولكنها لا تجرؤ على أن تبوح به عالميا ٠ وهذا العطف يعود تاريخه الى أيام حملة بونابرت وأن التأثير الكبير الذي كان لفرنسا في مصر لم يكن يستهان به ٠

أما انكلترا والنمسا وبروسيا فقد كان همها الدفاع عن الامبراطورية العثمانية ضد محمد علي ٠

كما كانت كذلك سياسة روسيا مع فارق وحيد أن هذه الاخيرة كانت تحاول السيطرة على تركيا في ذات الوقت الذي تحاول فيه حمايتها وهذا مما يفسر مساعدتها المباشرة لها ٠ ونظرة الى الحملة الفرنسية على علاتها ووضعها في ميزان التاريخ وبالرغم مما شابها من خطأ في التقدير فان ذلك لا يدعو الى التقليل من عظمتها ولا للانتقاص من قدرها فقد أقام بونابرت في مصر نظام الحكومات المتمدنة بانشائه

الديوان وأتاح لاوروبا دراسة عملية للآثار المصرية بانشائه المجمع العلمي ولا يزال كتاب تخطيط مصر يحتل مكانه المرموق في خزائن الكتب العلمية وبعد أول وصف علمي لوادي النيل .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

مصادر البحث

١ ـ المصادر العربية للاطروحة

١ : عبد الرحمن الرافعي بك ـــ تاريخ الحركـــة القومية في مصر الجزء الاول ـــ القاهرة ـــ الطبقة الثانيـــة طبع سنة ١٩٤٤

٢ : عبد الرحمن الرافعي بك ـــ تاريـــخ الحركـــة القومية في مصر ـــ الجزء الثاني ـــ مطبعة النهضة بشـــارع عبد العزيز بمصر ـــ طبع سنة ١٩٢٩ ـــ

٣ : الدكتور محمد فؤاد شكري ـــ الحملة الفرنسيـــة وظهور محمد علي ـــ مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

٤ : الاستاذ عبد الرزاق الحفار ـــ التاريخ الدبلوماسي العام ١٧٨٩ ـــ ١٨٤٨ ـــ طبع سنة ٩٥٧

٥ : اميل الخوري وعادل اسماعيل ـــ السياســـة الدولية في الشرق العربي من سنة ١٧٨٩ الـــى سنـــة ١٩٥٨ . مطبعة دار النشر للسياسة والتاريخ بيروت سنة ١٩٥٩ .

٦ : الدكتور علي الجرتلي ـــ تاريخ الصناعة في مصر

طبع سنة ١٩٥٢ .

٧ : عبد الرحمن الرافعي بك ـــ تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ـــ الجزء الثالـــث ـــ . الطبعة الاولى سنـــة ١٩٣٠ .
عدد الصفحات ٦٥١ .

٨ : توم ليتل ـــ جمال عبد الناصر رائد القومية العربية

I= FRANCOIS DUHCURCAU

BONAPARTE peint par lui-même
Editions SPES. -17- Rue SOUFFLOT PARIS (V°)
Achevé d'imprimer le 23 Juillet 1937.

2= DMITRY MEREJKOVSKY.

Vie de NAPOLEON I 1769 - 1807
Traduit du russe par M.DUMESNIL DE CRAMONT.
1930 -

3= DESIRE LACROIX BONAPARTE en EGYPTE (1798-1799)
1899 -

4= JACQUES BAINVILLE. Vie de NAPOLEON 1935 -

5= FRANCOIS CHARLES ROUX. Les origines de l'expédition d'EGYPTE. 1910 -

6= Mémoires du Dux de ROVIGO. Pour servir à l'Histoire de l'Empereur NAPOLEON. Tome premier - seconde Edition PARIS.

7= EMILE DARD. NAPOLEON ET TALLEYRAND. PARIS. Librairie plon. imprimeurs - Editeurs 8.

8= ACHAFIK PACHA - L'EGYPTE moderne et les influences étrangères. Le CAIRE - Imprimerie Misr. S.A.E. 1931 -

9= FRIEDRICH M. MIRCHEISEN - NAPOLEON (1760-1805)

10= Histoire Diplomatique de 1648 à 1919.
JACQUES DROZE PARIS Librairie dolloze 11.
1959 -

فهرست الاطروحة

الصفحة	الموضوع

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الصفحة　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　الموضوع

الصفحة | الموضوع

الصفحة	الموضوع

الجمهورية اللبنانية
الجامعة اللبنانية
كلية الحقوق

ن.ش.

رقم المحفوظات ٥٠/
رقم الصادر ١٨٤٨/٨٤٩

أفادة

بيروت في ٢٢ أيلول ١٩٦٢

يفيد عميد كلية الحقوق بالجامعة اللبنانية أن النقيب طلال عامر المهتار من التابعية اللبنانية والمولود في عرمون عام ١٩٢٧، حصل على الشهادات التالية :

	الدورة	الدرجة
شهادة في الحقوق العامة ١٩٥٨-١٩٥٩	الأولى	
شهادة في التاريخ السياسي ١٩٥٨-١٩٥٩	الأولى	حسن
شهادة في العلاقات الدولية والمعاصرة ٥٩-٦٠	الأولى	
شهادة في العلوم الاقتصادية العامة ٥٩-٦٠	الأولى	
شهادة في الاقتصادية المالية التطبيقية ٦٠-٦١	الأولى	

وفاز بمناقشة رسالة موضوعها : "آثار حملة بونابرت على مصر" بدرجة جيد وأصبح حائزاً الاجازة في العلوم السياسية والاقتصادية وفقاً لبرنامج الأكاديمية اللبنانية.

وبناء على طلبه أعطيت له هذه الافادة

أمين سر كلية الحقوق
طنوس فارس

٢٥ أيلول ١٩٦٢

عميد كلية الحقوق
وفيق القصار

الثمن: ٢٥ ل.ل.